

فخرية الحاضرة

فيل عبد اللطيف



ليبني للنشر
والتوزيع

نبيل عبد اللطيف

غريزة الحضارة

رقم الايداع / 10803 / 2014 ط1

الترقيم الدولى / ٨ - ٧٨ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / محمد عبد العزيز

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد



ليليت للنشر
والتوزيع

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيرق

أ/ محمود السيد

المراسلات : 60 ش سكينه بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧ - ٠١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilite@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

هَذَا الْكُتَابُ

ليس إلا محاولة حثيثة لفتح نافذة أُوْصَدناها بأنفسنا على أنفسنا!، وصرنا من ورائها في كهف الظلمة والغفلة والبؤس دهوراً وقروناً..حتى ما جت حياتنا بدابة الأرض ووحوشها!، وامتألت دُنْيَانَا صراعاً وفوضى وأسئ..وعُمِيَتِ الأبصار وضُمَّتِ الآذان ، وطُمِسَتِ البصائر والمصائر.

وما هو إلا نداء للأمة ورجاء للأهل لأن يوقدوا مشاعل النور..فقد آن لليل أن ينصرم ، وللظلمة أن تنقشع ، وللغافى أن يَفِيْق..وكان للنافذة أن تَنْفَتِحَ على مصاريعها ، لتشرق شمس حضارتنا الرشيدة من جديد.

فَقَدْ لَاحَ فَجْرُهَا

نبيل عبد اللطيف

القاهرة في سبتمبر 2013

هَذَا بَيْنَ الْغَفْوَةِ وَالصَّوْفَةِ

كلما تفكرتُ فيما آل إليه حال أمتنا تَتَقَطَّعُ أنفاسى وَيَحِيكُ بصدري ضيق شديد ، وحينما راودتنى هذه الحالة فى مَرَّتِهَا الأخيرة - وكعادتى - انطلقتُ هائماً غَلْنِي أعثر على مكان أَرْحَب لى وَأَرْحَم بى ، وإذا بى على شاطئ النيل..فألقيت بنفسى فى أحضان خمائله كمثل طفل يَتَوَقَّع لحضن أمِّه ليلوذ به من كَدَرِ أَلَمِّه ، ولحظة بعد أخرى شعرتُ بأنى أرتوى بنفحاته العطرة ولمساته الحنون الساحرة. ومع ساعة الأصيل تدفقت إلى النساء العليلة لَتُوقِظَ فى نفسى مشاهد غافية من نضرة الصبا ، وانسابت أجمل الذكريات تَتَرَى أمامى وتجلب معها بعض الأمل ،..وفى استسلامى لهذا السحر، إذ يطرق أذنى شَدُو غناء يتهاذى من مذياع - بعيد . يعلو هُنيئَةً مع هَبَّةِ النساء ويخفُّ أو يخفت مع سكونها ، ثم يعلو تارة أخرى ، إنه صوت الموسيقى الأشهر/ محمد عبد الوهاب يتغنى لهذا الشريان المغدق بأنشودته الرائعة ” النهر الخالد ”..ما أجملها من صُدفة ، وما أروع تلك اللحظة التى يَتَجَمَّع فيها هذا الإبداع الإنسانى مع روعة إبداع الخالق - سبحانه وتعالى..لكأنَّ القَدَر أراد أن يهبنى هذه الباقة الساحرة وفى هذا الوقت الدقيق ليشفى مَرَجَل صدرى. بَيِّدَ أن غفوة قصيرة راودتنى مع مُلاطفة النساء اللُّعُوب

لصفحة وجهي، لكن سرعان ما تعجلها نسمة لاطمة تأبى لى أن أغفو..ومع الوقت؛ بدا لى أن همومي التي جئت بها تنسحب عني نَجْلى ، وتُجرّج معها فلول اليأس وأطلال القنوط.. وفي لحظة التحوّل هذه رأيت في غفوة خاطفة مثل ما يرى النائم.. كأنه حلم!..أو أنه شيء بين الواقع والحلم:

كأنى أرى مشهداً من الفوضى والبؤس والفُبح يحيط ببركة ماء آسنة تزكم الأنوف. سحبات الهوام المانجة تملأ الأفق بطنينٍ يَصُم الآذان . جماعات القوارض الهاجنة تلاحق بعضها بعضا في صُراخ مُختلِطٍ بصراعٍ بغبار . عشش وأكواخ مهترئة وعشوائية . وأناس سُعث غُبر ، يستلقون على ظهورهم وجنوبهم في غفوة - أو ربما غفلة - فيما يشبه نومة أهل الكهف ، عدا البعض المستنفر هنا وهناك إما غضبا ، وإما شجارا، أو اقتتالا.. ورغم هذا المشهد المزرى إلا أن أطلالاً حجرية تطل بقاماتها من غابر الزمان لتعلن عن ماضٍ تليد لهؤلاء التعساء ، يبيد أنها مُتَوَشِّحة بالحزن والأسى كأنها تبكي حالهم..لكنها تعلن بجلاء أن الله قد أفاء عليهم - منذ غابر من الزمان - ببعض النعم، أهمها: كرائم من نور السماء، وتاريخ تليد ، وأدناها ألوان من كنوز الأرض وعطاياها ، بيد أنهم أبوا على أنفسهم أن يَجِدُوا ويسعوا ويعملوا لِيَنَعَمُوا بتلك النعم والهبات والكنوز..وباتوا وكأنهم راضون بما هم فيه من ذلة وبؤس وهوان.

* * *

وعلى البُعد يبدو مشهدٌ آخر لكنه مختلف أيما اختلاف ، يفيض زهواً ويموج حيوية ويحتدم جِدَّة ونشاطا..هضابٌ متوّجة بقصورٍ بديعة كأنها قطع الجنان

. أسراب طيور مزركشة تجوب صفو السماء في زهو وخيلاء ، كأنها ترح في عرس أو تتهلل في کرنفال ، أو أنها تُحاكي رقصات عبقرية التصاميم والإخراج . وأناس مُترَفَعُونَ ، مُتَرْفُونَ ، مُنَظَّمُونَ ، في جِدة ونشاط وجِراك ، كأنهم الماكينات الدائرومن الهضبة، تهوى -تباعًا - غارات البغي الضارية على الأرض الواطئة لتستنزف ما تطويه من أرزاق وكنوز وثمار..ونقر قليل من أهل البركة رفق بهم الحال وراحوا يصيحون في أهليهم : هاتوا هاتوا..أفيقوا...أفيقوا...! فاسترقوا السمع لهم هُنيئة ، بيد أنهم عادوا إلى غفوتهم أو غفلتهم غير عابئين.. وغارة اللصوص تعيد كرتها المرة بعد الأخرى وبشكل أشد ضراوة وشناعة ، ومازال الناس في استكانة الغفلة برغم النذائر التي تنذر بسيل جارف جارى نحو الوادى بِضَجِّهِ وَضَحِيحِهِ ، ولا مَظَنَّة فيه إلا حُصْد كل أخضر ويابس..ولن يصيب إلا كل أرضٍ واطئة...!!.

* * *

هذا ما بدا لى في غفوتي القصيرة..ولعله من دواعى اليأس الذى أتيت به ، بئد أن صحوتى من تلك الغفوة كانت على مَوعِد مع باقة الأمل التى أهدانيها النيل وأزاحت عني همومى وأيقظت فى قلبى بارقة الأمل من جديد.. فأفقت، وهمست لنفسى: ” ما أشبه حالنا اليوم بهؤلاء الغافلين فى بطن الوادى ، فغفوتنا ليست فى حاجة إلى صَحْوَةٍ ، بل إلى الإفاقة..ولن تُجدى صرخات النفير وحدها ما لم نفتح أعيننا على بارقة الأمل حتى نفيق.

ومن المفارقات أن أتذكر في صحتي - تلك - قولٌ لمفكرنا الإسلامى الكبير فضيلة الشيخ / محمد الغزالى - رحمه الله - فى كتابه القيم: (سر تأخر العرب و المسلمين) يطابق حال أهل هذه البركة وحال أمتنا على سواء حيث يقول : ” إن الإسلام يمر بأسوأ محنة عرضت له خلال تاريخه كله ، و ليس أعجب من تجمع أعدائه عليه إلا زهول أتباعه و إحتباسهم فى مآربهم ، أو انشغالهم بقضايا لا تسمن و لا تغنى من جوع“.

لقد كان مفكرنا الإسلامى الكبير ضمن فصيل من أهل الفكر وحملة النفير على عهدهم الدائم يبتئون روح الحماسة فى بوق أقلامهم..منذرين أمتهم فى فتوة بالغة..مشخصين أمراضها..مشيرين إلى أسرار تخلفها..وإلى أدواء صحتها ، وكثيرون غيرهم من مفكرينا ساروا على نفس الدرب ليستكملوا ما بدأه الرواد الأوائل منذ عقود غير بعيدة ، لعل أبرزهم العالم الجليل الإمام / محمد عبده والشيخ الثائر/ جمال الدين الأفغانى ,وغيرهما .. ولكن هل من سامع لصوت النفير ونُذر النذير ؟! . أحسب أن أصواتهم كادت تضيع سُدى ، ذلك لأن الأمة مازالت فى سباتها ، واليقظة التامة لم تلح فى الأفق بعد ، فنؤمتنا - أو قل غفوتنا - قد طالت دون حراك ، وقد يحسبها الظانون مؤتة ، وسلطان اليأس أقوى وغالب على أمره ، ولن تجدى معه أجراس الخطر وصيحات النفير مالم يصحبها بريق الأمل وبصيص الرجاء ، هذا الرجاء لا أراه إلا فى أن ندُل أمتنا على منابع الخير فى نفوس أبنائها ، وعلى مناجم نفائسها وكنوزها.

وحسبما أرى :فإن أول خطوة نرجوها لنفتح بها نافذة الأمل هي أن نوقظ الروح التي استنامت في نفوسنا ، وذلك بأن نتعرف على حقيقة أنفسنا وعلى ينابيع الخير فيها ، وأن نزيل ما تهدل عليها من ركام تخلفنا ومن جهلنا ومرضنا ، ونصلح من شأنها ونُهيئها ونعدّها لتفيض بالخير والعزة والمنعة من جديد ، ف (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) قرآن كريم ..ولتنتقل حضارتنا من جديد وتستانف واجبها الإنسانى فى مختلف أرجاء المعمورة.

والينابيع التى أقصدها ليست إلا بادرات مغروسة فى فِطرة كل إنسان.. إنها غرسات : (العقل & الفكر & الإرادة & الإبداع & الحرية) ، قد غرسها الخالق فى فطرتنا وفرض علينا أن نُزكّيها ونُسجّرَها فى إستعمار الأرض ، فتفلق لنا دنيانا ونفوز بالآخرة ، لا أن ندسّها ونهملها كما أهملناها سابقاً..هى مناجم النفس النفيسة وأدوات ومعدات البناء والتقدم والرقى ، وهى مشاعل الحضارة وينابيعها التى استحققنا بها مقاليد الأمة الوسط،منذ ما يزيد على الأربعة عشر قرنا، وكنا بها خير أمة أُخرجت للناس والشهداء على الناس..إلا أن حالنا قد تبدل منذ قرون غير بعيدة! ، فالعقل فىنا صار هزىلاً ، وفكرنا عاجز شليل ، وحریتنا مكبلّة بما نحن فيه من بؤس، وينابيع الخلق والإبداع قد طُمست أو غاض معينها ، وإرادتنا باتت كآلة صدّة أحوج للإصلاح لتنبعث فيها الحركة والإنطلاق من جديد.

تلك هي بعض الخواطر التي طافت بخاطري في جلستي بين أحضان النيل، الذي أراح عني يأسى ورواني ببعض الرجاء ، وودَّعته وداع الصديق ، وعُدت متحررا من الهموم التي أتيت بها ، أحمل معي باقة الأمل ، وعُدت من حيث أتيت عازما تقصّي أسرار النفس الإنسانية للبحث عن تلك الينابيع الفطرية الأثيرة وعلى نوازع الحضارة فيها علّني أهتدى إلى بعض ما ينفع الناس ويسهم - وإن بالنذر اليسير - في إقالة الأمة من عثرتها.

فخطوتنا الأولى لنهضة الأمة هي تعريف الأهل في كل بقعة من الوطن العزيز بأسرار النفس ومنابع الخير فيها ومناجها النفيسة ، واليوم هو موعدها.. فنذ أكثر من قرن ونحن في هذا المنعطف التاريخي الذي تحاول فيه الأمة النهوض ، إلا أن قوى منكرة ما فتئت تثبط من عزمها ، منها الاستعمار البغيض الذي جثم على سائر الأوطان يمزق أوصالها ويستنفذ الخيرات والطاقات وينهك القوى ويشيع الجهل. وما كاد يرحل.. إلا أن الوحوش تعاود كزَّتها على الفرائس المهيضة ما دام ضعفها . وما بقيت الغريزة.

لكن أهم هذه المثبطات هي ذلك العطب الذي أصاب الفطرة من طول فترة الركود.. وقد رأى الصفوة من أهل الفكر أن الصحوة لن تأتى إلا ببعث الروح التي استنامت بالنفوس وإزالة ما تجذّر فيها من أعطاب الفطرة ، وعلى كل منبر، نادى أهل الفكر وأهل الدين، على سواء بأن يتمسك الناس بالتوجيه القرآني الحاسم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).. ولم يقل أى منهم ما الذي يمكن إن يتغير في النفوس، وما سبيل كل منا ليغير ما اعتور

بنفسه ، فالنفس كما المحيط ما زالت تطوى أسرارها في قرارها المكين ، وتعثرت الخطى بسبب الجهل بحقيقة النفس ، وانقشع بصيص الأمل الذي بدا مع مقدم الرواد الأوائل للنهضة حتى ذهب صوت نفيهم سُدى ، وما زالت الأمة تستجمع عزمها ولم تنهض بعد ، وما زالت الوحوش الحائمة تتربص بنا كالأكلة حول قصعتها.

وقد اجتهدت في البحث عن تلك الينابيع التي غرسها الله في الفطرة والتي ما إن تفيض في نفوس أبناء الأمم تدفعهم للتقدم والرقى على مدرج الحضارة ، وما أن تغيض فليس إلا الركود والجمود والتقهقر والتخلف والذلة والهوان ، وتكونت لدى رؤية أحسبها خطوة أولى، وإن كانت محدودة في سبيل كشف خبايا النفس وأسرارها ، وسجلت رؤيتي بين دفتي هذا الكتاب في نظرة فلسفية إسلامية مستندة على آيات من القرآن الكريم وعلى سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) وسيرته العطرة ، ومبتدئا بما انتهى إليه أهل الفكر، قديمه وحديثه ، وتناولت كل غرسة منها بالبحث والدراسة، في منهج مستفيض يجلى هذه الغرائس ويبين أصولها الفطرية وأسباب وأعراض عللها وأمراضها ، وسُبل معالجتها ، وكيفية إعدادها وتهيئتها من جديد لتتورف وتزهر وتثمر بالخير ، وآمل أن أكون، بذلك قد فتحت نافذة الأمل التي أرجوها.

يتناول الكتاب أهم تلك الغرائس التي استوهبها الله الفطرة باعتبارها معارج الارتقاء وأدوات بناء الحضارة ، وهي غرسات أربع : (الإبداع / الحرية / العقل / الفكر).. أما عن الإرادة فقد تناولت موضوعها سابقا في كتابي الأول : «

الإنسان كما فطره الله ،، ولسنا فى حاجة إلى إعادة عرضه مرة أخرى.. كما رأيت أن أنتهج نهجاً يقرب الموضوع من القارئ ، فألبسته ثوب البساطة واليسر بعيداً عن ترفع الأسلوب الفلسفى ، كما استعرت من مبدعى الفن السينمائى مذهب « الواقعية » من حيث ربط موضوعات الكتاب مع واقعنا دون نجل أو موارد ، واستنسخت صوراً ومشاهداً من واقعنا وأسقطت عليها الضوء لاستجلاء ما نريد طرحه من أفكار.

ومن فضل الله تعالى أن قاعدة انطلاقنا مازالت راسخة ، وأن أمتنا مازالت تضع أقدامها على المضمار -رغم العثرة ، كما وأننا نملك مرجعية اللغة المشتركة وهى لغة القرآن الكريم ، ويربطنا إيمان مشترك وفطرة سليمة ، كما نملك النبع الثقافى الإسلامى الفياض الذى بإمكانه أن يوجّد الإرادة ويشحذ العزم ويلم الشمل ، وتاريخنا الزاهر يملأنا انتشاء وثقة.. فقط،علينا أن نستهل خطوتنا الأولى لنعيد كزّة التاريخ من جديد.

وإليك شهادة حق أقرّ بها أحد مفكرى الغرب وهو: (توماس جولدشتاين) التى أوردها فى كتابه : « المقدمات التاريخية للعلم الحديث » الذى أصدره المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت الشقيقة ضمن سلسلة عالم المعرفة تحت رقم 296 عام 2003 وترجمه إلى العربية - فى لغة بديعة رشيقة - الأستاذ / أحمد حسان عبد الواحد ، وقد أفرد المؤلف فصلاً كاملاً بعنوان (هبة الإسلام) كل ما جاء فيه ينبض بالصدق والأمانة العلمية ، وتحدث فيه عن دور الحضارة الإسلامية وأثرها البالغ فى الحضارة الغربية ، كما ذكر

الإسلام بأنه أحد أشد الظواهر إدهاشا في التاريخ الثقافي ، وأشار إلى عوامل ازدهار هذه الثقافة وذكر منها : الحماس الفطري لاستيعاب الميراث الثقافي في البلاد المفتوحة ، كما تحدث عن أثر القرآن الكريم في الازدهار الحضارى بمنحه المجتمع الإسلامى مرونته الاستثنائية ، ومنها الطابع الكونى للثقافة الإسلامية نظرا لامتداد تلك الحضارة فى اتساع العالم القديم من نهر النهانج إلى المحيط الأطلنطى، حيث وَحَّدَت داخل مجالها التقاليد الثقافية للهند وبلاد فارس وما بين النهرين ومصر وبيزنطة والميراث الإغريقى الرومانى فى غرب البحر المتوسط فى نسيج ثقافى جديد متماسك باللغة المشتركة والإيمان المشترك وطريقة وأسلوب الحياة المشترك ..وانتهى إلى قوله : « ثمة ميمض وتألّق وتوهج وبهاء زاه ينبعث من البلدان الإسلامية عبر أوروبا خلال القرون الوسيطة...وأن العلم الإسلامى كان نمطا من البحث الشديد التخصص ،كان الأوروبيون مستعدين لمواصلته من حيث انتهى المسلمون وللتقدم به بشروطه المدققة والمضنية ..».

ونكتفى بهذه الإشارة السريعة المختصرة من شهادة أحدهم من الشاطىء الآخ، لعلها تبعث فينا بعض الأمل وتوقظ فينا الثقة لاستعادة دورنا التاريخى التليد الذى تتعطش له الإنسانية من جديد ، وأحسب أن موعده ليس ببعيد. وبعد .. فهذا الكتاب ليس إلا كلمة مخلصه ، وأغلب ظنى أنها لا تُجافى الحقيقة..وكم تمنيت أن تجد آذان صاغية ، لربما يكون فيها ما يصلح بعض الشأن.

*** وَالله تَعَالَى وَلِىُّ التَّوْفِيقِ ***

الباب الأول

«إن شيئاً مُثِرا قد غَرَسه الله في أعماق المبدعين أشبه بجذوة حامية
قَلِقَة تتمرد على الجمود وتتعطش للتجديد وللإبداع ، وتنفعل وقت
الحاجة الإنسانية لها فتدفع بالعقل دفعا ليدير ساقية الفكر كي يطفئ
ظمأها...»

- لحظة الإبداع
- موطن الإبداع في النفس
- الغرائز
- الغرائس
- الإبداع العلمى
- الإبداع الفنى
- استكشاف المواهب
- المبدعون والحضارة
- سمات المبدعين
- ما بين الإبداع والحرية

لا شك أن المبدعين والمبتكرين والمكتشفين والعباقرة الكبار الذين برزوا في كافة ميادين العلوم والفنون والأداب وغيرها من مجالات الاجتهادات الإنسانية - وعلى مدار التاريخ الإنساني كله - هم موضع تقدير وفخر وإعجاب لا حدود لها ، في كافة أرجاء الأرض ، ذلك لفضلهم العظيم في ترقية الحياة الإنسانية وفي تيسير سبل المعيشة وترسيخ الأخلاق ونشر السلام ، ولأنهم من الصفوة الذين قادوا المسيرة الإنسانية نحو التقدم والإزدهار وإعمار الأرض منذ بدأ ظهور الإنسان يستر عورته بورق التوت ويبحث عن كهف يؤويه من غدرات الطبيعة وسعار الوحوش وحتى يومنا هذا الذي بلغت فيه الحضارة الإنسانية شأواً عظيماً ، ولا شك أن هؤلاء الصفوة كان لهم الحظ الأوفر في تألق موهبة الله بأعماق نفوسهم والتي اتخذوها إماماً لهم في سبيلهم الميمون هذا ، لكن الملفت للنظر هو أن تألقهم هذا قد جاء في التاريخ على موجات متتابعات ، كومضات إشعاع تتلألأ دائماً في أزمان العزّة والحضارة ، وتخفّ دائماً وأبداً في مواطن التخلف الركود والتراجع وفي أزمان اليأس والهوان.

ذلك الإبداع الإنساني المثير..وبما يطويه من أسرار ومن دهشة وإثارة خاصة،فما يخص ذوات هؤلاء المبدعين البارعين ، ولماذا هم - بالذات - من حظي بهذا الشرف دون غيرهم من باقي الخلق! ، وكيف تتسنى لهم هذه الخصلة

الإبداعية ، ومتى تنبثق فيهم تلك اللحظة الخلّاقة الساحرة لتفيض بالبراعة والإعجاز والخير!؟، وما هي دواعي هذه اللحظة المخصوصة!؟.. وأحوال أخرى مرتبطة بمواهبهم وأحوالهم وأحوال مجتمعاتهم.. تستحق أن نتقصّى آثارها بدءاً من تلك اللحظة التي يتخلق فيها كل إبداع إنساني جديد في أى من مجالات العمل الإنساني الخلّاق.

لَحْظَةُ الْإِبْدَاعِ.

إن شيئاً مثيراً قد غرسه الله في أعماق هؤلاء المبدعين أشبه بجذوة حامية قلقة تنمرد على الجمود وتتأبى على الرضوخ لثوابت الواقع ، وتتعطش للتجديد وللإبداع ، وتنفعل وقت اشتداد الحاجة الإنسانية لها ، فتدفع بالعقل دفعا ليدير ساقية الفكر كي يطفئ ظمأها.. هي حالة من من حالات التألق الفطرى أشبه بومضة خاطفة تعود فيها فطرة المبدع بكرا كما خلقها الله ، فتوافق مع فطرة الوجود الكونى أو تندمج بها ، وفي هذا الوقت الدقيق يستطيع صاحب الموهبة الإبداعية أن يطّلع على بعض أسرار النواميس الوجودية الكونية ويرتشف ويستلهم منها ما يتيسّر له.

هي إذن، لحظة عناق بين فطرتين سرعان ما يفترقا ليعودا للعناق من جديد في أوقات متفاوتة.. حينها تتخلص النفس من أدرانها وتعود على صقلتها الفطرية وتصير كما المرأة اللامعة وتتهياً لأن تستقطب مدداً من الأنوار الإلهية

وتستلهم لونا من أطيايف الإشراقات النورانية الإبداعية التي تتوق له حنايا النفس ويتشوق له جِماع العقل والقلب.

إن في قلب كل مبدع تلك النزعة الإبداعية الخلّاقة ، وهي التي تنفعل في هذى اللحظة الباهرة، وإنها لمنحةٌ كريمة من الخالق البديع لأفراد الأسرة الإنسانية جميعهم لكنها متفاوتة بين فرد وآخر ، بيد أنها تتألق وتنجلى وتنفعل على أشدها في أفراد بعينهم، وفي مواطن وأوقات وأزمان مقدرة تقديرا حكيما ، وقد شاء الله أن يتحمل هؤلاء المبدعون عبء التحضر والتقدم والرقى الإنسانى.. لأنهم مُكَلَّفون بذلك نيابة عن سائر إخوانهم من البشر، أو أنهم مأمورين بها.

وباستعراض أحوال هؤلاء المبدعين الذين صاغوا الحضارة الإنسانية بما قدموا من ثمرات إبداعاتهم ومن روائع عبقريتهم ، وبإلقاء نظرة مجهرية على تلك اللحظة التي استلهم فيها أى منهم نظريته أو إكتشافه أو اختراعه أو إبداعه ، قد يتيح لنا تأمّس موطن هذه النزعة الخلّاقة فى النفس ، ألا وهي :«غرسة الخلق والإبداع» ، كما قد يتيح لنا التعرف على الحوافز التي تبعث فيها حرارة الانفعال فى تلك اللحظة الخاصة ، فإذا ما تسوّرنا سياج النفس المنيع وأزحنا أستارها سترًا بعد ستر ، ودلفنا خلصة لحناياها فى رحلة استكشافية لهذا الينبوع النفيس ، لانكشفت لنا هذه الغرسة الكريمة لتعلن عن نفسها بلا حجاب أو موارد ، ولتكن بدايتنا بالنظرة المجهرية المكثفة فى حنايا تلك اللحظة

الاستثنائية التي يفيض فيها نبع الإبداع. ولأجل هذه الإطلالة الثرية سنطوى الزمن لبعض المئات من السنين في أوقاتٍ شهدت بدايات النهضة الحضارية لأهل أوروبا ، وسنقترب من بعض العلماء والمخترعين البارعين الذين ساهموا بإبداعاتهم في تقدم الإنسانية ، وربما نقتحم محرابهم العلى لنرقب هذه اللحظة المتألقة بالإبداع والخلق والبراعة ، وسنكتفٍ نظرتنا في تلك اللحظة المتألقة التي استلهم فيها كل منهم إبداعه أو اكتشافه ، وسنمعن فيها النظر ونقف على مشارفها وقفة المستكشف المتأمل لتتعرف على دوافعها وعلى الموعِد الذى تأتى فيه والحالة النفسية التي عليها المبدع وقتها ، ونتعرف من كل ذلك على حال هذه الغرسة الخلاقة.. فمن فضل الله علينا أن حفظ التاريخ بعض هذه اللحظات الثرية في الحياة الإنسانية ونقلها في مرمى إدراكتنا الحاضرة في مشاهد أثرية.

فلا ينسى التاريخ ذلك العالم الكبير: (جاليليو جاليليو) كواحد من أشهر وأهم المبدعين البارعين في مجال العلوم على مر التاريخ ، فقد جاءته مثل هذه اللحظة المخصوصة أثناء حضوره أحد الطقوس الدينية في كاتدرائية بيزا العملاقة بإيطاليا وعمره وقتها لم يناهز السابعة عشر ، وقد تواجد في الكاتدرائية كواحد من شباب المدينة المتدينين الذين يواظبون على حضور القداس ويؤدون الصلوات بكل خشوع وإخلاص ، إلا أنه في هذا اليوم لم يؤدى تراتيل الصلاة بنفس القدر من الإخلاص والخشوع ، ذلك، لانشغاله بتراتيل أخرى موصولة بالسماء ولكنها تراتيل نابعة من نداء الموهبة القابعة في حنايا قلبه ، والتي أخذت بمعاقل نفسه في وجهة أخرى لا تقل جلالا عن جلال الصلاة.. فقد كان مشدودا

إلى ثُرَيَّا تتدلى من سقف الكاتدرائية وهي تتأرجح يمينا ويسرة بفعل تيار الهواء المتدفق من النافذة القريبة ، وظل مشدوداً بناظريه وعقله ولبّيه ووجدانه إلى هذه الثريا وهي مستسلمة لزمام الريح ، فتتحرك يُمينة ويُسرة من خلال قوسٍ ضيق أو من خلال قوسٍ أوسع بحسب شدة الريح ، ووجد نفسه منشغلاً بأمر تلك الحركات الاهتزازية للثريا حتى استغرقه هذا المشهد المثير كلفةً ، ونسى تماماً أنه قد أتى للتعبّد بالصلاة ، كما يبدو أنه قد نسى تماماً أنه محاصر بمجموع غفيرة تنصت في خشوع وإجلال لصوت التراتيل الرخيمة ، ويبدو أنه مستغرقٌ في لحظة سَبَحُوتٍ في ملكوت الله ، وظل «جاليليو» يرقب الثُريا عن كُتُب بوجهِ جامد مفعم بالحماسة وينظر ثاقب ملء بالشغف وبصيرة متلألئة لا تحجبها غشاوة ، وبعد وقت قصير بدت في عينيه ومضة ذكاء ساكنة ، وفجأة! ملعت صفحة وجهه لمعاناً مشرقاً وكسّته ثقةٌ ممزوجة بالدهشة الغامرة ، ثم تهلّل بابتسامة عريضة ومكتومة ، فقد اكتشف وقتها أمراً مثيراً ومدهشاً للغاية ، حينما لاحظ أن الثريا تأخذ زمناً ثابتاً في كل الأحوال (إنه الآن في لحظة التألق العقلي والذهني ، وفطرته الآن قد أضحت في كامل إستنارتها..إنها لحظة فارقة في عمره وفي عمر الإنسانية على سواء..لحظة مُقدرة يمنحها الخالق سبحانه وتعالى لبعض خلقه ولِحكمة مقصودة ..لحظة تذوب فيها فطرة إنسان في نواميس الكون الأعظم لترتشف منه قبسا من قوانينه)..في هذه اللحظة بدا له مدى الإحتياج الشديد إلى آلة لقياس الزمن الذي تأخذه كل أرجوحة للثريا (في جيئتها وفي ذهابها) ، ليُثبت لنفسه بالتجربة وبالدليل العلمي مدى صحة

ملاحظته المدهشة التي أخذت بلُب عقله ، فمن أين يأتي بهذه الآلة الزمنية التي يحتاجها بشدة في هذه اللحظة الدقيقة؟.. أين يعثر عليها؟!.. وكيف؟!، كيف له من سبيل للخروج من بين هذا الجُمع الخاشع المستغرق في العبادة والصلاة؟! فأى حركة سيأتيها في هذه اللحظة ستجلب صوتاً شاداً يفتك بقدسية اللحظة ويهتك بقداسة المكان ، وحتماً سيتحول الجُمع إلى حالة من الثورة والغضب.. وتقطّبت قسّات وجهه وبدأ يشعر بقلق شديد.. لكن سرعان ما عادت إليه علامات الرضا والهدوء.. ففي هذه اللحظة المشحونة بالجِدّة والمدهشة والإثارة والمتعة معاً جاءته النجدة من عقله المتألق ، فعقله الآن في كامل استنارته ومُصنّف من أى شواغل دنيوية أخرى سوى أمر تلك الثريا المتأرجحة ، عقله الآن حاد وبإمكانه أن يرشد صاحبه إلى بغيته دون جهد أو بحث أو تنقيب ، عقله الآن لا يبصر فقط ولكنه صار ذا بصيرة نافذة..وها هو العقل يُقدّم له الحل الحاسم اليسير دون أن يحرك ساكناً ، ودون أن يقوم من مقامه ، ودون أن يعكر صفو الصلاة ، ويا للمدهشة والعجب!!.. إنه حلٌّ لم يكن أبداً في الحسبان!، وإنه لأقرب إليه من كل شيء!!، فقد عثر على تلك الآلة الزمنية الدقيقة التي اشتد احتاجه لها في حبل الوريد النابض نبضاً منتظماً برُسخ يده!! ، فعادت قسّات الفرحة والسعادة تكسو وجهه من جديد ، وتناول رسغه الأيسر بأنامل اليد اليمنى ليعدّ النبضات التي تستغرقها كل أرجوحة للثريا ، وصار وجهه مضيئاً من فرط السعادة ، وبدأ يتهلّل من جديد ، ولمعت العبقرية في عينيه حينما اكتشف لحظتها بالقياس وبالدليل العلمى أن وقت الأرجوحة ثابت في كل الأحوال

سواء في الأرجحة الواسعة أو المتوسطة أو الضيقة ، ومهما اتسعت أو ضاقت الاهتزازة فإنها تستغرق نفس العدد من الدقات النابضة في رسغ يده.. فهرع إلى بيته فور إنتهاء الطقوس وصنع أشياء يمكنها التآرجح بمثل ثريات الكاتدرائية ، وعلّقها بأطراف خيوط متدلاه من سقف حجرته وانهمك في قياسات وتدوينات ، وبعد حين قدم لنا إكتشافه العلمى - المذهل وقتها - وهو قاعدة البندول ، وكان اكتشافا مذهلا أفاد البشرية ، وساهم بشكل مؤثر وكبير في تقدمها ورقيا. وإن لم يؤدي «جاليليو» تراتيل الصلاة حين انشغاله باستلهاهم إبداعه إلا أنه كان - وقتها - في لحظة صفاء وعبادة وصلاة ربما تكون أكثر خشوعا وأعمق صلة بالله..أو بالأحرى هي كذلك.

لعل هناك سرا من الأسرار تحمله هذه اللحظة الخلاقة التي تألق فيها عقل عالمنا (جاليليو) وفاز فيها بقبس من العلم المستور في كون الله ، وإذا قمنا بتحليل تلك اللحظة الثرية ستدهشنا أمور عدة:

أولا : وفي بدء الأمر، أنها جاءت مفعمة بالسكينة والخشوع أثناء أداء الصلوات ، وفي مثل هذه الأوقات الساحرة تصفو القلوب وتنجلي الفطر ويؤوب الحاضرون إلى بارئهم ، هي لحظة الصفاء والتحرر من أسر الدنيا ومن متاعها وأدرانها ، إنها لحظة الخلاص الفطرى والسّموّ الروحى التي تعود فيها النفس بكرة كما فطرها الله ،..هي لحظة الإلهام التى يتيحها الخالق سبحانه وتعالى لبعض خلقه.

والأمر الثانى : أن جميع من كانوا بالقاعة - ساعتئذٍ - لم يشعروا أو ربما لم يلتفتوا أو ينتبهوا للثريا المتدلاه من سقف الكاتدرائية حال تأرجحها بفعل الريح، ومن شاهدها منهم لم تحرك فيه ساكنا ، فلم تكن اهتزازات الثريا تعنى لأى منهم أمرا ذى بال خاصة فى الوقت الذى تقام فيه الصلاة ، ثم أنها ليست المرة الأولى التى يشاهدون فيها تحرك الثريات أو أى أشياء متدلاه مثل هذه الحركات الاهتزازية الأرجوحية ، إلا أن الأمر لم يكن بالنسبة لجاليليو على نظيره مع الآخرين ، خاصة فى هذه اللحظة بذاتها..لابد أن شيئا فى أعماق جاليليو، دون غيره قد إنتفض منفعلا بحركة الثريا على النحو الذى شد انتباهه فى هذه اللحظة المقدرة ، وهذا ما سنبحث عنه لاحقا.

والأمر الثالث: أنها لم تكن هى المرة الأولى التى يرى فيها هذا الشاب الموهوب مثل هذه الأشياء المتدلاه وهى تتحرك على هذا النحو ، فلمؤكد أنه هو الآخر قد شاهد هذا المشهد من قبل كثيرا ولم ينفعل لها قلبه إلا فى مرتها الأخيرة ، ذلك لأن هذا هو موعدها المقدّر الذى تجمعت له كافة الظروف المناسبة وتهيأ الزمان والمكان والأحوال جميعها لاستقبالها ، هى لحظة ذات قدرٍ وقدرٍ وميزان دقيق.

ورابع هذه الأمور : أن هذا الحدث كان فى غضون القرن السادس عشر وفى مرحلة كفاح الأوربيين لتحرير الفكر من براثن الكنيسة المهيمنة على

كافة شؤون الحياة بصفة عامة وشؤون الفكر بصفة خاصة ، وجدير بالذكر أن الكنيسة قد حاكت «جاليليو» في نهاية مشواره الإبداعى عندما أعلن أن الشمس هي المركز الذى تدور حوله الأرض ، ورأت الكنيسة أن مقولته عن دوران الأرض حول الشمس أمر يخالف العقيدة الدينية ، حيث كان المعتقد الدينى السائد وقتها هو: أن الأرض هي المحور الذى يدور حوله كافة عناصر الكون كله من نجوم وكواكب وشموس بل وهي مركزه أيضا ، ولم تكن شهرة هذا العالم العبقري الذائع الصيت ذات قيمة أمام عنفوان وسطوة الكنيسة التى بادرت بالقبض عليه ومحاكمته بتهمة الزندقة ، وبعد طول فترة المحاكمة رأت الكنيسة أن من الأفضل لها أن تحيِّره بين الموت وبين التنصل من دعواه على الملأ ، ففضِّل الحياة على الموت ، ولكنه قضى ما تبقى له من عمره معزولاً حتى مات وهو يردد « ولكنها تدور»...حدث ذلك فى فترة الربيع العقلى لسكان أوروبا ، تلك الفترة الربيعية المنعشة التى تحمل معها لقاح الفكر الإنسانى ، هذا المناخ الربيعى المناسب لتفتُّح الزهور والعقول معاً قد ساهم بشكل مباشر فى نماء وترعرع غرسة الإبداع فى عموم الناس هناك ، ومن بينها غرسة الموهبة المتأججة « لجاليليو جاليلى» ولغيره من العلماء وأصحاب المواهب الأخرى ، تلكم هي فترة الانتقال بين هيمنة وسطوة سلطان الكنيسة من جهة وتحرر الفكر والعقل من جهة أخرى ، ما بين القرن الرابع عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ويمكن أن نسميها مرحلة تكسير ونزع القيود والانفلات من الأسر الفكرى وتجميع القوى للتحرر من عهود الظلام ، وبدايات تحرك حثيث للفكر وتفتح

محسوب للعقل وإزاحة سلطان الكنيسة برفق ، وقد تزامن ذلك مع تغلغل الفكر العلمى الإسلامى فى العقل الأوروبى خاصة أفكار ابن رشد وابن سينا حيث بدأت تتعرف أوروبا على أفكارها قبل ذلك بقرن أو أكثر ، وقد وضع توما الأكوينى مدرسيته الفكرية - التى شكلت فتحاً للفكر الأوروبى وأنطلاقاً للعقل الغربى - على أساس أفكار ابن رشد.

ثم نمضى للحظة أخرى من لحظات التألق الإبداعى التى يذكرها التاريخ بعجب وافتخار ، فهذا عالم آخر من أهم العلماء الذين لهم الفضل العظيم على الإنسانية وعلى الحضارة الحديثة ، إنه عالم الفيزياء الأشهر : (إسحاق نيوتن)..فى عصر يوم دافئ من أيام الربيع نراه مستلقيا أسفل شجرة تفاح على البساط الأخضر الناعم لحديقة بديعة غناء ، وفى حالة إسترخاء واستمتاع بالنسيم العليل ومناظر الطبيعة الخلابة ، ويبدو أنه فى لحظة غير معهودة من السمو النفسى والصفاء ذهنى والتألق الفطرى ، حتى أن عقله قد انغمس فى ملكوت الله فى سياحة فكرية عفوية ، إنها تلك اللحظة التى تذوب فيها الفطرة الإنسانية فى فطرة كون الله الفسيح ، أو هى بالأحرى لحظة عناق تذوب فيها الفطرتان عشقا وولهاً وتنفعل فيها البصيرة فى سُبُحات نافذة لأسرار الله فى كونه وفى خَلقه ، إنها لحظة صلاة وتضرع وخشوع وجدانى خاص ، وفى مثل تلك اللحظة الساحرة تتسامى النفس وتتألق الفطرة وتنمحي خصلتى الغل والحسد فى بواطن النفس ، وتختفى معهما نوازع البغض والحقد والكُره ، وتنصرف كافة

نوازع الشر من حنايا النفس ، وتزكو نوازع الخير لتغمر القلب بنورٍ صافٍ.. هي اللحظة التي ينشرح فيها الصدر وتهون فيها مصاعب الدنيا وهمومها.. وبالجملة.. هي لحظة الصفاء الفطري والصفو النفسي والسعادة الحقيقية.

في هذه اللحظة، التي يندر تكرارها - سقطت بالقرب من عالمنا «اسحاق نيوتن» ثمرة من ثمار التفاح ، فانفضت لها نزعة قلبية إبداعية موهوبة له من الخالق سبحانه وتعالى ، وعلى أثر انتفاضتها تفجّر ينبوع الفكر وأطلق سيالا من الاستفهامات والتساؤلات لتثير معها قلقا مُزْمِنًا في النفس ظل يساوره ويدق عقله دقا مؤلما حتى حصل على الإجابات الشافية لها.. ما الذي أسقط تلك الثمرة؟! فكل شيء يظل ساكنا ما لم تتدخل قوة لتغير من وضعه.. فما هي إذن تلك القوة التي غيرت من سكون الثمرة إلى الحركة؟!.. ولماذا تدفع الثمرة للجهة الأسفل على وجه الخصوص؟! ، ولماذا جاء سقوطها بهذا المسار العمودي؟!.. ولماذا لم تقع لأي جهة أخرى؟!.. لأعلى مثلا!.. ولماذا تسقط كل الأشياء دائما نحو الأسفل؟!.. وما هي السرعة التي تستغرقها الأشياء الساقطة؟! وهل سرعة السقوط هذه ثابتة أم متزايدة أم متناقصة؟!.. ولو فرضنا سقوط أشياء مختلفة الأوزان والأحجام من مكان مرتفع نحو الأرض وفي لحظة واحدة ، فهل تصل جميعها إلى الأرض في وقت واحد؟.. أم ستختلف أزمان السقوط؟.. وإذا ما اختلفت السرعات فهل تكون بحسب الوزن؟.. أم بحسب الحجم ؟ ، وما هي العوامل التي يمكنها أن تغير من هذه القوة؟!.. ، هكذا، يتوالى سيال الأسئلة

دون هوادة وبلا انقطاع ولن يهدأ له بال ما لم تأتى له الإجابات الشافية..فى تلك اللحظة الإبداعية الفارقة بدأ عقل عالمنا «نيوتن» فى رحلة البحث عن قانون الجاذبية وقوانين الحركة ، والمؤكد أنها لحظة ذات قدرٍ محسوب من قبل الخالق سبحانه وتعالى ، وفى زمن مقصود بحكمة بليغة ، وفى موطن ومكان مقدّرٍن تقديرا حكيما ، ولشخص من الناس مقصودٌ لذاته ، قد وهبه الله «مُوهبة» تحمل تلك النزعة الفطرية المأمورة بأن تسلك سُبُل العلم وفى فرع منه بذاته. هكذا، وبسقوط ثمرة التفاح فى هذه اللحظة الحكيمة إنفتح باب كبير من أبواب علوم الحركة الكونية قد استفادت منه الإنسانية إفادة عظيمة ، بل وكانت أحدى أهم الدعائم لرقى وتقدم وحضارة الإنسانية فى العصور الحديثة.

وإذا ما تَفَحَّصْنَا هذه اللحظة الإبداعية، سنرى أن عالمنا (نيوتن) يحمل فى قلبه مِنحة من المنح الإلهية التى يختص بها المولى سبحانه وتعالى بعض الناس فى أزمان مُقدَّرة تقديرا حكيما ، إنها موهبة مأمورة بالانغماس فى فطرة الكون ومُكلَّفة باستقراء بعض قوانينه واقتباس طيف من نواميسه ، هذه الهبة لها سلطانها الأمر على العقل وعلى كافة نوازع النفس خاصة، فى لحظات التألق المُقدَّرة هذه، فالثمرة، حال سقوطها كأنما ضغطت على زر فى قلب هذا العالم الكبير ليشعل شحنة الموهبة الإبداعية التى أثارت عقله وشغلت فكره بالعديد من تلك الإستفهامات المتعطشة ، لتدق رأسه دقا متتابعا ومتسارعا ومزمننا لن يهدأ منه بالهُ إلى حين .. إنها أيضاً لحظة مخصوصة تجعل المبدع أو الموهوب

ذا بصيرة حادة وعقل متقد..وإنها للَحظة التآلق الفطرى والتآلق الوجدانى والتآلق العقلى والذهنى ولحظة الصفاء النفسى الخالص والسعادة القلبية الحقّة ، وتأتى دائماً فى الوقت الذى تتخلص فيه النفس من أدران الحياة وتتححرر من أسرها وتعود لصفوها كما خلقها الله لتهيم بِحُرِّيّة استثنائية فى ملكوت الله العظيم..فالمدهش أنها لم تكن المرة الأولى التى يرى فيها نيوتن الأشياء وهى تسقط من أعلى للأسفل..والمؤكد انه قد شاهد من قبل مراراً وتكراراً كافة الأشياء وهى تسقط دائماً للأسفل ، ولكن فى هذه اللحظة المخصوصة،التي أرادها الله حسب ميقات مُقدّر حكيم توقف عندها عالمنا وقفة بصيرية نافذة ما زال وميضها يسرى فى آفاق الإنسانية ليومنا هذا ، باعتبارها من أهم اللحظات المتوهجة فى التاريخ العقلى الإنسانى ، فهى اللحظة التى قطفت فيها الإنسانية على يد مبدعنا هذا واحداً من أهم قوانين الطبيعة التى نفعت البشرية واستفادت منها عظيم الإفادة ، وما زالت وستظل تتنامى الاستفادة منها.

لكنما كان (نيوتن) وقتها،يعمل عمل الوكيل بالإنابة عن الإنسانية المشغلة بأمور الحياة والمنغمسة فى أحوال عالم الدنيا ليقطف لهم هذه الثمرة وثماراً أخرى من علم الله المستور فى طيَّات الكون..وأغلب ظنى! أن الله سبحانه وتعالى قد اختص بعضاً من خلقه ممن لهم القدرة على التخلص من براثن الدنيا ليطوفوا خفافاً فى ملكوت الله ، ومنحهم شيئاً أثيراً فى فطرتهم لتنفيذ هذه المهمة الحارقة نيابة عن الناس جميعاً!!.

وأمر آخر جدير بالذكر هنا ، هو أن جميع الناس - كل الناس - ومنذ أن بدأت الحياة على وجه الأرض يشاهدون الأشياء - كل الأشياء - تسقط دائماً لأسفل ، لكنَّ فرداً واحداً فقط هو الذى شدّه هذا الأمر وأثار فيه الدهشة والقلق والإنفعال العقلى فى تلك اللحظة المُقدَّرة ، ذلك لأن هذا الإنسان المبدع كان له حظاً أوفر فى عطاء الله له بأن زوده بموهبة لها القدرة على البراعة والخلق والإبداع ، وإنما لمأمورة باستقراء الكون ونواميسه واستعارة قبس من قوانينه ومبادئه فى مواقيت ذات قدر ، وتغذية العقل البشرى بها لتحقيق السيطرة واستعمار الأرض وتأكيداً لمبدأ تسخير الكون.

وإلى ومضة إبداعية أخرى ما زال تألقها يسرى فى الآفاق مع رحلة الزمن ، وصاحب هذه الومضة الخلّاقة عالم آخر من أهم علماء الرياضة وهو (أرشميدس) الذى اكتشف قانوناً يُعتبر، فى نظر أهل العلم من أهم الإكتشافات العلمية فى العصر الحديث - وهو قانون الطفو ، حيث كان ذات يوم يستحم فى وعاء مملوء بالماء (بانيو)، وفى مثل هذه اللحظة تنتعش النفس ويتألق الوجدان وتصفو الفطرة ..حتى أننا نترنم بالغناء فيها ، فأدهشه أن فى الماء قوة تصاعدية تدفع جسمه للجهة الأعلى وتحاول أن تجعله يطفو ، هذا أمر، من المؤكد أنه لم يكن جديداً عليه ، بيد أنه الآن فى اللحظة المقدّرة لتفجّر ينبوع الخلق والإبداع فى قلبه ، وقد كان ساكناً قبل ، وكان ينبض على فترات حتى جاء الميقات الحكيم الذى يشأه الله ، وانبجزت العين الإبداعية - فى تلك اللحظة بالذات -

وفاضت عبقريتها بحنايا القلب ، ودارت معها ساقية الفكر لتأخذ من المشهد دلالات ورؤى وتطرح الأسئلة وتستعرض المسائل والاحتمالات وتتفحص العلل والبراهين.. ما طبيعة هذه القوة الدافعة؟! وما الذى أوجدها؟!.. ما مقدارها؟!.. وما اتجاهها تحديداً؟!.. وما علاقتها بوزن الجسم المغمور فى الماء؟!.. وما علاقتها بكمية الماء المزاحة؟!، وبوزنها؟!.. وهل هى ثابتة فى كل الأحوال؟!.. أم أنها متغيرة؟!.. وهل تتفاوت بحسب شكل الأجسام؟!.. أم بأوزانها؟!.. أم بالخامة المصنوعة منها؟!.. أم بنوع السائل؟! ، أم بكثافته؟!، أو بلزوجته؟!.. وهل هذه القوة ثابتة دائماً سواء للأجسام الطافية أو المغمورة؟!.. الخ .

إن فى قلبه شيئاً ينتفض انتفاضة ثائرة ، وإنه الآن لفى انفعال فكرى على حاد ، ومحتد ، ولن يهدأ ، وسيظل قلبه يضطرم كما الرجل ما لم يتوصل للإجابات الشافية ، وسرعان ما خرج هذا العبقرى إلى معمله ممتلئاً بالحماسة والتصميم والعزم لرى هذا الظمأ المتعطش للمعرفة ، وأخذ يُعِدّ بعض الأوانى المملوءة عن آخرها بالماء وقطعا من مختلف المعادن والأخشاب ذوات الأحجام والأوزان المعلومة ، وحينما كان يغمرها فى الماء ينزاح جزء منه خارج الإناء ، فينقله بحذر شديد فى وعاء ذو قياسات ثم يقدّر وزنه وحجمه ، وظلّ منهما فى عمله المضنى هذا بين قياسات وأوزان ، ولم يتوقف حتى هدأ عقله وارتاح باله وسكن فؤاده واطمأن ضميره حينما توصل للنتائج العلمية المذهلة التى استوثق منها.. وتبين له باليقين العلمى أن قوة دفع السائل لأى جسم مغمور فيه تساوى دائماً وزن

السائل المزاح ، وقدم للإنسانية قانونا من أهم القوانين التي عادت عليها بالنفع العظيم وهو قانون الطفو، أرشמידس كمثل صاحبه جاليليو ، ونيوتن..اكتشف قانونه في لحظة صفو وجداني وتألق فطري، ولابد وأن الله قد وهبه شيئا في أعماق نفسه أخذ به في هذا الإتجاه العلمى وفي هذا المنحى على وجه الخصوص ، فالأمر الذى لاحظته (طفو الجسد ودفع الماء له) ليس جديداً على الناس ، فكل الناس شعروا بدفع الماء لهم عند العوم أو الغوص فى حمامات السباحة وغيرها ، وهو نفسه شعر بذلك من قبل مرات عديدة ولكن هذا الأمر لم يلفت له انتباه ولم ينشغل به ولم يأبه له حينها حتى أتت تلك اللحظة البالغة الخصوصية.

فلماذا إذن تأتى لحظة الخلق والإبداع لأشخاص مخصوصين فى أوقات مخصوصة ، ولماذا هم بعينهم؟..وللإجابة على السؤال يجدر بنا أولاً أن نقوم برحلة فى أعماق النفس الإنسانية ، لعلها تكشف لنا عن بعض أسرارها وتفق لنا لغز تلك اللحظة التى يمين الله فيها علينا ببعض أسرار علمه المستور ، ويهبها لفرد منا بذاته ، فى وقت بذاته ، لتعود على الناس جميعاً بالنفع..لنبحث إذن عن موطن الخلق والإبداع فى النفس.

مَوْطِنُ الْإِبْدَاعِ فِيهِ النَّفْسُ

لندلف الآن - بحذر - داخل النفس الإنسانية لنتجول في حناياها ونغوص في أعماقها ونبحث عن دلائل قد ترشدنا إلى مَوْطِن تلك الغرسة الإبداعية ، وأول ما يصادفنا في رحلتنا داخل النفس هو ظل الأسماء التي عُلمت لآدم على أثر خلقه والتي جاء ذكرها في قول الله تعالى من سورة البقرة (31) : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. ولسوف نجد أن الأسماء كلها استقرت في قلب آدم بالتعلم وليس بالإفهام أو التلقين أو التعريف، فالإفهام يتطرق إلى المسببات والنتائج فقط، والتلقين ليس إلا حفظ اللفظ دون معرفة الملفوظ ذاته ، والتعريف يتعلق بالظاهر دون الباطن، أما التعليم فإنه ينصرف إلى الظاهر والباطن والأسباب والنتائج معاً، التعليم - في الإجمال - يطرح الحقائق من جميع جوانبها..و طُرُق الحقائق من زواياها المختلفة هو روح العلم..إذن، فأوليات المنهج العلمي مركوزة في الفطرة الإنسانية .

الأمر الثاني الذي يصادفنا في رحلتنا داخل النفس الإنسانية هو أنها مفطورة على التقدم والرقى وحب الفضول ، ذلك أن الله تعالى لم يخلق الإنسان للعبادة فقط ، بل فرض عليه السعى إلى تعمير الأرض كذلك..قال تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾ الذاريات

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي

قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ . سورة هود

فلم يكن الله ليأمر النفس باستعمار الأرض ما لم تنهياً الفطرة الإنسانية لهذا التكليف ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولن تتحمل النفس تبعه هذا التكليف ما لم تكن مفطورة على حب الفضول وعلى الرغبة في التقدم والاستعداد للرقى والسُّمو.

مازلنا في رحلتنا داخل النفس نُسِرُ غورها في موقع آخر أكثر عمقا ، ويبدو لنا أن أوضح ما في هذا الموقع هو هذا الشذى الزكى الذى يصدر منه ويفوح في حنايا النفس وأرجائها، هذا العطر هو الذى أرشدنا لتلك الغرسة الغضة اليانعة المغدقة بعبيرها الزكى والزاهية بألوانها كأزهار الربيع ، فالله الذى خلق كل شىء بقدر قد اختص كل إنسان بعطية يتميز بها عن غيره من بنى جنسه ، وهىأه لأن يتخذها إماما له في الحياة الدنيا ، يصغى لصوتها ويلبى نداءها ، ويكون عمله كله تحت رايتها ، فتتخلق فيه رغبة جارفة لإعمال هذه الهبة الخلاقة في موضعها ، وأن يبذل أقصى ما بوسعه من طاقة وجهد في سبيلها ، فهى تجلب له قدرا عظيما من السعادة إذا استطاع تسخيرها فيما وهبت له ، فضلا عن أنها تُحقق له شخصية منفردة وذاتية متفردة ، وتُدر له وللناس نفعاً متعاضداً ، أما إذا تعطلت وحُسرَت عن نزعتها فإنها تجلب عليه التعاسة والمرارة والأسى وسوف يُحرم الناس عطاءها ، وتلك العطية الكريمة التى تتلأأ في قلب كل فرد منا يستحب الناس أن يطلقوا عليها لفظ (الموهبة) ، هذه الموهبة تدفع

بالإنسان لأن يسعى في الحياة على غير مسعى الآخرين ، ويغوى الولوج في وجهة بعينها، قد حدّدها الله له وقدّر لها عليه ، ولكن على المرء نفسه أن يهتدى لهذه الوجهة بنفسه وأن يسعى فيها، وعلى قومه وأهله وعشيرته أن يعينونه ويؤيدونه ويشجعونه على أن يستمر في وجهته تلك دون أن يحيد أو يضل أو يكل عنها ، فهذا واجب إنساني بالغ الأهمية ، لأن الخالق سبحانه وتعالى قد قدّرها لكل إنسان بحسب وُسع نفسه إبتغاء الصالح الشخصي للفرد وإبتغاء مصالح قومه ، وبالجملة إبتغاء الصالح الإنساني ، وتلك الغرسة يُحطّ المرء سبيله في مسيرة الحياة في وجهة مخصوصة به ، فإن استطاع إدراكها وبلوغها صارت نفعاً له ونفعاً للإنسانية ، وإن ضلّ عنها أو أضلّه قَوْمُه عنها أضرت به وبالناس من حوله ، وهي نفحة مخصوصة من الخالق سبحانه وتعالى لكل نفس إنسانية لتمنحها سَمَتها وذاتيتها وخصوصيتها وتفرّدُها ، وليقسّم بها الخالق سبحانه وتعالى معيشة الناس في حياتهم الدنيا وليستبقوا بها الخيرات ، ويرفع بها الناس بعضهم فوق بعض درجات ويتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً.. بهذه النفحة المخصوصة صار الإنسان كائناً اجتماعياً يألف للتجمع ويستوحش العزلة ، وينزع إلى الترابط مع الناس بالود والرحمة وبالإيناس ، لأنه أدرك منذ خطواته الأولى في حياته الدنيا أنه لا يستطيع معاشة الحياة بمفرده ، وأن كل إنسان مُسَخَّر لغيره من الناس ، وما المعيشة في الحياة الدنيا إلا قِسمة بين الناس ، فعلم من تجاربه الأولى أن معيشته في حاجة دائماً لفضائل بني جنسه بمثل ما هم في حاجة إلى فضله ، وبذلك صار التوجه التعاوني بين الناس هو محور الحياة الدنيا وليس

الانفصال والعزلة ولا التحفُّز والعداء ولا الوحشية التي نعهدُها في عالم الغابة ، وقد أشارت آيات كريمة من سورة البقرة وسورة الليل وسورة الزخرف إلى كل ذلك بقوله تعالى :

• ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية 148 سورة البقرة.
﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ آية 4 سورة الليل.

﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ آية 32 سورة الزخرف

• ومن الهدى النبوى : عن حديث ابن عمر ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ) .. الجامع الكبير للسيوطى / الجزء الأول.

• وفى حديث أبي موسى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُوا آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَالْحَيِثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ) . الجامع الكبير للسيوطى / الجزء الأول.

وفى رحلتنا داخل أعماق النفس الانسانية يتكشف لنا جانب آخر من ثناياها وهو أن الإنسان ليس إلا منشأة وبُنية جسدية وقلبية معا ، ومثلها فى

ذلك مثل أى منشأة نقيمها نحن فى عالمنا ، فقد أنشأها الله من أساس ومن بناء يعلو الأساس..

الأساس : وقد أتانا هذا الأساس من الأب الأول للبشرية «آدم عليه السلام» ، إنه فى تلك اللبنة المتناقلة بين الأصلاب لكل البشر ، وهو مُستَقَرٌّ فى كل نفس إنسانية منذ هبط آدم وجه الأرض وإلى أن تقوم الساعة. والبناء : إضافة مُستَوْدعة بكل نفس بمناسبة مجيئها إلى الدنيا للتميز به عن غيرها ، ولتضفى عليها خصوصية وتفرد وذاتية واستقلال.

ونتكلم عن ذلك بشىء من التفصيل - استرشادا بآيات من القرآن الكريم ، ولنبدأ (بالأساس)..ذلك المُستَقَرٌّ فى كل نفس إنسانية..هو خليط من الغرائز المشتركة فى الناس جميعا.

المُستَقَرٌّ فى النفس

المستقر فى النفس الإنسانية هو تلك النزعات الفطرية التى تُكوّن اللبنة الأولى فى البناء الإنسانى ، وإنه لفى العجينة التى تشكلت منها قواعد وأسس وأوليات الفطرة المشتركة فى كل الناس بلا استثناء ، ولا تخلو نفس إنسانية منها ، وهى: إما غرائز ، وإما غرائس ، بالغرائز تنزع النفس لأموئ تتعلق بصلتها بخالقها سبحانه وتعالى ، وبالأرض المخلوق منها كل إنسان ، وبالكون الذى أسكنها الله فيه ، وبأسباب وجودها فى عالم الشهادة ، وصلتها بالأسرة الإنسانية التى يأتى نسلها منها ، وأما الغرائس فقد وضع الله بذرتها واستنبتتها فى الفطرة لتتعدها

الأسرة الإنسانية وتزكّيها وتنمّيها سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجماعي ، باعتبارها أدوات النشاط الإنساني ومعين الحياة على الأرض.

أولا : الغرائز

منها ما يتعلق بالجسد كغريزة حب البقاء التي تنزع إلى مدافعة الخطر ، ويأتى انفعالها - إذا ما فوجئت بالخطر - قبل انفعال العقل ، ومنها غرائز الشهوات كشهوة البطن وشهوة الفرج وغريزة التشبث بالحياة...

ومنها ما يتعلق بالقلب كغريزة النزوع للأسرة الإنسانية ، فالناس جميعا جاءوا من آدم ، والفرد الإنسانى حلقة فى السلسلة الإنسانية المتشابكة ، ويتعلق بها من جهة الوالدين ومن جهة النسل ، لذا فإن فى قلبه نزوع للأسرة الإنسانية جميعها.

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ سورة النساء ١.

ومنها غريزة التوافق بين الفطرة الإنسانية وفطرة الكون والأرض :

قال تعالى : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ آية ٦١ سورة هود. : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ . آية ١٧ - ١٨ سورة نوح ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾

آية ٧١ سورة ص، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ آية ٢٨ سورة الحجر.

- فالفطرة الإنسانية مهياة لتتعايش مع فطرة الكون المستخر لها والذي جعله الله للإنسان المأوى والمثوى والسكن ، والإنسان كذلك ينزع للأرض التي خلقه الله من طينها ، فيتعلق بها كما يتعلق الوليد بأمه .
- ومن غرائز النفس المستقرة بها كذلك : غريزتي الغل والحسد المفطورتان في النفس ليشق بهما كل إنسان سبيله في الدنيا. « وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل في كتابنا: الإنسان كما فطره الله..»
- ومن المستقرات في النفس الإنسانية : غريزة التوجُّه للخالق سبحانه وتعالى ، هذا النزوع من المخلوق نحو الخالق مركوز في الفطرة بعهدين قد أخذهما الله على ذرية آدم عليه السلام حينما أشهدهم على أنفسهم بأنه سبحانه وتعالى ربهم الأعلى حيث أقرؤا بالشهادة . (هذا من جانب)..ومن جانب آخر عهد إليهم الله تعالى أن لا يعبدوا الشيطان عدوهم الأثيم:-

- فعن العهد الأول قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ آية 172 سورة الأعراف.
- وعن العهد الثاني قال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ آية 60 سورة يس.

- والتوجه والنزوع نحو الخالق الكريم سبحانه وتعالى غريزة فطرية ثاوية في أعماق النفس الإنسانية ، بل هي أهم ما ينبجلى فيها إذا ما صُقلت من صدد الحياة ، لكن كَبَد الحياة الدنيا ومشاغلها وصراعاتها ووساوس الشياطين وهوى النفس تغشاها ، ومثلها في ذلك مثل القمر حينما يغشاه السحاب.
- ومستقر بالنفس كذلك غريزة حُب العلم والتشوق الفضولى نحو التزود بالمعرفة ، فقد استوهب الله تعالى فطرة الإنسان بمفاتيح العلم ومبادئ المعرفة وأوليائها ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾..البقرة 31.
- هذا هو المستقر باللبنة التى أنشأ الله منها كل إنسان ، وهى جوهر كل نفس إنسانية والسبيكة التى تحمل الأسس الفطرية المشتركة فى الناس جميعا ، وهى رَوْح الفِطرة الذى يفوح أريجها فى كل الناس.

ثانيا : الغرائس

الغرائس هى منحة الله لكل نفس لتتنفع بها فى دنياها على قدر ما يجتهد كل فرد وكل أمة فى تنميتها وتزكيتها ، فهى بمثابة الأدوات التى يتفاعل وينفعل بها كل إنسان فى مختلف نشاطاته فى الحياة الدنيا ، لكنها مجرد غرسات تحتاج منا أن نتعهدا دائما بالعمل على تنميتها وتزكيتها ، وألا نهمل رعايتها وإلا

صارت بلا طائل ، مثلها في ذلك مثل غرسة النبات التي تنمو وتورق وتزهر وتؤتي ثمارها حال اعتنائنا بها وتذبل وتموت مع إهمالنا لها. ومن تلك الغرائس الفطرية : غرسة العقل ، وغرسة الفكر ، وغرسة الحرية ، وغرسة الإرادة ، وغرسة الخلق والإبداع... (وهذا هو موضوع كتابنا).

والملفت هو أن كل إنسان كأنه منشأة قائمة بذاتها ، يبد أنها تختلف إختلافا بيّنا في كل إنسان عن الآخر (بحسب استقراء الواقع الإنساني) ، هذا الإختلاف الواضح بين الناس لا يقتصر على الشكل فقط بل يمتد أثره إلى الجوهر.. فإذا كان الناس جميعا مخلوقين من سبيكة واحدة جاءتهم من النفس الأولى. ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ لجاءوا جميعا استنساخا متطابقا ، فمن أين يأتي هذا الاختلاف بينهم ؟.. لا بد وأن أمورا قد استجدّت على كل نفس لتضفي هذا التمايز وهذا الاختلاف بين الناس.. وتلك هي مُودعات النفس التي سنتحدث عنها.

مُودَعَاتُ النَّفْسِ

أما عن المُودعات التي أراد الخالق سبحانه وتعالى إضافتها إلى كل نفس حال وجودها بالدنيا ، فهي تختلف وتتفاوت بين إنسان وآخر منذ وُجدت الإنسانية على ظهر الأرض وإلى أن تقوم الساعة ، ومثلها - في ذلك - مثل

الإضافات التى يستكمل بها الإنشائيون الأبنية ذات الأسس المتطابقة لتصبح مختلفة اختلافات بيّنة ومتغايرة رغم وحدة الأساس، سواء جاء هذا الاختلاف فى الشكل الظاهرى ، أو فى الألوان وتوزيعها ، أو فى أشكال ومساحات الفراغات الداخلية ، أو فى شكل المداخل والنوافذ وتصاميم أخرى تناسب الغرض المقامة من أجله كل وحدة على حده ، أو كل ذلك أو بعضاً منه... إلخ، ففى الإنسانية كذلك، قد شاء الله أن يضيف على خلقة كل فرد من أفرادها تمايزاً واستقلالية وذاتية...، ففى رحلتنا داخل النفس سنجد فى حناياها مستودعات أربع. هذه المستودعات ما هى إلا إضافة مختلفة ومتباينة قد شاء الله أن تدخل على كل نفس مع بدء وجودها فى عالم الشهادة ليتمايز بها كل إنسان عن أى إنسان آخر وتتفرّد بها شخصيته انفراداً ذاتياً ، ويتحقق له سَمْتاً مخصوصاً وذاتية متفردة ، ووجوداً متميزاً.

فأما الأولى :فهى تلك الصفات التى يرثها الإنسان من أصلابه، آباءً وأجداداً، ويسمىها العلماء بالصفات الوراثية ، وقد تبدو هذه الصفات بجلالٍ فى الشكل الظاهرى للإنسان وقالبه ، إلا أنها فى القلب أيضاً ، فقد يرث الإنسان من آبائه صفة الخُلُم أو الحِدّة فى الطباع أو الميل إلى صلة الرحم أو الميل إلى البأس والمراس .. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسيب بينها وبين آدم ، فركب خلقه فى صورة من تلك الصور ، أما قرأت هذه الآية (فى أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ). » الجامع الكبير للسيوطى / الجزء الأول.

وجميع هذه الصفات الموروثة من السلسلة الإنسانية تميل بالإنسان إلى الطريق الذى رسمه الله له والذى يتوافق مع هذه الخصوصية ، وهى صفات لا تُناقض الفطرة ، بل هى أريج الفطرة الذى يتميز به كل إنسان عن غيره ، وهى إضافة مُودعة بالنفس لصالح الفرد نفسه ولصالح الجماعة (وكل ميسر لما خلق له) حديث شريف .. وإننا لنراها بجلاء فى هؤلاء الرجال الذين التفوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد اختص الله كلاً منهم بصفات وفضائل خاصة وُرثت إليهم من آبائهم وأصلاهم لم تناقض الفطرة ولم تتعاند مع الدين بل كانت فى صالح مسيرة الدين ، وكفى بنا أن نذكر منهم أبا بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان ابن عفان ، وعلى بن ابى طالب ، والزبير ، وحمة بن عبد المطلب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وبلال بن رباح ، وعبد الله بن مسعود، رضوان الله عليهم أجمعين ، وغيرهم من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فكل منهم كانت له شخصية مصاغة بطبائع ورثوها من أصلاهم وأُتوا بها مع مولدهم ولم تتعارض مع عمق إيمانهم ، بل إنها كانت نفعاً مؤزراً لمسيرة الدين.

قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آية 148 سورة البقرة.

فلعل إنسان وجهة مخصوصة لحياته الدنيوية طبقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ ﴾ فهذا تقرير من الخالق الكريم سبحانه وتعالى بمنحة خاصة لكل فرد إنسانى ، هى منحة الله لإسعاد المجتمع الإنسانى وخيره..ولذا استطردت الآية: ﴿

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ﴿١٠٠﴾ ، وهذا خطاب للناس جميعا وليس لفرد بذاته ، لهذا جاءت بصيغة الجمع وليس الأفراد كما في مستهل الآية ، أى تضافروا وتعاونوا وتعارفوا لاستباق الخيرات وجلبها وكسبها ، فلو سعى كل إنسان فى الدنيا لتحصيل الخير وحده فلن يطوله ، ولا سبيل للخيرات إلا بالتعاون بين الجميع... فلن يأتينها أحد بمفرده .

المستودع الثانى :

أن الخالق الكريم إختص كل نفس بهبة من لُذنه لتكون بها عوناً ومدداً معيشيا وحياتيا للقوم والعشيرة أو للإنسانية جميعها ، وتلك هى ما يسميها البعض (المواهب) ، وهى فى الأريج الذى يضفيه المولى سبحانه وتعالى على غرسة الخلق والإبداع فى كل إنسان على حده ، ومثل عملها كمثل عمل قرون الإستشعار لكنها فى كل فرد تكون مخصوصة لأمر مخصوص يتلمس بها الإنسان مسيرته فى الحياة ، ولا يخلو منها جسم الإنسان نفسه ، فقد ينفرد إنسان عن غيره بملكة أو بمظهر جسدى قد جعله الله لخدمة موهبته مثل الأنامل الرفيعة أو حاسة السمع الرقيقة أو جمال فى الصوت أو النظر ثاقب أو الفؤاد الرقيق.

المستودع الثالث :

وهو الحصىلة الوجدانية.. فالنفس الإنسانية تؤثر في البيئة المحيطة بما تجرح فيها من أعمال وبما تؤثر فيها من آثار ، وفي المقابل فإن النفس تتأثر هي الأخرى بالبيئة وتتخلق بأخلاقها حتى استيقن الناس بأن الإنسان ابن بيئته بالضرورة ، فالإنسان القاسى شديد المراس هو فى الأغلب الأعم ابن بيئة قاسية والإنسان الحانى الرقيق ابن بيئة حانية ، ولذلك فقد جعل الله فى كل نفس نزوعا نحو البيئة ، كما جعل فيها الأداة التى تُحقق بها تلك الصلة الحميمة مع بيئتها.. ذلكم هو الوجدان ، فالوجدان هو العنصر الوجودى بالنفس ، ولذلك قد اشتق اسمه من الوجود ، وهو المسئول عن التمازج بين فطرة الإنسان والفطرة الكونية ، وهو أشبه بالحلقة الرابطة بين الفطرتين ، وبالوجدان تربت النفس على البيئة وتُمهدّها وتصلح شأنها ومن خلال الوجدان تحنوا البيئة على النفس بدفقات المشاعر الدافئة وبعلائق العطف والحنان والمودة ، وكلنا يعلم مدى تأثير البيئة على النفس - فهذا أمر قد صار من المعارف البديهية ، ذلك لأن كل جماعة تُشكلها البيئة بخصائصها ومفرداتها سواء الجبلية منها أو الزراعية أو الساحلية أو الصحراوية ، وكل إنسان منا يرتبط إرتباطا وثيقا لا انفصام له مع بيئته التى طبعت وجدانه بطبعها وطبيعتها ، فإذا ما اغترب عنها فيظل مشدودا لها بالحنين والشوق والوحشة ، وإذا ألمّ به خطب هرع إلى أحضانها لينشد السكينة والسلام والعطف والحنان كمن يرمى فى حضن أمه ، لكن

المؤكد هو أن هذا التأثير البيئي لأي موطن في أى نفس ليس على نحو واحد لدى كل القاطنين بها ، بل إن كل فرد يتأثر بها تاترا استقطابيا ذاتيا وبما يتناسب مع مُكوّنَه الشخصى الذاتى ، ولا مانع من أن نجد إنسانا حانيا قد تربى في بيئة قاسية أو إنسانا قاسياً في بيئة حانية ذلك لأن كل إنسان به خليط نفسى ومتغاير ومختلف عن الآخرين. ولذلك تختلف درجات التاثر بالبيئة بين إنسان وآخر.

المستودع الرابع :

وهو التحصيل..فحينما يكتمل بناء الإنسان إلى أن يبلغ أشده في طور الرجولة فإنه يسعى إلى التزوّد من الحياة بتحصيل الخبرات والتجارب ما يوسع أفق عقله ويزيد من ساحة فكره، بتلك المستودعات يتحقق تفرد النفس الإنسانية ويكون لكل إنسان رؤية خاصة للأمور الدنيوية وتوجّه خاص ، ويكون له مسعى ذاتي في الحياة دون سواه.

ولقد أجملت الآية الثامنة والتسعون من سورة الأنعام ذلك كله (المستقر والمستودع في النفس) أو الغرائز والغرائس في أسلوب قرآنى بديع، في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ .الأنعام

فالخالق الكريم سبحانه وتعالى يخاطب الإنسانية جميعها في الآية الشريفة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ ﴾ في تعبير قرآنى معجز جاءت صياغته بلفظ

« أنشأكم » على غير الصيغة التي جاءت في آيات كثيرة أخرى بلفظ « خلقكم » أو « جعلكم » أو « ذرأكم » .. ، الأمر الذي يوحى لنا بالمراحل الإنشائية للإنسان مرحلة بعد أخرى - كما هي مراحل البناء - أساس أصله السبيكة التي جاءت من آدم عليه السلام بما فيها من مستقرات الفطرة لتحقيق التماثل التكويني من عناصر البناء الفطري لكل الناس + مستودعات متوالية يستكمل بها بناء كل إنسان مع وجوده في عالم الدنيا لتحقيق التفرد الإنساني لكل فرد ، وإضفاء الخصوصية الذاتية والاستقلالية لكل إنسان.

هذا وقد فصلت الآية السابعة والستون من سورة غافر تلك المراحل الإنشائية للإنسان.. فقال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَوَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ سورة غافر.

وإننا لنرى في ثنايا الآية الشريفة ذلك الإعجاز القرآني الذي يبين لنا بجلاء تلك المراحل الإنشائية للإنسان منذ خلق الله آدم من تراب وحتى بلوغ كل فرد طور الرجولة ، وتكرار حرف العطف (ثم) خمس مرات في الآية يوحى لنا بأن كل مرحلة من مراحل خلق الإنسان تستغرق جانباً من عمره وتحتل زمناً غير قصير.. ويمكن إجمال تلك المراحل الإنشائية للإنسان في :-

(١) : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ - وهو مستقر بنا جميعاً وبآدم عليه السلام .

(٢) : ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ - جاءت من الآباء والأجداد وتحمل ميراثاً

من صفات وأخلاق مخصوصة ، وهو المستودع الأول .

(3) : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ - فأصبح لها تكوينها التفردى ، وذلك هو

المستودع الثانى .

(٤) : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ - فيتعلق بالوالدين وبالبيئة ويُغمر بتربية

أهله وذويه ، وتطبع البيئة فيه طابعها فيتشكل - مع كل هذا -

الجانب الأكبر من وجدانه .. وهو المستودع الثالث .

(٥) : ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ . فيصل إلى مرحلة التحصيل والرشد

والحكمة وتحمل تبعات المسؤولية والتكليف .. وهو المستودع

الرابع .

تلك هى المراحل الإنشائية للإنسان ، ونوجزها فى أساسٍ مُستَقَرَّ

فى السبيكة التى جاءت منها الفطرة ، ثم مرحلة استكمال المنشأة الإنسانية

بالمستودعات التى تضاف لها مع وجودها الدنيوى ، ليتفرد كل إنسان عن غيره

، وتحقق ذاتيته ، وتكون له خصوصية حياتية وشخصية مستقلة يتميز بها عن

باقى الناس .

وما يهمنى من ذلك هو أنه من بين هذه المستودعات تلك الغرسة التى

يمتاز بها كل إنسان عن الآخر ألا وهى غرسة «الخلق والإبداع» أو (الموهبة)

وهى منحة الله التى تضاف إلى كل نفس ، وهى مأمورة بتكليف ومهمة معيشية

مخصصة لكل فرد ، فإذا ما أنجز أحدٌ من الناس هذا التكليف تتحقق له مصالحه المعيشية ويساهم بإنجازه هذا مع إنجازات المواهب الأخرى في تسهيل الأمور الحياتية للجماعة، وفي تقدمها ورقياً ، إنها رسالة مكلف بها كل فرد لجلب المصالح ودرء الأضرار والمصائب وتيسير سبل الحياة ورقيها ، ولتسخير هذه الموهبة الربانية في نماء وازدهار المعيشة الحياتية للجماعة أو الأمة.. ليس هذا فحسب، فإعمال هذه المواهب في أغراضها يرفع عن كاهل الناس عناء الحياة وكدرها ، ويريح النفوس ويثبت الأفئدة ويجلى الفطر وينقى القلوب ، وبذا.. تتحقق غايته الوجود الإنساني في الحياة الدنيا ، لهذا.. فمن الواجب على كل إنسان أن يولى وجهته بتلك الموهبة ، وعلى الجماعات والأُمم فرض واجب تزكيتها .

وبتلك الموهبة يتشرب كل إنسان تشكيلة الوجداني من البيئة التي يتعايش فيها ومن العادات والأعراف والتقاليد التي تتمسك بها الجماعة المنتمى إليها ، وذلك بأن تأخذه الموهبة وتميل به نحو ما يناسبها من بين كافة المفردات التي تزدهم بها الحياة من حوله ، مثلها في ذلك مثل جذر النبات الذي لا يمتص من التربة إلا ما يناسب النبات من كافة المواد الغذائية العديدة الذائبة فيها ، فتأثى ثماره حلوة على غير ثمار باقى النباتات الأخرى التي تنبت بجواره في نفس التربة والتي قد تكون حارة أو ذات مرارة أو حامضة.. إلخ ، إنها أهم جانب في تشكيل شخصية الفرد وأهم ما يميز ذاته وتفرد .

والموهبة لها نزعة إبداع قلقة وثائرة ، لذلك فهي لا ترتاح مع الجمود ، ولا

تفتأ تنبض في قلب كل إنسان إما نبضا موجعا كأنما تتوسل إليه بأن يلتفت لها وأن يتعهدا ويرعاها ويأخذ بها نحو الوجهة التي وُجِدَتْ لها ، أو تنبض نبض الراحة والسكينة إذا ما تمهياً لها السبيل الذي تنزع إليه وسُجِّرَتْ للمهمة التي جُعِلَتْ لها ، إنها مَوْجَّهة لوجهة مخصوصة كأنما هي مأمورة بها ، وهي مكلفة بالسعى فيها دون غيرها ، وكلما مضت في هذا السبيل - المخطط لها - كلما اشتد عودها وقوى عزمها وأتت بيانع ثمارها ، فإذا ما لَوَيْنَا عنقها وأبعدناها عن وجهتها عنوة أو حُلْنَا بينها وبين غايتها وقيدناها بصارم العادات وشكائم التقاليد فإنها تثور كما الفرس المقيد الهائج ، وتثير اضطرابا في القلب وتمردا في النفس ، وقد تنفلت من شكائهما وتنتصر على قيدها وتشق سبيلها المخطط لها عنوة بالإصرار والعناد والكفاح، كشق نصل المحراث ، بيد أنها في الغالب يُنْهَكها الصراع وتخور وترضع.. ويتوارى هذا النبع الأثير ، وقد يدفع كل ذلك بصاحب هذه الموهبة لأزمة قاسمة أو ربما أزمة مميتة..! ، لذا فهى في حاجة ماسة إلى الحرية وإلى أن يدعها الجميع تنطلق في مسارها دونما عوائق ، إنها بدون الحرية لن تؤتى ثمرتها ، وحاجتها للحرية كحاجة الكائن الحى للتنفس ، ونستطيع القول بأن لا شىء في الوجود أكثر احتياجا للحرية من هذه المواهب ، فالمطلع على التاريخ يرى بجلاء أن في عهود التخلف تكثر الاحتكاكات بين الناس وتدق طبول الصراعات ويكشر الشر عن أنيابه وتشتد قوى البغى ، وتضيق السبل على المواهب وتحاصرها الخطوب والأنواء ، وأول ما تطأ نعال البغى هى تلك المواهب الغصّة ، بينما نرى في عصور الزهو والحضارة والرقى أن قوى الشر تتوارى، إلا ما ندر

، ويضع الوغى أوزاره وتنسحب قوى البغى، إلا قليلا ، فتتشجع المواهب، التي ازروت قبل وتُسْتَنْبَت من جديد ، ثم تُورف وتُزهر وتؤتي ثمارها ، والعبرة التي تُدَوِّي في نفير التاريخ تقول: إن على الأمم التي تريد النهوض أن تُخَيِّ مواهب أبنائها وتُهيئها لتفيض بالخير فتحيها معها وترتقي بها وتبني حضارتها ، فإن المواهب هي ينابيع الخير التي تغيض وقت الظلام وتتفجر بالخير مع النور والحرية ومع إرادة التقدم والرقى ومع السعى في مضمار الحضارة، والموهبة - كما ذكرنا - هي منحة المولى عزّ وجلّ لكل إنسان ، وتحمل تكليفا ومهمة مخصوصة للمعاش الإنسانية ، وهي تستقر في القلب لتجعل كل فرد يهوى أمورا بذاتها من بين كافة الأمور التي يقابلها في حياته اليومية ، وتجعله يستميل إلى وجهة خاصة تهوى لها النفس ، فيظل الإنسان على دأبٍ لا يهدأ ما لم يتحقق له ما يريد ، لأنها تتيح له قدرا متعاضما من السعادة ، ويُقبل عليها بشغف وشوق وحب جارف ، ويهوى إليها بكل فؤاده وجوارحه ويستجمع لها جل قواه ، ويستطيع أن يبذل في سبيلها كل غال ونفيس لأنها الأعلى والأنفس ، كأنما تقوده قوة خفية إلى هذه الوجهة بعينها، نعم يقوده أمر من الله في فطرته ، فحينما ذكر الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ ﴾ فهذا تقرير من الله أن لكل إنسان وجهة مخصوصة وعليه أن يسعى بها في الدنيا ، فهو يحمل للناس في أعماق قلبه رسالة عَوْن وواجب لتيسير المعاش الحياتية ، إن استطاع اجتياز ما يلاقيه من صعاب ونجح في الوصول برسالته تلك فإنما قد بذل كده وكبده في إنجاز تكليفاً من قبل خالقه ، فله ثوابه ولِمَن عاونه على ذلك ثواب مثله ، لذلك فإن توجيه المواهب في وجهتها المرسومة لهو

أقرب لأن يكون فرضا دينيا قبل أن يكون واجبا وتكليفا إنسانيا... ولنستمع إلى باقى الآية الكريمة من سورة البقرة... ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (148) ﴿ فبعدها أقر المولى عزّ وجلّ بأن الفطرة الإنسانية موجّهة في كل إنسان وجهة بذاتها ، أمر الناس - وبصيغة الجمع - باستباق الخيرات على مواهبهم ، فالخير الذى تبغيه الشعوب والأمم فى الحياة الدنيا لا يأتى إلا على صهوات المواهب ، لكننا فى مضمار سباق إذن !، ولكنه سباق فى الخيرات ، فكل إنسان حينما يسعى فى الوجهة المخصوصة له سيتحقق له النجاح تلو النجاح ويساهم فى الرقى والتقدم والسلام . تلك هى نظرة الإسلام لغزوة «الخلق والإبداع» باعتبارها إحدى مكونات الفطرة الإنسانية ومنحة الله المباركة لكل الناس ليتفاضل بها بعضهم على بعض ، وقد اتفقت هذه النظرة مع آراء البعض من أهل الفكر والفلسفة ، فمنهم من يرى أن الخلق والإبداع لا يقتصر على المبدعين فى مجالات العلوم والفنون فقط بل يمتد إلى بعض الأنشطة الإنسانية الأخرى ، ومنهم من يتفق مع الرؤية الإسلامية فى أن الإبداع ليس مقصورا على أفراد بعينهم أو مجالات بذاتها وإنما هو طاقه إنسانية كامنة فى الفطرة كمنحة من الخالق الكريم لكل إنسان عاقل ، بيد أن هذه المنحة فى حاجة ماسة إلى أن تنهأ لها الظروف للاستنبات والتنشئة والرعاية لتستقل بأمرها ، ولتؤتى ثمرتها.

الإبداع العلمي

ليس على الالم الموهوب إلا السعى بإخلاص وثيَّة صادقة نحو مستودعات الإبداع العلمى طالما يميل ويتشوق لها بطوع موهبته وتلبية لندائها ، وعلى أولى الأمر أن يهيئوا له المضمار الذى يسلكه مع أقرانه ، فهو السبيل المقدَّر عليه والمكلف به لإسعاد نفسه وإسعاد جماعته وأمته ، بل ويسهم مع أهل هذا المضمار فى إسعاد الإنسانية جميعها ، وعلى الجميع أن لا يضعوا العراقيل فى سبيله هذا وإلا أثموا فى حق أنفسهم قبل أن يَأْثُمُوا فى حقه ، فالموهبة ينبوع من ينابيع الخير فى قلب كل إنسان لتجلب المصلحة وتفيض بالخير على الكافة ، وقد جعلها الله بقَدْر حاجة الناس إليها وفى وقت مُقَدَّر تقديرا حكيما ، ومحسوب بحسابات قدرِيَّة بالغة الدقة ، وعلى الناس جميعا أن يعينوا صاحبها فى سبيله المقدَّر هذا رغم ما قد يبدو فيه من وعورة وما ينتظره فيه من مشقة وكبد وعناء ، وباستجابة العالم المبدع لنداء موهبته سيمضى فى طريقه مفعما بالمتابعة والصبر ، وسيشهد إلهام الإبداع يخترق الحُجُب مهما استحكمت ، ويُصَب فى عقله صبا ليشمر صالح الأعمال ، وسيُكتب له النجاح والفوز وينال عطاء الله له ، وقد صورت الآية الحادية عشر من سورة المجادلة تلك الصورة بإيجاز وإعجاز وبأبلغ تعبير ، فقال تعالى : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ 11. المجادلة

فالمؤمنون ورد ذكرهم في الآية بلفظ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أما العلماء فقد ورد ذكرهم مقرونا بلفظ « أوتوا » ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فالفرق هنا واضح بين الإيمان وتحصيل العلم ، فالإيمان إختيار الفرد ثم يأتي العمل بالموافقة للإيمان وبطوَّعه ، أما العلم فبدايته (الموهبة) وهي منحة الله في قلب العالم ، وهي مأمورة لتحقيق غاية مقصودة وبقدر محسوب ، لن تؤتي ثمرتها إلا بجهد وعمل شاق ومثارة وكبد متواصل ، وليس على العالم إلا أن يمتطي صهوة موهبته ، ويبدأ سباقه الشاق من أول المضار حتى يؤتيه الله ثمرة العلم الذي سعى إليه وعلى قدر اجتهاده ومثابرته... فالعلم منحة الله للمُجدين والمجتهدين المثابرين ، وهو الفوز الغالى المؤزر للمكافحين المنتصرين.. لهذا جاء ذكر العلماء بتعبير في غاية الدقة والإعجاز ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. والآية الشريفة تطبع في خاطرنا صورتين ..فأما الأولى : لكأني أرى ذلك العالم في كده ومثابرته وكفاحه وجهاده في سبيل العلم وما يلاقيه من عناء وعنت وتضحيات ، تاركاً أحوال الدنيا وإضطرابات الحياة وتدافع المناكب ودفع الناس بعضهم بعضا ، معتكفاً عنهم في محرابه ، ساهرا الليالي الطوال في تسيحاته العلمية ، منكباً على أكوام من دراسات وأبحاث ومراجع ، طَوَّاف الأرض جيئةً وذهاباً في همة ونشاط ، حيناً على مراكز الأبحاث ليسترحق رحيق من سبقه من العلماء في هذا المضمار، وحيناً على دور الكتب لينهل من فكر السابقين ، مثله في ذلك مثل نحلة العسل الطوافة في خفة ورشاقة بين زهرة وأخرى وبين بستان وآخر ، كذلك أرى ما يُرسم على وجهه من علامات الجد والإصرار والقلق والحيرة وهو منهمك في طريقه الشاق

الطويل كأنه المحارب المغوار في ثوب الرهبان ، وما أن يصل إلى نبع العلم بعد هذا الجهد المصنئ ويقطف ثمرته المنشودة وينال فوزه المؤزر ويحظى بالمدد الكريم من ربه فيقبل على الناس سعيداً مستبشراً بشوشاً ، تشرق في وجهه إبتسامة هادئة واثقة ، وتلمع في عينيه نظرة الإعجاب والثقة وهو يحنو على كنزه الثمين (فكرة ملهمة أو إختراع أو إبتكار أو نظرية علمية أو قانون كونى ...) فيهديه أليهم عن حب وإخلاص ، ثم ما يفتأ أن يُعيد الكرة مرة بعد أخرى.

وأما الصورة الثانية : فأرى فيها عالمنا الجليل هذا يحمل جوهرة ثمينة في قلبه ، كمصباح في مشكاة ، هي موهبة الله له ، يبذل غاية جهده في أن يحافظ عليها ، ويسبغ حمايته لها من أنواء الحياة الإنسانية ومن رياح الكراهية والحدق وضباب الغل والصراع البشرى ، ويظل في مدافعة الخطر عنها حتى يأتيها مدد من الله تعالى فتزداد نوراً ووميضاً وألقاً .

الموهبة تمسك بزمام أمر العالم ، وهي له كالمُلهم الهادى والراشد الأمين والإمام الكريم، فإذا اعتبرنا النفس الإنسانية مملكة يحكمها العقل ، إلا أن عقل العالم - خاصة - لا يعمل بمفرده ، فمن يدلف في كواليس النفس ودهاليزها ويسبر أغوار بلاطها الملكي سيرى أن عقل العالم خاصة يستمد رُشد حُكمه ونفوذ سلطانه من ملهمة الأثيرة (الموهبة) التى تظل دائماً خلفه تُرشده وتهديه من وراء الستار إلى ما يحقق سلام مملكتها ، فلا يأتي العقل بأى أمرٍ ولا يقضى بأى

قضاء إلا وفق هواها وإلا تحقيقاً لرغباتها.

والخالق القدير سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر وأتقن كل شيء صنعه ، فأعطى لكل نفس موهبتها ونزعتها الإبداعية بحسب حاجة الجماعة التي تنتمي إليها ، وفي وقت مُقَدَّر ومحسوب بعناية إلهية فائقة ، ولكل زمن حاجاته التي تكوي قلوب الناس المتعطشين لمدد وعون من خالقهم ليروى ظمأها وإلا نزلت عليهم المصائب متتابعات ، بيد أن العون والمدد لن يأتيهم وهم غافلون ما لم يفيقوا وينهضوا ويسعوا ، وأول السعى هو صدق النية ثم تجنيد الإرادة وعقد العزم والبدء بأولى الخطوات ، ثم بعد ذلك يأتي مدد الله بأن ينثر المواهب في النفوس في منظومة دقيقة ومتقنة ، فتكون لكل نفس موهبتها الإبداعية التي تقود صاحبها إلى بُغيته وبُغية أُمته...، فإذا ما نظرنا إلى المنعطف التاريخي لأى أمة قد أرادت أن تستهل مشوارها الحضارى بعد فترة من الركود المظلم سيتجلى لنا هذا الأمر ، ففي بدايات النهضة الأوروبية نجدهم وقد صدقوا النية وعقدوا العزم للخلاص من المأزق التاريخي الذى سقطوا فيه ، بعدما اكتتوا بنار الجهل ومصائب الظلام ، وأرادوا تحقيق طفرة تُقلِّهم من عثرتهم وتُصلح من شأن حالهم وتُيسِّر لهم حياتهم ، واستهلوا بدء مشوارهم بخطوات حثيثة على مضمار الحضارة (وهو فَرَضٌ على الإنسانية جميعها) ، وما أن بدأوا خطواتهم الأولى بعزم من حديد وبإرادة لا تلين إلا وقد كافأتهم العناية الإلهية بتلك المواهب التي نثرها الله في نفوس أبنائهم على قدر ما تُخَفِّف عنهم وطأة الجهل وتلبى لهم احتياجاتهم ، فصاغوا منها نهضة علمية فائقة وتَقَدُّماً واثق الخطى في

مختلف مناحى الحياة ، وصنعوا حضارة مدنية متعاضمة ، وقادهم ذلك لامتلاك زمام الأمر فى كافة أرجاء البسيطة ، بيد أن الكبر والغرور سرعان ما أصابهم شر إصابة وتخلُّوا عن ميزان الحكمة والعدل والإحسان واستحكموا الشعوب المغلوبة على أمرها واستعمروا وسلبوا وظلموا وما زالوا ، وهنا يأتي موعد السؤال الذى يفرض نفسه ويثير المواجه.. أين نحن؟.. أين الأمة الوسطا التى قدَّر الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس؟!..

الإبداع الفنى

على غير باقى الناس - فإن الفنان المبدع إنسان حباه الله بموهبة فنية إبداعية وفؤاد مفعم بالأحاسيس الإستثنائية والمشاعر الرقيقة الدافقة ، بهذا الفؤاد المرهف وبهذه المشاعر الفياضة وبهذا الإحساس الراقى تتعمق صلة هذا الفنان بالأرض التى خلقه الله من طينها ، وتتوثق صلته بالكون الذى أسكنه الله فيه ، وتتقوى رابطته بالأسرة الإنسانية جميعها ، فهو أكثر الناس تعلقا بالأرض ، وأشدَّهم حنانا مع البيئة التى يحيا فيها ومع المخلوقات التى يعيش بينها ، ويعتصره الحزن إذا ما شعر بتألم أى من مخلوقات الله ، مهما كان شأن هذا المخلوق من النفع أو الضرر أو الضعف أو القوة ، أليفا كان أم غير أليف ؛ وهو أعمق الناس اشتياقا ولوعة لموطنه إذا ما افترق عنه ، ويكاد ينفطر حزنا على فراقه ، ويُشَق عليه أنه لا يستطيع أن يضمه فى أحضانه أو يحيطه بين ذراعيه

، كذلك، فهو أشد الناس تعلقاً ببني جنسه ويخفق وجدانه على الدوام بفيض من تلك الوشائج والمشاعر الرقيقة التي تدعم صلته بالناس وتزيد وتؤكد رباطها الوثيق بهم ، وبالمثل، هو أكثر الناس تعلقاً بالكون الذي خلقه الله فيه وبجميع خلق الله من حيوان ونبات وجماد ، وهو ينظر للكون نظرة اشتياق ولوعة ، وينظر للنجوم والكواكب في الليلة القمراء كنظرة الحبيب الوهان.

هذا المبدع الفنان وأقرانه من أصحاب المواهب المبدعين في كافة مجالات وألوان وصنوف الفنون والآداب ، قد اختصهم الله سبحانه وتعالى بواجب إنساني بالغ الدُرى ، هذا الواجب المنوط بهم هو بمثابة قوة من قوى الدفع الأولى للحركة الإنسانية الرشيدة ، وهو الضامن للمسيرة الإنسانية نحو التقدم والرقى ، ذلك لأن ثمرات إبداعاتهم لها دور أثير ومباشر في تقويم وجدان الإنسانى ، ورعاية الفضائل والقيم فى القلوب وتذكير الناس بها ، لأن القلوب دائماً ما ينتابها القلق والتوتر فى معترك الحياة وفى صراعاتها ، ووجدان الناس ما يفتأ أن يتعكر صفوه بين وقت وآخر ، وتتأثر الفضائل والقيم والأعراف السائدة بهذه الاضطرابات ، وتشتبك مصالح الناس بهذا القلق ، وترتبك منظومة المبادئ والقيم فى القلوب ويختل توازنها وتتهياً للإنهيار مع مرور الوقت، فإذا ما اعتورها هذا الخلل تتوحش السلوكيات البشرية وتشتجر المصالح ، فإن استمر الحال على ذلك، تهوى الحياة الإنسانية على الأرض لأسفل سافلين ، وتصير كحياة الحيوانات فى الغابة ، ما لم يوجد من يتعهد القيم والأعراف والفضائل والمبادئ

التي تصنع نظام الحياة الإنسانية وتصونها ، ومن فضل الله سبحانه وتعالى أن اختص من الناس من هم أقدر على صيانة تلك القيم والمبادئ والمثل في مجتمعاتهم خاصة، وفي الميدان الإنساني عامة ، وأهل الإبداع الفنى، من بين هؤلاء ، فهم أصحاب تكليفات موجهة لبنى جنسهم لحماية فطرتهم الإنسانية كلما هددها شئ من معترك الحياة ، إنهم، بهذا المعنى حصين الفطرة المدافع عنها من شرور الحياة الدنيا.. هم المراقبون لخالها .. وهم الجند الساهرون على حمايتها ، المتهيئون بما أعدّهم الله ليزودوا عنها ما يعكر صفوها ، وهم، قبل ذلك المحافظون على صفو الفطرة في قلوبهم ، لهذا، فقلوبهم دائماً رطبة بالسلام الفطرى ، فوّاحة بالخير ، متألقة بقيم الحق والعدل والجمال ولذلك، فالمبدعون من أهل الفن والآداب أبعد الناس عن الانغماس فى وطيس معترك الحياة وصراعاتها ، لأن فى أعماقهم من الرقة والشفافية والصفاء ما يدفعهم بعيدا عن أتون هذا الوطيس ، فضلا عن أنهم لا يحوزون عدة النزال وغير مهيين لمثل هذه المعثرات ، بيد أن قلوبهم الشفافة وفطرتهم النقية تُقربهم من قلوب الناس ومن أفئدتهم ووجدانهم ، وتدنيهم لمخلوقات الله فى أرضه ، وكأنهم قد أمروا لأن يتفرغوا لمهمتهم المرسومة والمقدّرة ، تلك هى إرادة الخالق سبحانه وتعالى فى أن تظل نفوسهم فى منأى عن صداد الحياة وأوحالها وأدرانها ، وأن تظل قلوبهم على صقالتها الفطرية وعلى نقائها وصفوها . - قدر الإمكان ، فلا يحجبها عن يقين الحقيقة إلا ستارة النفس الصافية فتشرف عليها وتتزود من عبيرها الفواح.. هذا كل شأنهم.. ويظل الفنان المبدع على حاله هذا من الصفاء النفسى، مراقبا

لأحوال الدنيا وأحوال الناس ، منفعلا بشؤونهم لا فاعلا ، وكأن لسان حاله يقول حين يفرز إبداعاته بين وقت وآخر : « أيها الناس هَوِّنُوا من أنفسكم ، فالحياة الدنيا ليست إلا متاع الغرور ».. لهذا فقلب الفنان مفعم بالمبادئ والقيم والمثل على غير الواقع الذى يحيطه والمشحون دائماً باضطرابات واضطرابات شائكة تنزوى من ورائها مثل هذه الأخلاق ، لذا فهو لا يرضى بالواقع ، بل يرفضه رفضاً باتاً ويمقتة مقتاً شديداً ، لأنه يريد واقعا آخر ينسجم مع وجدانه الجميل ، ونراه فى حالة من الألم المرير والدائم ، ولشدة ما يتحمل من آلام لا يعرفها إلا أقرانه المعذبون دون غيرهم اللاهون بديانهم ، ومع الوقت تتحول هذه الآلام إلى طاقة هائلة لا قبل لأى منهم بها ، وتُحِيل قلبه إلى مِرْجَل يغلى يوشك أن ينفجر ما لم يجد المتنفس الرشيد. وفى مثل هذه الأوقات لا يستطيع أن يفرز لنا فناً أو أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل حتى يحين الوقت المعلوم لإفراز فنه ، وقد تأتى اللحظة التى يريد فيها أن يصرخ فى الناس صرخة مدوية لا تنقطع.. وهو على علم بأن الصراخ لن يذهب معاناته ولن يصلح من شأن الأمر كله شيئاً ، وأخلاقه الرقيقة، هى الأخرى لا تسمح له بأن يصرخ فى الناس بمثل هذه الصرخة النكراء ، لذا فإنه يتمنى أن تتاح له الفرصة بأن يدعوهم بدعوة هادئة ، وسبيل له إلا أن يظل مستمسكا بصبره الجميل علّه يجد المتنفس أو المخرج الصالح.. ومن فضل البديع الأعظم « سبحانه وتعالى » أن هياً لهذا المبدع الوديع مخرجاً أثيراً ، وذلك، بأن جعل له مأوى جميلاً وملاذاً ساحراً آمناً يُجِيرُهُ من هذا الهجير ، ويُنْتَشِلُهُ من الواقع المكاني والزمانى المريرين المحيطين به إحاطة

الجُند المدججين للأسير المسكين، ففي هذه المرحلة التي اشتد فيها هجير صدره ولم يعد له به من بقايا طاقة أو احتمال يجد نفسه مرتحلا على أكف الرحمة بعيدا عن واقعه المرير وغائبا عنه بكل وَغْيهِ اللهم إلا بجسده ، ومنسحقا لماضيه السعيد ، ومنغمسا بكل جوارحه في أزهى أوقات عمره - في طفولته وصباه ، وهناك في هذه الواحة الحنونة..وفي روعة هذا الواقع الخيالى الجديد ينغمس فيه كليا بَوَغْيِهِ الفؤادى المكتمل حتى أنه يشتم أزكى روائع الأمكنة المحببة إليه ويداعب أذنه أروع الأصوات الجميلة التي كان يجذب لها وتكتحل بصيرته بأزهى الألوان البديعة التي كانت تسحر ناظره ، وتتناهى لفؤاده كافة التفاصيل الأخرى الدقيقة وغير الدقيقة لكنها جميعا من أحب وأجمل لحظات وأوقات عمره كله.. إنها حالة من الانتقال الوجدانى المؤيد بالوَعْيِ الشعورى وليست مجرد اجترار لذكريات ، وهى حالة خاصة بأهل الإبداع الفنى اختصهم الخالق الكريم بها دون سواهم لأنهم فى حاجة إلى منهل يغمسون فيه ريشة إبداعهم ويلقظون منه بذور براعتهم..وها هو مُبدعنا الآن مرتكن فى حضن حنونٍ دافئ ، ويتعائش مع شخوص وتفاصيل فى زمان مجيد له ومحجب إليه ، وها قد عادت إليه - من بعد طول صبر وعناء - حالة التوازن النفسى والاطمئنان الروحى التى تمنّاها..فى مثل هذه اللحظات الساحرة يحين للمرجل الذى يغلى بصدره أن يحرك قاطرة الإبداع ويستطيع أن يقدم لنا الفنان حكمته فى صورتها الإبداعية الفنية.

ودور المبدع الفنان (دون أن يدرى) هو أن يتشرب وجدانه - فى لحظاته الإنفعالية المتوالية - رحيق المشاعر والأحاسيس الإنسانية وغير الإنسانية ، ثم

يُطهى ويُمَخَّص هذا المزيج في مرجل قلبه على مهل ، ويظل في معاناة شديدة الوطء ليس له قِبَل في تحمل آلامها ، وقبل أن يوشك صدره على الانفجار تأتيه تلك اللحظة المخاضية الإلهامية المخصوصة ، التي ينطوى فيها على نفسه ليستخرج لنا دُرَرًا من روائع إبداعاته ، ويقدمها لنا من خلال مَلَكَة أو أكثر في جوارحه ، قد جعلها الله خادمة لموهبته ، فيقبل الناس عليها بلهفة وحب وشغف فتمس شغاف أفئدتهم، ويهدأ ويقر وجدانهم، وتروق نفوسهم، وتصفو قلوبهم.. وتتححر الضمائر، ويعتدل ميزان الحق في أعماقهم.. وبهذا السلام المتدفق في القلوب تنتظم القيم الإنسانية في أعماق الناس وتنطفئ جذوات الغل في القلوب وتحسن سلوكياتهم ومعاملاتهم فيما بينهم ، ويُقبلون على الحياة في هدوء وأمن وسلام.

وسعادة المبدع الحق هي في لحظات إفرازه الإبداعي الخلاق ، ذلك لأنه يتحرر ساعتها من المرجل الذي يغلى بصدرة ، ويرتد فؤاده إلى سابق صفائه من بعد معاناة مريرة ، وها قد واثته اللحظة التي يستطيع أن يقدم فيها إبداعه للناس - من بعد طول انتظار.. وأخيرًا، ولمعنى أهم وأبقى - ربما لا يعيه هو وقتها - وهو أنه أوفى بواجب نحو نفسه وواجب نحو الناس وواجب أسمى نحو المبدع الأعظم سبحانه وتعالى ، وحينما يقدم لنا إبداعاته ربما لا يعنيه ما ستؤدى إليه من مفعول السحر في النفوس ، كمثل نحلة العسل التي تهدينا شرايبها دون أن تدري أن فيه الشفاء للناس ، إنه يفرز عصارتها الوجدانية وكفى بها سعادة..لهذا

فالإبداع الفنى إفراز وجدانى جوهره شخصية المبدع ذاته.. وممهور بمداد فؤاده..
لذلك، فإبداعات كل فنان فيها قبس من روحه.

وبداية الإبداع الفنى لدى هذا الإنسان الرقيق، تبدأ من حيث رقة وسلام قلبه الذى لا يتحمل مشقة الحياة الدائرة حوله ولا صراعاتها ، فلا يهتم بما يستحوز على جل اهتمام الناس أو ما يشغل بالهم ، بل يدع هذا الوطيس الصاخب ويركن وحيداً إلى حيث الهدوء والصفو والسلام النفسى، ويتخذ لحياته مساراً غير معهود لكنه مفعم بالسكينة ، فيبحث فيما حوله عن كل ما ينسجم مع صفو وسلام فؤاده مهما قلَّ شأنه أو هان أمره فى نظر الغير ، ونجده ينجذب لأشياء هى أبعد ما تكون عن اهتمام ومقاصد عامة الناس ، إلا أنها تشد عقله وفؤاده وتشغل كل باله ، وتنفعل لها كل جوارحه ، ويتعلق بها وجدانه ، ويُفتتن بها أيما افتتان ؛ كمشقة طائر يصدح بأنشودة الصباح ، أو صوت أنين ناعورة تنعى حالها ، أو هفيف غصن يسرُّ به لنسائم الأصيل ، أو يتسمّع فى لهفة لتساييح خريز فى جدول ماء ، أو يُطرق سمعه لوقع أقدام خيل تترنم فى إيقاع ساحر تشق به جفاء الصّمت وقت السّحر..، كذلك نراه يهيم ببصره وعقله وفؤاده فى عناصر ومفردات الطبيعة والكون ، كتشكيلات السّحب فى أيام الشتاء ، أو رقصات الأفنان والحمائل النضرة وهى تتمايل وتتدلّل وتتلاقى شوقاً وتتفارق جفاءً ، أو يهيم فى نشوة ساحرة بموجة لغوب تلاحق أخواتها فى لهُو ودلال على صفحة نهر ، أو يتلهّف لقرص الشمس الدامى لحظة الغروب

وهو يهوى غريقاً في جوف البحر ، أو ينجذب لما تفضح به ملامح وقسمات وجوه الناس بخبايا مشاعرهم الدفينة ، أو يرقب بشغف سلوك الناس وانفعالاتهم...، ونجده ينفطر حزناً ويعتصر ألماً لبكاء طفل أو لدمعة تجلى تتسلل على استحياء من مقلة كهل ، وحتى في الأمور التي شرعها الله كالصيد والذبيحة التي يزاوها الناس ويمتنونها دون أن تُمس مشاعرهم ودون أن يعانون من ذلك ألماً - بل تجلب لهم منافع - فهو أبعد الناس عنها فلا يستطيع التواجد في مكان فيه ذبح أو صيد ، فليكن...! فهو صنعة الله التي جاءت من طينة رقيقة ، فحاء وجدانه أشد رقة من أوراق الورود النضرة وألّين من البراعم الغضة.. ومع الوقت تتجمع في قلبه تلك المشاعر والأحاسيس الرهيفة الدافقة حتى يُتخم بها وجدانه - كالرحيق في بطن النحلة - وتتلقفها تلك النفحة الربانية الموهوبة له من المبدع الأعظم (سبحانه وتعالى) حتى تُصَيِّرُها لونا من الإلهام الفنى الوجدانى ، ما إن يشعر به العقل حتى يحتويه ويقبله على كافة جوانبه ، ويهيئه ويُعدّه لإفرازه في هيئة قوالب فنية تناسب ملكات صاحبها ، ويأتى الوقت الذى لا يعلمه إلا الله ، فتفيض من ذاتها وتتقاطر رويدا رويدا عبر المَلَكَة الإبداعية التى تنهياً لمثل هذه اللحظات ، وتُصَبّ في قالبها الفنى الإبداعى ، فيُقْبَل عليها الناس بقلوبهم المريضة ونفوسهم المنهكة لِيَسْتَرْوِحُوا عن أنفسهم وتطيب أفئدتهم ويقر وجدانهم وتشفى قلوبهم - بمثل ما يُشفى العسل أبدانهم - ثم يعودوا سعداء لحياتهم من جديد بقلوب مُطَبَّبة غير القلوب التى أتوا بها ، ثم يهرعون مرات أخرى لهذا الطبيب كلما أنهكتهم صراعات الحياة.

وأفئدة هؤلاء المبدعين غضة ، لينة ، رطبة ، عاطفة وحنونة ، وقلوبهم المفعمة بالرحمة تجعلهم أدنى للفطرة السليمة وتأخذ بهم قرباً إلى الخالق سبحانه وتعالى ، وهم على النقيض التام من أصحاب القلوب القاسية التي ليس من طبيعتها اللين والعطف ، والذين ذكرهم القرآن الكريم ونعتهم بصفات الفسوق والمروق عن الدين.. فقال تعالى :

• ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ

قَسْوَةً... ﴾ من الآية ٧٤ سورة البقرة

• ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٣) سورة الأنعام.

• ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ

عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴾ من الآية ١٣ سورة

المائدة

• ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ

الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦) سورة الحديد

• ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٣) سورة الحج

• ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

﴿ (٢٢) سورة الزمر

لهذا، فالمبدعون هم من أكثر الناس قرباً للمبدع الأعظم سبحانه وتعالى إذا ما أعملوا غرسة البراعة في حقها ، وهم الأقرب اهتداءً للإيمان إذا ما صادفوا الإشارة الهادية ، ولا تعنيهم الحاجات المعيشية في حياتهم ولا رَغَد العيش بقدر عنايتهم بالقيم والفضائل وبسلامة الفطرة في مجتمعاتهم وفي عالم الإنسانية جميعه ، بل إن أشد ما يفتك بهؤلاء المبدعين من أهل الفنون والآداب أن تُلقَى بهم مجتمعاتهم في أتون معركة الحياة وصراعاتها ، فليس لديهم عُدة تلك المعركة ولا دروعها ولا رداؤها ولم تنهياً فطرتهم الوديدة لها ولم ينالو ثمة حظ من التدريب لها ، بل أعدّهم الخالق وهياًهم لواجب أهم وأجدى ، وهو السهر على الأعراف والقيم الإنسانية والفضائل الفطرية ، وصيانة الوجدان وتنقية القلوب ، فإن دفعناهم دفعا في أتون الصراع الإنساني فكأنما نحرت صُلْد الأرض بغُصن الورد الغض ، فإن فعلنا ذلك نخسر الأثيرين معا « عبير الورد وثمر الأرض » ويا له من خُسران!!..وهكذا إن افتقدناهم في معركة الحياة افتقدنا معهم أهم قِيمنا وفضائلنا ووجودنا..وتلك هى العبرة !!.

المبدعون والمضارة

الملاحظ أنه في فترات رُقَى الأمم وتقدمها نرى بجلاء أن هؤلاء المبدعين والبارعين والعباقرة من أهل المواهب هم الذين يتقدموا بأهمهم نحو الرقى ، وهم الذين يقودوا المسيرة في كل ربوع الأمة وأرجائها وفي كافة مجالات النشاط

الإنسانى ، فى العلوم - شتى العلوم وفروعها - وفى الفنون - كل الفنون وألوانها ، وفى الآداب وكافة أشكالها ، وفى مختلف أوجه النشاط الإنسانى عامة ، فالإبداع والفكر الخلاق والإبتكار المتجدد يتجلى فى كل شىء وفى كل مكان أثناء عهود التقدم والرقى ، على غير عهود الركود والتخلف والظلام التى ينزوى فيها هؤلاء المبدعون وتنمى فيها مظاهر التجدد وتتراجع فيها الأحوال، ذلك لأن الكبوات - خاصة التى تأتى بعد اندفاع الحضارة - تحدث قلقاً فى عموم حياة الأمة ، وتثير جلباً وصخباً وارتباكاً تنيقظ معه قوى البغى والبطش التى كانت مُستَغفِية زمن الحضارة ، وتتفجر - تبعاً - نوازع الشر المكبوتة وتنفلت من عقلاها ، فترتبك الحياة أيما ارتباك، ويوطئ الخطب الجميع ، وتكون أول ضحايا هذا الخطب هى نزعة الإبداع وموطن الموهبة وخصلة الإبتكار فى نفوس هؤلاء الناس الودعاء الحزينين، ذلك لأنها غرسة وديعة رهيبة مثلها مثل زهور الياسمين الغضة وأوراق الورد الناعمة ، وأصحابها كذلك على نفس الدرجة من هذه الصفات الرقيقة ، إنهم مثاليون ، ويريدون دائماً أن يكون العالم من حولهم مفعم بأعلى درجات الحب والجمال وبأصدق المشاعر النبيلة وبأسمى حالات السكينة والرفق والسلام.

والحق أن اهل الإبداع الفنى ليسوا مثل باقى الناس فى درجة تحملهم وطء الخطوب ، كما وأنهم ليسوا أهلاً لحياة محتدمة بالصراعات أو مليئة بالربكة أو مفعمة بالمعتركات، فنفسهم الوديعة لا تستطيع أن تتدرع بشىء من نفاق أو

خداع أو مكيدة أو غش أو مقته وغل وحسد.. إلى آخر هذه المثالب التي تتفشى في الجماعة في مثل هذه الأوقات العصيبة.. ومن الزاوية المقابلة فإننا نجد أن النزعة الإبداعية هي أول ما يتألق مع الخطوة الأولى التي تخطوها أي أمة قُدماً نحو الحضارة وتزداد ازدهاراً مع ازدهار الحياة، وهي أول ما ينبت في هذه الأرض الخصيبة وفي هذا المناخ الربيعي، مثلها في ذلك مثل البراعم التي تتفتح مع استهلال الربيع وسرعان ما تُغمر الدنيا بالخير الوفير ومن روعة الجمال، وفاقق البهجة، ويانع الثمار، ووارف الظلال، فتسكن معها أحوال الأمة وتهدأ بها النفوس وتُقبل على الحياة بهمة ونشاط، وهي أيضاً أول نبع يفيض بروح الحضارة، خاصة في مجال الفنون البصرية من رسم وتصوير ونحت وفنون المعمار.. ثم تليها الفنون السمعية من موسيقى وغناء وشعر وخطابة.. ثم الآداب وكافة ألوانها - وهذا ما يبدو جلياً من خلال مسيرة الحضارات في التاريخ.

ولا شك أن هذا الازدهار الفني هو الذي يمهّد الطريق لبزوغ العلوم وما يليها من تطورات علمية وتقنية متلاحقة، لأن الفنون جميعها تلعب دوراً مهماً ومؤثراً في تهيئة المناخ للحضارة الوليدة حيث تؤدي دور المهد لاستقبال المولود الحضاري الجديد، فضلاً عن أن لها دور هام في صقل حواس أبناء الأمة وتركيتها لتتفاعل مع الكون بحسٍ مرهف وبنظر ثاقب وبذهن صافٍ لا تشغله شواغل ولا تُربكه قلاقل، فالحس الرهيف والملاحظة الدقيقة هي أولى أدوات العالم وأولى خطواته في مشواره العلمي، وهي أيضاً أول خطوات الأمة نحو الحضارة، ذلك لأن العلم أوله الملاحظة الدقيقة ثم يتبعها تلك الآليات الأخرى كالبحث

والتجارب وتحصيل الشواهد العلمية ومضاهاتها.. إلى آخر هذه الآليات التي تنتهى بنتائج علمية أرقى ، والملاحظة لا تكون إلا بالحواس ولن تجدى الملاحظة مالم يتم شحذ هذه الحواس وصقلها وتهيئتها وإعدادها ، وتلك هى مهمة الفنون والآداب فى التمهيد للتقدم التقنى والعلمى وفى انطلاق الحضارات.

ذلك ما حدث لأوروبا فى مستهل انطلاق الحضارة الغربية ، فكانت الفنون البصرية وخاصة الفن التشكيلى من رسم ونحت وتصوير هى أول ما ازدهر فيها ، خاصة فى الجنوب الأوروبى وفى إيطاليا على وجه الخصوص ، ثم تلاها باقى الفنون.. وذلك أيضاً ، ما حدث للحضارة الإسلامية على أثر الانتهاء من بناء الدولة.. حيث كانت بدايات انطلاق حضارتها مع بناء المسجد الأموى الكبير بدمشق وبشكل معمارى مذهل ، وكان بحق أعجوبة من الأعاجيب المبهرة لاحتوائه على فنون البناء البديعة والنقوش الخلابة والصروح المعمارية الفاتنة ، فى الوقت الذى كان الناس فيه ما زالوا على عهد البداوة الخشنة ، ثم تلى ذلك تنافس أمراء الدولة الأموية فى بناء العديد من القصور فائقة الروعة والحسن والجمال.. فأمّا ازدهار العلوم فلم يأتى إلا بعد ذلك بعقد أو عقدين..، وذلك - أيضاً - ما حدث فى الحضارات الإنسانية الأخرى على مدار التاريخ كله. وسوف نتحدث عن ذلك بشئ من التفصيل فى باب الفكر.

استكشاف المواهب

والسؤال الذى يلح الآن هو: كيف يمكننا أن نكتشف غرسة الإبداع فى الإنسان؟!، وبمعنى آخر: كيف للأمة أن تعثر على أهل الإبداع وأصحاب المواهب وتتعرف عليهم من بين نشء أبنائها؟!.. قد يبدو الأمر عسيراً بعض الشيء ، ولكنه فى الحقيقة لا يحتاج إلى عناء أو جهد وإنما هو أيسر مما نعتقد ، فإن كانت غرسة الإبداع (الموهبة) مستورة فى قلب الإنسان ومستخفية فى أغوار النفس ما يتعذر علينا اكتشافها إلا أنها قد تعلن عن نفسها فى بعض الظروف الخاصة ، ذلك لأن بها شحنة جاذبة لكل الأمور التى هى من جنسها وللأمور الى تطابقها أو تتشابه معها بأى وجه من أوجه التشابه ، فإذا تهيأت لها الفرصة لأن تتواجد فى مناخات إبداعية من نفس جنسها - أو على الأقل مشابهة لها - فإنها تنجذب إليها إنجذاباً شديداً ، وذلك، لى تعتمد عليها وتتلقى منها شحنة أولية تُشدُّ عُودَهَا وتُمكنُها من أن تنبئ عن ذاتها ، فمن فضل الله الذى خلق كل شىء بقدر أن جعل لهذه النبتة قُدرة على الانجذاب إلى الموضع الذى يجب تتلقى فيه أولى وجبات غذائها مثلها فى ذلك مثل أى وليد يهتدى فى لحظة مولده الأولى لثدى الأم ، فالموهبة الناشئة كذلك تنجذب للمناخات الإبداعية المشابهة لها لترتوى منها ولتعتمد عليها ولتتقوى بها ابتداءً، حتى تستطيع أن تستقل فى الوجود ، إنها فترة طفولة ضرورية ولازمة لاستنبات هذه الغرسة واسترضاع بعض من رحيق الإبداع وبالقدر اللازم والضرورى الذى

يعينها على التواء ، بالإضافة إلى أنها فترة تدريب لازمة تُتاح فيها الفرصة المناسبة لكي تتعرف على الآلية والأدوات والأساليب التي تعينها على استخراج براعتها الإبداعية وتجعل لها القدرة الذاتية على الخلق والتجديد استقلالا ، في فترة الحضانة هذه تنشأ علاقة وطيدة بين المبدع الحاضن والموهبة الناشئة أشبه بعلاقة الأبوة..أو بالأحرى هي علاقة أمومة.

وبرغم أهمية فترة الحضانة هذه وضرورتها للموهبة الناشئة إلا أنها لا تتوافر لكثير من المواهب إلا بقدر اهتمام المجتمعات بأبنائها ، فتزدهر تلك المواهب في زمن النهوض والتقدم والازدهار الحضارى ، وتكاد تنعدم في غير هذه الأزمان ، ذاك لأنها ستصادف - في مثل هذا المناخ المثالى - ذلك النبع الذى ترتوى منه وستجد الشحنة اللازمة لتتقوى بها، إلا أنها لا تمتنع مطلقا في زمن التراجع الحضارى الذى قد يتوافر فيه - رغم المحنة - ما يتيح لبعض المواهب النادرة جداً فترة الحضانة تلك، لتتخلق فيها المقدرة الإبداعية الاستقلالية وتُشكل مع القلة من أقرانها معابرا للحضارات المزدهرة وهزات الإتصال معها ، وتلك خاصة في ناموس تواصل الحضارات ، وهو ناموس إستنبته الخالق الكريم في الفطرة الإنسانية المأمورة بتعمير الكون لتنشده الإنسانية السلام والرخاء والأمن ، وليتعارف الناس جميعا (شعوبا وأما)..قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ آية 13 سورة الحجرات.. أما القول الشائع بتصارع الحضارات

فهو قول آثم قد جانبه الصواب وفيه دعوة منكرة للفوضى والصراع ونقض لمعمار الأرض وهدم لممارها.

وإذا ما استعرضنا سيرة المبدعين سنجد أن طفولتهم كانت مشحونة بأمر تلك الغرسة الخلّاقة والمحتدمة في أعماق قلوبهم ، فإن لها من عنفوان القوة ما لاحيلة لهم بها ، وهي التي تدفع كلا منهم على صهوتها دفعا للإتيان بسلوك وبتصرفات على غير ماهو مألوف في مجتمعاتهم ، وكأنهم مجذوبين لها جذبا ، ومثلها في ذلك، كمثل جواد جامع قد أضناه الظمأ فينطلق هائما في فلاة جرداء عله يجد المنهل الذي يهدئ من روعه ليرتوى منه ، ويظل صاحب الموهبة هكذا على دأبه وسعيه مهما كلفه ذلك من جهد وعناء ومهما أصابه من عناد الأهل وروعهم ، وهو على استعداد لأن يبذل الغالي والنفيس من أجل موهبته المعشوقة ، وكأن لسان حاله يقول لمن حوله « دعوني وشأني فحياتي دونها لا معنى لها..وليس دونها إلا الموت » الأمر الذي لا تُجدى معه أى محاولات لإثناؤه عن بغيته تلك، هذه السلوكيات الشاذة (في نظر الأهل) لهى دليل على ما تُكَنّ قلوب هؤلاء من غرسة خلاقة ، ويجب علينا أن نتنبه لذلك ونمنحهم الفرصة المناسبة لاحتضان مواهبهم وأن نعمل على تنشئتها وأن نوفر لها المناخ الأنسب ، لا أن نزجرهم وننهرهم ونعاقبهم ونطأ بنعال الجهل تلك الغرسة الغضة الخلّاقة في قلوبهم ..فما أعظمها خطيئة إن فعلنا بهم ذلك..وليس بوسعنا في هذا البحث أن نتبع سيرة بعض العباقرة لإلقاء الضوء على هذا الأمر وإلا طال بنا المقام.

فإذا ما عُدنا للقرآن الكريم (دستور الفطرة) للبحث عن دليلنا الذى يؤكد حاجة الموهبة الناشئة لفترة الحضانة تلك وفضل هذه الفترة فى استنبات هذه الغرسة وتنشئتها ، فسنجد أنها وردت فى إطار قصة النبى يوسف عليه السلام ، هذا النبى الذى اختصه الخالق الكريم بموهبة تعبير الأحلام وتفسيرها تفسيراً صادقاً ، فتقع الأحداث مطابقة لتأويله وعلى مشهد من الجميع ، هذه الموهبة الفذة لم تكن على هذا القدر من البراعة ما لم تكن قد أتاحت لها فرصة الحضانة الضرورية فى فترة الطفولة ، فأما صاحب الموهبة الحاضنة فقد كان أبوه النبى يعقوب (عليه السلام) الذى كانت له من الشواهد ما يدل على أنه بتفسير الأحلام عليم وأنه لذو موهبة وعلم ودراية فيها ، ففى طفولة النبى يوسف رأى رؤية ذات مغزى ، وربما أحدثت فى قلبه بعض القلق فذكرها لأبيه ليعلم منه تأويلها.. ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ 4 سورة يوسف.. فبادره أبوه على الفور - وفى لهجة إشفاق وتحذير - بأن يكتم هذه الرؤيا ولا يقصصها على أخوته فينزغ الشيطان بينه وبينهم ويكيدوا له كيذا ، ذاك لأنه علم من تأويل الرؤيا بأن الأحد عشر كوكبا ما هم إلا أخوة يوسف وأما الشمس والقمر فهما أبويه ، وأن الأحداث ستتوالى لتصدق الرؤيا بعد زمن يعلمه الله ، وسيكون ليوسف وقتها من علو الشأن ما يجعلهم جميعاً يخشوا له سجداً ، وقد اكتملت القصة فى القرآن لتؤكد صدق هذا التأويل.. ﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ

مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ سورة يوسف.

وصدقت الرؤيا بعد عدة عقود من الزمن وصدق تعبير النبي يعقوب لها ، ففي مصر وبعد الفراق الطويل عن الأهل وبعد أن صار ليوسف (عليه السلام) غُلو الشأن المنتظر بما آتاه الله من النبوة والحكمة والمُلْك ، وشاء الله أن يلتئم الشمل فاستحضر أهله جميعا ورفع أبويه على العرش وخروا جميعا له سُجَّدًا ، وهكذا قد تحقق التأويل الذي ذكره النبي يعقوب للحلم الذي رآه قرة عينه يوسف حينما كان طفلاً .. قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا.. ﴾ من الآية 100 سورة يوسف... هذا دليل بَيِّن من القرآن على ضرورة فترة الحضانة للموهبة الناشئة ، ولقد كانت فترة الحضانة لموهبة تفسير الأحلام للنبي يوسف في كنف موهبة أبيه النبي يعقوب (عليهما السلام).

وفضلاً عن خاصة التجاذب نحو المناخ اللازم لارتواء الموهبة ، فإن لها كذلك من الظواهر الخارجية ما يُنبئ عنها ، فمن ناحية نجد أن صاحبها يميل لأُمور مخصوصة يطمئن لها قلبه ويهدأ لها باله وتبجح لها إرادته وتهوى لها نفسه ، ذلك، لأنها تجلب له قدرا متعاضما من السعادة ، كما نجد أن الله قد أرهف لها حاسة من الحواس أو أكثر ، وغالبا ما تتهيا لها أجزاء من بعض أعضاء الجسد

نسميها (ملكات) لتتفعل بها وتُسَطَّر بها خُطاهها في الحياة بِتَميُّز وبراعة واقتدار ، فأصابع الرسام الموهوب وأنامله تنفرد - في أغلب الأحوال - بإستطالة تفوق مثيلاتها في أى إنسان آخر ، وحباه الله ببصر نافذ وبصيرة كاشفة يتفرس بهما الوجوه والمخلوقات والأشياء من حوله ، والموسيقى قد جُنِّد له الخالق سبحانه وتعالى رهافة بالغة في حاسة السمع ومضفأة صوتية في الأذن ليستقي بها أجمل وأمتع الأصوات والإيقاعات ، كما وأن له فؤاد رقيق يخترن به هذه الترانيم والإيقاعات حتى تأتي لحظة الإبداع فيقدم لنا منها رحيق فَنِّه الرفيع ، وليس من قبيل المبالغة أن نسمع موسيقى عربى شهير مثل :محمد عبد الوهاب يقول عن نفسه أنه ليس إلا أُذُنٌ كبيرة..بمعنى أن حاسة السمع لديه هي محور حياته كلها وهي الأداة الإدراكية التي لا تهدأ عنده ، وأن بداخله جذوة إبداعية تجنِّد أذنه وسمعه وكافة مشاعره وأحاسيسه لخدمتها طوال الوقت لتستقي بها كل ما يتناهى لسمعه من أصوات لتمامز بينها وتتشنف بروائعها.. وكذلك الخطيب والمنشد والمغنى متَّعهم الله بحنجرة وأوتار صوتية وإتساع في الفم والأشداق ومخارج للصوت تناسب تماماً ما حباهم الله من موهبة..فضلا عن ذلك فأى موهبة في مجالات الفنون أو الآداب أو العلوم أو أى مجال إنسانى آخر تبدو بوادرها على سلوكيات الطفل وعلى رغباته وتصرفاته ، وهكذا..المواهب تنضح كيناييع ملء البصر شريطة أن نرقبها وننتبه لها وأن نبذل لها العناية اللازمة ، فليس من الصعب على الأمم إكتشاف المواهب المنتورة بين أبنائها ، وعلى الأمة التي تريد التقدم أن تُمَد يد العون لهم وتمنحهم مطلق الحرية ليستخرجوا لنا من مكامن

أفئدتهم فائق براعاتهم وإبداعاتهم. الموهبة مثلها مثل البرعم الغض الرقيق الذى لا ينمو ما لم تتوافر له البيئة المناسبة من الهواء والتربة وأشعة الشمس والماء العذب ثم اليد التى تحيطه بالرعاية ، كذلك فأهم ما تحتاجه الموهبة الناشئة هو أن يتوافر لها بيئة مناسبة وإلا ذبلت وماتت ، وأنسب بيئة للموهبة هى أن تتربى فى وسط من جنسها أو من جنس عائلتها ، كالعزف والموسيقى والغناء والإنشاد فإنها تنتمى لعائلة إبداعية واحدة ، والرسم والنحت والتصوير والكاريكاتور عائلة أخرى ، والشعر بأنواعه والزجل والملاحم الشعبية عائلة ثالثة ، والمقال والقصة القصيرة والرواية والنثر والخطابة عائلة رابعة...إلخ ، فمن هذا الوسط المتجانس تسترزع الموهبة الناشئة رؤاءها وتتغذى وتنمو من مفرداته وتنال حظها من الرعاية ، وترتوى من فيض هذا النبع ، وتتعرض فيه لشمس الحرية الإبداعية ، ومع الوقت تتعرف على وجهتها وتتخلق رويدا رويدا إلى نوع فنى بذاته حتى تكتمل وتستطيع أن تستقل بذاتها ، فقد تتربى موهبة الموسيقىار المبدع فى كنف عازف أو مغنى أو مُنشد مثلا ، ثم على الموهوب ذاته فيما بعد، أن يرعى موهبته بنفسه وأن ينميها بالمعرفة والعلم وبالدراية والتدريب تباعا ، ثم عليه بعد ذلك وبعد أن يصير مبدعا ذو شأن، أن يمد يدَ العون لبراعم المواهب المماثلة ، ويتلك الدورة يستمر الفيض الذى تدره علينا ينابيع المواهب بالخير والعطاء.

فالموهبة تنبض فى قلب صاحبها وتنبئ عن ذاتها ، وكل من يتطلع للتعرف عليها واكتشافها لن يرضيه الجهد والعناء فى التماسها ، وهذا ما يمكن أن نفعله

جميعا كأفراد للعثور من بين أبنائنا على من حباهم الله بتلك الغرسة الخلّاقة.. وإلى جانب ذلك، فالأجدى أن تجتهد المجتمعات والأمم في أن تضع من الآليات ما يمكّنها من كشف المواهب المنشورة بين أجيالها الناشئة ، وهذا أمر يتطلب تضافر جهود كافة العلماء والباحثين المتخصصين والهيئات لوضع الدراسات والبرامج الملائمة لمثل هذا الأمر البالغ الضرورة والأهمية..ذلك إذا ما كانت الأمة تبغى الإقالة من عثرتها وتنشد معاودة بناء حضارتها من جديد.

وفي هذا السياق لا يفوتني أن أذكر ما قرأت في إحدى المجالات إبان مطلع شبّابي عن إحدى دول شرق آسيا (وقد صارت جميعها الآن من النُمور الإقتصادية العملاقة) ، إلا أنني لا أتذكر حاليا هذه الدولة على وجه التحديد.. ربما تكون اليابان! أو كوريا! ، لكنني أتذكر جيدا كم كان إعجابي برغبتهم الصادقة لكشف المواهب ، حيث أنشأوا آليات حاسمة مكنّتهم من وضع أيديهم على المواهب المستخفية في أجيالهم الناشئة ، وذلك بأن أنشأوا في كافة أرجاء بلدهم دورا مخصصة للحضانة لتستقبل الأطفال قبل بلوغهم السن المقررة لبدء التعليم الإلزامي بعامين ، وكيف أن هذه الدُور قد احتوت نماذج جاذبة ومبسطة لتناسب سن الطفولة في كافة الأنشطة الإنسانية من عمارة ، وهندسة ، وفلك ، وعلوم الطبيعية ، وعلوم البحار ، والفضاء ، وعلوم النبات والطيور والحشرات والأسماك ، والجسم البشري ، والطب ، والموسيقى والغناء ، والتمثيل ، والرسم ، والنحت ، والشعر..إلى آخر هذه الأنشطة الإنسانية ، وجعلوا لكل نشاط أو

علم بناية مستقلة زاخرة بمُجسّمات ونماذج أنيقة وجاذبة من آلات ومعدات علمية أو فنية ، ويترك الطفل مع بدء التحاقه بدار الحضانة بحريته الكاملة للتجوال فى جميع الأبنية ولكن فى نظام مدروس بعناية فائقة ، حيث يقوم كل طفل منذ اليوم الأول برحلات فضولية استكشافية فى كافة الأبنية ، ومع مرور الأيام يستقر فى بعضها بعض أو معظم الوقت ، ثم ما يلبث أن يلتزم بأحداها دون غيرها طول الوقت ، ويظل متنقلا - فى هذه البناية الأخيرة - بين النماذج والأجهزة والمجسّمات فى انهماك وفضول وشغف للدرجة التى كان الموظفون يبذلون العناء لإقناعهم بموعد الانصراف ، ومنذ اليوم الأول تظل تصرفات وسلوكيات الطفل تحت المراقبة الدقيقة بمعرفة أحد المشرفين من ذوى الدراية العلمية ، والذى يقوم بتدوين ملاحظاته عن كافة سلوكيات الطفل أولاً بأول ، ويقدم تقريراً دورياً بذلك ، وتجمع هذه التقارير لمدة العامين ليتناولها بالدراسة والتحليل متخصصون فى العلوم السلوكية للأطفال الذين لهم حق مناقشة المشرف أو ولى الأمر فى بعض النشاطات الأخرى التى يقوم بها الطفل بعيدا عن دار الحضانة ، ثم يُنتهى التقرير بتسجيل الرأى العلمى عن ميول الطفل وما يتمتع به من موهبة ، مع توجيه المسؤولين بموضوعات المواد الدراسية المحددة التى تناسب ميول كل طفل بحكم موهبته ، ويودع تقريره هذا ضمن أوراق التحاقه بأولى مراحل التعليم الإلزامى ، فيتم تنشئته علمياً أو فنياً أو فى أى مجال عملى آخر فى هذا الفرع بصفة أساسية إلى جانب بعض المواد الأخرى التى يحرص المجتمع على تنميتها فى أبنائه وفق نظام دراسى موضوع بدقة

وعناية فائقة..هذا ما تذكرته عن موضوع هذه الآلية لاستكشاف المواهب رغم مضى عدة عقود على اطلاعى عليه ، وربما يكون الموضوع الذى نتحدث فيه فى هذا الفصل من الكتاب هو الذى استدعاه من باطن الذاكرة ، وأنا على يقين من أن هذه الآلية لاستكشاف المواهب كان لها أبلغ الأثر فى التقدم السريع الذى نعرفه اليوم عن دول شرق آسيا فى أيامنا هذه.

سمات المبتدعين

ذكرنا أن الإبداع يتألق مع الرقى والتقدم والازدهار الحضارى ، بل هو الذى يقود مسيرة الحضارة التى ما أن يشتد عودها وتسرى روحها فى عروق أبناء الأمة فإنها تُضفى سمات مضيئة لكل المنتمين إليها، وبالنظر الآن للحضارة الغربية - على سبيل المثال - نجد أن سماتها عامة قد ظلت الغالبية العظمى من أبنائها ، فالإنسان الغربى ثابت الجنان ، يملك أعصابه ، لديه ثبات انفعالى ، يتمتع بالتوازن النفسى ، جاد ، مجتهد فى عمله وفى الوقت ذاته محب للمرح وللهو فى غير أوقات العمل، واثق من نفسه ، آمن فى مستقبله ، لا يحب التظاهر ولايميل إلى نفاق ، يأبى الجمود ويتطلع للتجديد ، عقلانى ، ليس فيه من تهور ولا مبالغة ، لا إسراف ولا تقتير فى جميع شؤون حياته،حتى فى مشاعره ، لاتشنجات ولاتشبثات بأوهام لايسندها منطق راسخ أو دليل واضح ، يميل إلى التفكير الهادئ الرصين ، محب للنظام ، هادىء البال ، لديه ميل ونهم للمعرفة ، يميل بالرباط إلى بلده أكثر من ميله إلى أسرته ، يعتز باستقلاله الفردى ،

ويصون حريته الفردية ، يميل للصدق في القول والعمل ، يُسرع في التجاوب مع الغير..

فالحضارة والتقدم والرقى تُحسن من أخلاق الإنسان ، ذلك لأن الإحساس بالأمان الذى تجلبه الحضارة يهْدِيء من انفعالات النفس ويشيع فيها خصال الثبات والهدوء وعدم المبالغة ، ولأن الكيان الحضارى تغلب عليه الصفة الجماعية والأمية فيضفى شعوراً متنامياً بالثقة فى الذات حتى درجة الغرور ، وشعوراً غالباً بالانتماء يصل لحد العنصرية ، فيزداد ترابط الفرد بالكيان الكبير والوطن الأم أكثر من ارتباطه بالكيان الصغير والأسرة والبلدة أو المدينة ، وعلى نفس القدر يتنامى تمسكه بالحرية والاستقلال الذاتى ، هذا الشعور الانتمائى يسرى بين الناس فى الأمة الواحدة ويوحدهم أمام أى خطر خارجى ، والرخاء الذى تجلبه الحضارة يطفىء فى نفوس أبنائها جذوات الغل والحسد ويحولهما إلى تنافس شريف ، ويمحى خصال التباغض والتحاقد والتضاغن ، ويُرَكِّب خصال التعاون والتعاوض والانتماء ، والكل يسعى لإرضاء الكل فى التعاملات اليومية وغيرها.. الحضارة فى جملتها تصقل النفس وتحسِّن الأخلاق وتُرَكِّب عوامل التماسك المجتمعى وتمحو عوامل الجفاء والفرق والانشقاق فى الأمة.. وإن كانت للحضارة من ثمة آثار سلبية على النفس إلا أنها فى حدود ضيقة وليست على قدر ما تجلبه من فضائل وقيم ومُثَل عديدة.

وبعد أن استعرضنا السمات النفسية العامة للناس فى الأمم المتحضرة

، نتحدث الآن عن سمات المبدعين ، وسنتناولها من زاويتين ، فأما الأولى فهي عن شخصية المبدع المتصلة بعمله الإبداعي ، وأما الثانية فهي عن السمات النفسية التي يحلى بها كل مبدع.

أولاً: شخصية المبدع المتصلة بعمله

استعرض بعض العلماء شخصية العالم المتصلة بعمله العلمي بشيء من الاستفاضة والتفصيل ضمن حديثهم عن العلم والتفكير العلمي ، ومنهم الدكتور/ فؤاد زكريا في كتابه الرائع : (التفكير العلمي) الذي يُعد من أهم الكتب التي تناولت النظرية العلمية والفكر العلمي على وجه الخصوص ، وعلى ما يخر هذا الكتاب من معرفة فنرجو المهتمين من السادة القُراء إلى مطالعته..ويمكن إيجاز ما يراه المفكر الكبير من أهم سمات العلماء المتصلة بعملهم العلمي في الصفات التالية:

- التحلى بالروح النقدية : حيث أن المبدع عامةً له القدرة على أن يختبر الآراء بذهن ناقد ، ولايقبل إلا ما هو مقنع ومبنى على أسس عقلية وعلمية سليمة ، ولايعفى نفسه من النقد بمثل ما يتقبل نقد الآخرين ، ويعترف بالخطأ مهما كان الاعتراف أليماً .
- التمسك بمبدأ الحياد : فلا ينحاز مقدماً لطرف في أى نزاع فكري أو علمي ، وهو يطرح تفضيلاته الشخصية والذاتية جانبا ، وينظر لجميع

الآراء على قدم المساواة .

- التمتع بالنزاهة في عمله وإبداعه : فيطرح جانباً أى مصالح أو ميول أو اتجاهات شخصية قد تكون لها آثاراً سلبية على عمله ، ويعالج موضوعه الفكرى أو العلمى بتجرد تام ، ويلجأ إلى وسيلة وحيدة للإقناع وهى الدلائل والبراهين الموضوعية .

ثانياً: السمات النفسية للمبدع .

- المبدعين لهم سمات نفسية يتحلّون بها دون غيرهم ، أولها أنهم رُحماء ، فالمبدع يملأ جوانح قلبه رحمة رهيقة يستشعر بها حاجة الناس وأوجاعهم ، فتتوقد بها جذوة الموهبة فى أعماقه ، وتلك الجذوة المتوقدة تدفع حماسه نحو إشباع حاجات الناس وأطفاء ظمئها ، والحكمة تقول :« إن الحاجة أم الاختراع ».

- والمبدع الموهوب لاشرّ فى قلبه ، إنه يحتفظ بما فى قلبه من قوة وعزم لإشباع موهبته ، وإضطرابات الناس من حوله لاتعنيه فى شىء ولايلتفت إليها ، وأمور الدنيا جميعها بالنسبة له تتمحور فى أمر واحد هو توجيه موهبته نحو غايتها ، والغل والحسد بأعماقه ليست إلا قوى دفع للإبداع فى سبيل غاية واحدة هى إسعاد نفسه والآخرين .

- العالم والمبدع والموهوب ، عف اللسان ، رقيق الوجدان ، يقضى يومه كله فى محرابه ، وذهنه لاينشغل إلا بعلمه وعمله ، لذا فإنه يميل

إلى الغزلة .

• والمبدع أحد هؤلاء الذين يحتفظون في أعماق قلوبهم بفطرة سليمة ، وتمر بهم أحوال تكون فيها فطرتهم على أنقى صفاء ، فيمدحهم الله ببعض أسرار كونه في هذه اللحظة القصيرة التي يقدرها الله تقديرا حكيما، ليؤتينا بعض أسرار علمه متتاليات في وقت تشتد الحاجة الإنسانية إليها.

• المبدعون أناس حباهم الله بوجهة سديدة وأخلاق كريمة ، يحبون العدل في كل أمور حياتهم ، محسنون في أعماقهم ، محتفظون برحمة الله في قلوبهم ، بعيدون عن أى فحش من قول أو فعل ، لا يشوب قلوبهم ولا أفعالهم منكر ، ولا يميلون لأى بغى مهما صغر شأنه.

مَا بَيْنَ الْإِبْدَاعِ وَالْحَرِيَّةِ

هناك أمر يجب أن نتفق عليه ، ألا وهو أن نوازع النفس الإنسانية (العقل - الفكر - الإبداع - الفؤاد - الوجدان - القلب... إلخ) لا تعمل أى منها على انفراد ، دون تدخل من باقى التوجهات الفطرية الأخرى - وسوف نتحدث ذلك بشئ من التفصيل لدى تطرقنا بالحديث عن آفاق العقل. وموطن الإبداع هو أحد غرائس النفس الثاوية فى القلب ، ونستطيع القول على سبيل اليقين أن نفسا ما، لا تخلو من تلك البقعة المباركة التى غرسها الله فى قلب كل إنسان ،

لابتغاء سعادته ورؤيته ومنفعته الذاتية حتى التشبع ، ثم تفيض وتتفجر بالإفادة والنفع على الإنسانية في مجملها أو على الأقل في المجتمع المحيط بصاحبها ، وهي ليست قاصرة على مجالات العلوم والفنون والآداب فحسب ، ولكنها فياضة في كل حركة إنسانية ، ونلمح إشعاعاتها مع كل خطوة إنسانية في صراط الخير.. بيد أنها متفاوتة - كما وكيفاً - بين كل إنسان وآخر. ولكل إنسان حظه منها.. لكنها لا تنمحي مطلقاً في قلب أى إنسان.

وبنظرة مجملة على التاريخ الإنسانى تتجلى لنا حقيقة ناصعة واضحة الرؤية والدلالة ولا ينكرها بصر ولا تأبأها بصيرة ، وتلك الحقيقة الناصعة هى أن الإبداع والحرية دائماً متلازمان ومقترنان ومتضافران ومتوائمان ، وأن ثمة ارتباطاً مقدساً وثيقاً بينهما ، فغرسه الموهبة تنفس حرية ، وبدون الحرية فإنها تختنق وتذبل وتموت ، والموهبة عطاء الله لكل نفس ، فكيف بنا - اليوم - نرفض هدية الله أو نكبتها ونقيدها بشتى الأغلال المجتمعية وندعها فى ركام التخلف والرجعية حتى تتوارى فى غياهب الركام والغبار والظلام ، فأضحى الاهتداء إليها صعب المنال بل وصار ضرباً من المستحيل.

والخالق العظيم سبحانه وتعالى لم يمنحنا تلك الجوهرة النفيسة إلا لنحافظ عليها ونتعهد بها بالعناية والرعاية ، وأن نحو عليها ونصونها ، فهذا واجب وفرض إنسانى فضلاً عن كونه توجيهاً دينياً ، وأهم ما تقدمه لها هو أن نفيض عليها بالحرية وأن نبذل لها أقصى درجات العناية ونزودها بالمعرفة وننميها بالعلم وندفعها بالتشجيع ، حتى تفيض بالعبقريّة ، وأن تُربى النشء على تنمية الموهبة

وترقية الذات بمثل ما نربي فيهم ترويض النفس وضبط وإنكار الذات ، فليس من صالح الأمم التمسك بفضيلة إنكار الذات إلى الدرجة التي تخبت فيها المواهب وتختنق وتموت كمثل حالنا في هذا الزمان .

ومن المفيد أن نذكر قول المفكر الغربي / جون ستيوارت ميل. في كتابه الرائع : (الحرية) - ترجمة الأستاذ طه السباعي ، والذي نشرته الهيئة العامة المصرية للكتاب ضمن سلسلة مهرجان القراءة للجميع عام 1996 حول الصلة بين الإبداع والحرية ، حيث أشار في الفصل الثالث بقوله : (.. إذا كان الدين يكلفنا الاعتقاد بأن خالق الإنسان إله حكيم عاقل ، فأحرى بنا وأشكل باعتقادنا أن نوقن بأن هذا الخالق لم يمنحنا تلك المواهب والملكات لكي نهملها ونتلفها ، بل لكي نحوطها ونتعاهدها ، وبأنه - جلَّ شأنه - يسر ويبتهج كلما رأنا نقرب إلى تحقيق ما ركب في طباعنا من المثل العليا ، وكلما وجدنا نتقدم في إثماء ما غرس في فطرتنا من قوى الفهم والعمل والاستمتاع.. وأن الإنسان ما منح هذه الطباع والمواهب لمحوها واستئصالها ، بل لأغراض أسمى ومآرب أعلى ، وإذا كان إنكار الذات أحد العناصر التي يتألف منها شرف الإنسان ونبله ، فإن إثبات الذات عنصر آخر لا يقل عن الأول شأنًا ولزومًا ، وليس في المبدأ القائل بتنمية النفس وترقية الذات ما يناقض المبدأ القائل بريضة وضبط الذات ، بل هما قابلان للامتزاج والالتئام ..) ، وفي موضع آخر من ذات الفصل يقول المؤلف: (وكلنا يعلم أن العبقريّة لا تستطيع التنفس بحرية إلا في

جو من الحرية ، كما أن العبقرين هم أقوى الناس شخصية ، وبالتالي أقل الناس احتمالاً لتكييف أنفسهم وفقاً للأوضاع المألوفة والأنظمة المعتادة ، ولن يستطيع العبقرى - إلا بالضغط الشديد والتأييد المؤذى - أن ينكمش فى بعض القوالب اليسيرة التى يصوغها المجتمع إراحة لأبنائه من مؤونة تكوين أخلاقهم ، فإذا هو استسلم لإكراه المجتمع ، ورضى أن ينكمش فى بعض هذه القوالب ، وأن يعطل فى نفسه تلك الناحية التى أصبحت عاجزة عن النمو لوقوع الضغط عليها ، لم يستفد المجتمع من عبقريته شيئاً مذكوراً ..) ، كما يقول : (أن جميع الأشياء الطيبة فى هذه الحياة إن هى إلا ثمرات الإبتكار ومولدات العبقرية).

وخاتمة القول بعد كل ذلك هو أن من أوجب الواجبات على الأمم - إذا أرادت النهوض والسعى على مضمار الحضارة - أن تحتضن المواهب الدفينة فى قلوب النشء من أبنائها، وأن تتعهدوا بالحماية ، وأن توفر الحرية اللازمة لنماء تلك البادرات التى غرسها الله فى خلقه لنُسَخِّرها فى إعمار الأرض ولننشر بها الخير والسكينة كي نؤدى العبادة لله وحده لا شريك له بالتضرع اللائق وبالتبتل والخشوع اللازمين ودونما منغصات أو عوائق ، وأن لا يألوا أحد جهداً فى تغذية ينباع العبقرية بالمعرفة الحققة..وعلى الصفوة من أهل الفكر أن يتبنوا للناس تلك الفريضة التى تحبو وتغيب فى أغوار أزمان التخلف والتردى ، وتومض وتتألأ وتفيض بالخير فى رحاب الحضارات ومع كل رقى أو تقدم..فكلنا راع وكل منا مسئول عن رعيته.

الباب الثاني

”العقل هو ذرّوة سنام النفس ، المالك لزمَامِها ، وصاحب عَرَشِها ،
المُهَيِّمِـن على أرجائها ، المُسَيِّطِر على انفعالاتها وتفاعلاتها.. ومثله في
ذلك مثل سلطان في مملكته...»

- معنى العقل
- العقل في اللغة
- العقل في القرآن الكريم
- العقل في السنة النبوية
- العقل في رأى أهل العلم
- إحتفاء القرآن بالعقل
- العقل والقلم والعلم
- آلية استنهاض العقل
- النظرة الفلسفية للعقل
- موقع العقل فى الإنسان
- آفاق العقل
- شحنة العقل
- آلية عمل العقل
- ما بين العقل ونوازع النفس:
- (الفؤاد - العاطفة - الذاكرة - الوجدان)

العقل

العقل هو أشرف ما غرسه الله في بنى الإنسان..وهو الدعامة التى يعتمد عليها كل فرد فى حياته ، وهو المصباح الذى يهتدى به كل منا فى ظلام الدنيا..هو دليلنا فى مسيرتنا الدنيوية فإما أن يهديننا سبيل الخير إن كان على ألقه أو يضل بنا فى طرائق الغي والشر إذا ما طُمس نوره ، وهو الراشد لإرادتنا وهو الكايم لطيش اندفاعاتنا وهياج انفعالاتنا ، وهو الملك المتوّج على عرش مملكة النفس ، فإن أعتراه ضعف أو أصابه الوهن تهافت المملكة وتقوضت أركانها وتعثرنا فى حياتنا أفراداً أو جماعات وشعوباً وأمماً ، وإن أنزلناه من عليائه وطرحنا عنه سلطانه نجلب على أنفسنا الشر والويل.

وباستعراض أحوال الأمم فى التاريخ ، نجد أما شاعت فيها روح الحضارة والرقى والأزدهار والقوة والمنعة ، ذلك لأنهم ملّكوا العقل زمام أمورهم وصانوه بالحرية الرصينة وحصنوه من جنوح العاطفة ومن طيش الانفعالات ، وعلى الجانب الآخر نجد أما قد خاب مسعاها ، وأعترها الضعف والوهن ، وتملّك منها الجهل والفقر والمرض ، وذوقت مرارة الحزى والذلة والعار حينما ضعف العقل منها ووَهِن سلطانه.

ولم يخلق الله بنى الإنسان سُدىً أو عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدونه وحده لا شريك له ، وفَرَضَ عليهم استعمار الأرض ، وزوَّدهم فى فطرتهم بالحواس والجوارح والمدارك (وأههما العقل) لإستخدامها فى إعمار الأرض وفى إصلاحها وفى درء المفساد عنها، وبَنَى الإنسان فى حاجة إلى السلام والراحة والسكينة حتى يتمكنوا من عبادة الله سبحانه وتعالى بقلب سليم وذهن صافٍ وبأفئدة ساكنة ووجدان زاهر بالسلام ، ولن يتحقق لهم هذا المناخ المناسب للعبادة الخالصة ما لم يعمّروا الأرض - كما أراد الله - بالرقى العمرانى والثقافى والفنى ، وبالسلام والاستقرار والأمن الإجتماعى ، والنهوض الحضارى فى كافة شئون الحياة.

قال تعالى :

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ 56 الذاريات
- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ 115 المؤمنون
- ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ 61 هود.

فعبادة الله وحده لا شريك له واستعمار الأرض..هما محور الأعمال وعمادُ الحياة الدنيا وغاية الوجود الإنسانى فى عالم الشهادة لذلك، فالحضارة ليست هدفاً فى ذاتها ، وإنما الأمان والسكينة والراحة والسعادة التى تفيض بها الحضارة هى الهدف المنشود ، وإن لم تحرص الأمم التى تنشُد التقدم والرقى على

بلوغ هذا الهدف النبيل ، فلا يتنامى تقدُّمها التقنى والعلمى إلى مستوى الحضارة ، ولا يُكتب له الاستمرار ، بل ويكون عبئاً ثقيلاً على كاهل الجميع لافتقاده ، لأهم عناصر الاستمرار، ألا وهى السعادة المنشودة ، ولهذا فإن علماء التاريخ وأهل الفكر لم يتفقوا على تحديد تعريف ثابت لمعنى الحضارة ، وإن استقروا على تعريفات لا تغفل مدى ما تحقّقه من السعادة والسلام والأمن إلى جانب الرقى والتقدم.

ولا شك أن العقل هو من أهم أدوات استعمار الأرض ، وهو من أهم الغرائس المنوط بها دفع الأسرة الإنسانية نحو الرقى والتقدم وصنع الحضارة ، وليس بمستطاعه - باعتباره أداة الحضارة الأولى - أن يقدر على تبعات تلك الغاية التى أرادها الله ما لم يتم الحفاظ على ألقه وما لم يتم الدوام على صيانته وإعداده الإعداد الأنسب لهذه المهمة الإنسانية العظمى.

لكن..وقبل أن نتطرق إلى مهمة العقل فى الحياة الإنسانية وإلى دوره فى بناء الحضارة فمن اللازم أن نلقى ببعض الضوء على هذه الغرسة الكريمة لنتعرف عليها ابتداءً..والسؤال الذى نستهل به رحلتنا هذه هو : ما العقل.؟، وللإجابة عن معنى العقل سوف نتطرق إلى المعنى اللغوى للفظ "عَقْل" ثم نبحث عن معناه فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة ، وفى نظر بعض أهل العلم والفكر.

مَعْنَى الْعَقْلِ فِي اللُّغَةِ

جاء معنى العقل في مختار الصحاح بمعنى الحجر والنهى ..والعقيلة : كريمة الحى وكريمة الإبل ، وعقيلة كل شىء أكرمه ، وعَقَلَ البعير من باب ضرب ، أى ثنى وظيفه مع ذراعه فشدهما فى وسط الذراع . وذلك الحبل هو العقل ، وعاقله فعقله من باب نصر أى غلبه بالعقل ، واعتقل رحمه إذا وضعه بين ساقه وركابه ، وأعتقل الرجل أى حُبس - «والمكان الممتنع فيه يسمى المعقل ومنه جاء لفظ المعتقل وهو المكان المحكم المعد للحبس -» وأعتقل لسانه إذا لم يقدر على الكلام..وتعقل : أى تكلف العقل..وتعاقل : أرى من نفسه ذلك وليس بها ، وسمى العقل عقلا لكونه يمنع صاحبه عن التورط فى المهالك ويحبسه عن ذميم الفعل وفحش القول.

وورد معنى العقل فى المصباح المنير بمثل ما جاء به مختار الصحاح - على نحو ما - ولكنه أضاف : وعقلت الشىء عقلاً من باب ضرب أيضاً بمعنى تدبرت ، وعقل يعقل من باب تعب لغة ، ثم أطلق العقل الذى هو مصدر على الحجا واللب ، ولهذا قال بعض الناس العقل الحجر والنهى، فالرجل عاقل والجمع عُقال ...وربما قيل عُقلاء .

وفى المعجم الوجيز جاء : «عقل عقلاً : أدرك الأشياء على حقيقتها ، وعقل الغلام : مَيِّز..وعاقلة الرجل : عصبته وهم القرابة من جهة الأب الذين يشتركون فى دفع ديتة .»

أضاف لسان العرب : أن العقل : الحجر والنهى ضد الحمق ، والجمع عقول..ورجل عاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير..وقيل العاقل : الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها..والمعقول : ما تعقله بقلبك ، والمعقول : العقل..وسمى العقل عقلاً لأنه الحجر والنهى، أى يحبسه ، وقيل العقل هو التمييز الذى يتميز به الإنسان من سائر الحيوان..وعقل الشيء يعقله عقلاً : فهمه..ويقال وغل عاقل اذا تحصن بوزره عن الصياد.

العقل فى القرآن الكريم

لم يرد لفظ العقل فى القرآن الكريم على نحو هذا البناء اللفظى (عقل) ، وإنما وردت مشتقاته تسع وأربعين مرة ومنها:

عَقَلُوهُ : جاءت مرة واحدة فى الآية الخامسة والسبعين من سورة البقرة :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة.

• تَعَقَّلُونَ : وردت أربع وعشرون مرة ..منها :

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة ٢٤٢.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران ١١٨.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف ٢.

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ القصص ٦٠.

• نَعْقِل : جاءت مرة واحدة من سورة الملك .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ الملوك 10.

• يَعْقِلُهَا : ورد ذكرها مرة واحدة في الآية الثالثة والأربعون من سورة

العنكبوت.

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظَرِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت 43.

• يَعْقِل : ورد ذكرها اثنتين وعشرون مرة .. منها :-

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ

﴿ المائدة 58.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الأنفال 22.

﴿ أَفَأَمَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج 64.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ضُمُّ بُكْمٍ

عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة 171.

• وجاء ذكر العقل بمعنى (اللب) في ست عشرة موضع من آياته

الشريفة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ 269

البقرة.. وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ 111

يوسف ، كما جاء ذكر العقل بمعنى (النهى) فى قوله تعالى من سورة طه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ الآيتان 54 & 128 ، وبمعنى (الحِجْر) فى قوله تعالى من سورة الفجر ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ الحِجْر آية 5.

العقل فى السنة النبوية

• ورد ذكر العقل فى كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، تُعلَى من شأنه وتُجلى فضله على الإنسان الفرد وعلى المجتمع وعلى الإنسانية جميعها ..منها :-

قال (صلى الله عليه وسلم) : « يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْقُلُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالْعَقْلِ ، تعرفوا ما أُمِرْتُمْ به وما نُهيْتُمْ عنه ، واعلمُوا أنه ينجِدْكُمْ عند ربكم ، واعلمُوا أن العاقل مَنْ أطاع الله وإن كان دميم حَقِير الحَظَر دنىء المنزلة رَثَ الهِيئة ، وأن الجاهل مَنْ عصَى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الحَظَر شَرِيف المنزلة حَسَن الهِيئة فَصِيحاً نَطُوقاً ، فالقِرْدَةُ والحَنَازِيرُ أَعْقَلُ عند الله تعالى مِمَّنْ عَصَاه ، ولا تَغْتَرَّ بتعظيم أهل الدُّنْيَا إِيَّاهُمْ ، فإنهم مِنَ الْخَاسِرِينَ . » أخرجه داود بن المجبر أحد الضعفاء فى كتاب العقل من حديث أبى هريرة ، وهو فى مسند الحارث بن أسامة عن داود.

وقال (صلى الله عليه وسلم) : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ ، فقال لَهُ أَقْبِلْ

فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال الله عز وجل وعزّي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم على منك ، بك أأخذ وبك أؤتي وبك أعاقب.. أخرج الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامه - وأبو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى الهدى ويُرده عن ردى وما تم إيمان عبده ولا استقام دينه حتى يكمل عقله . » أخرج ابن المجبر في العقل.

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « لكل شيء دعامه ودعامه المؤمن عقله ، فيقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الكفار في النار: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) ﴾..سورة الملك. »

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « لكل شيء آلة وعدة ، وإن آلة المؤمن العقل ، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ، ولكل شيء دعامه ودعامه الدين العقل ، ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ، ولكل قوم داع وداعى العابد العقل ، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ، ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرء عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذى ينسبون إليه ويذكرون به العقل ، ولكل

سفر فسطاط وفسطاط المؤمن العقل».. أخرجه ابن المجبر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس باسناد آخر ضعيف.

وباستعراض ما أوردته المعاجم اللغوية عن معنى العقل ، وما ذُكر عنه في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة نستطيع أن نرسم صورة مقربة لتلك الغرسة النورانية الكريمة ، ونرى من هذه الصورة وفيها صفات العقل وآثاره وفضائله :-

- فالعقل، هو تلك الومضة النورانية التي غرسها الله في الفطرة الإنسانية ليميز بها كل إنسان عن سائر الخلق في الدنيا.
- والعقل، مثله مثل المرآة ينعكس عليه صور مطابقة لواقع الحياة ، ويعين النفس على الوعي بها وإدراكها والتعامل معها.
- والعقل، هو المنوط به تدبر الأمور والأشياء والأحوال ، وكل ما يقع تحت طائلة الإدراك.
- والعقل، هو تلك الأداة التي نعقل بها جنوح أفكارنا حينما يتكشف لنا أنها قد تودى بنا إلى المهالك ، ومثله في ذلك مثل كبّاحة السيارة (الفرامل) التي نلجأ إلى استخدامها لتتدارك حادث نوشك أن نوقعه.
- وبالعقل نلجم جنوحنا العاطفي ونزد به هوى أنفسنا ونحكم به طيش سلوكنا ونضبط به هياج انفعالاتنا.
- والعقل يحافظ على صفو فطرتنا ، ويحلّيها من غبار الدنيا ومن شرور

أعمالنا.

- وبالعقل نعقل أطياف الأفكار كلما طافت بخيالنا أو حامت بذهننا.
- والعقل، هو الأداة التي يقيس بها الإنسان حقيقة كل ما يدركه من واقع الحياة الدنيوية.
- العقل هو مصباح النور الذي يقشع الظلام ، هو الأداة الإنسانية المشعة بنور الهداية «فكرا وتبصرا ومنطقا واستدلالات»، فتستبين لنا أمور الحياة وتتجلى لنا حقائق الدنيا ،..بينما من يفتقر إلى هذا النور فكأنما يحيا في ظلام حالك ، ومثله في ذلك كسيارة بلا مصابيح تشق طريقاً في ظلمة الليل ، فتتخبط وتضل وتتيه.
- والعقل هو مالك زمام النفس والمهيمن على أرجائها وعلى انفعالاتها وردود أفعالها ، ومثله في ذلك مثل السلطان في مملكته .
- وبالإجمال ، فالعقل هو الأداة التي يخطط به كل إنسان مسيرته على صفحة الحياة الدنيا.

حقيقة العقل عند أهل العلم

حيث أن المقام هنا لا يتسع لسرد كثير من آراء العلماء وأهل الفكر عن العقل فقد رأيت ان أتطرق لرأى واحد من أهم وأبرز العلماء والمفكرين على مدار التاريخ الإسلامى ألا وهو فضيلة العالم الإمام / أبو حامد الغزالي ، حيث

أفرد في كتاب العلم من الجزء الأول من سفره الخالد : (إحياء علوم الدين) للحديث باستفاضة عن العقل وفضله ، وقد ذكر فيه: «.. أن العقل إسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان... فالأول : الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم ، وهو الذى أستعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية.. وأنه غريزة يتهياً بها إدراك العلوم النظرية ، وكأنه نور يُقذف في القلب يستعد لإدراك الأشياء.. وهو كالمراة التى تفارق غيرها من الأجسام فى حكاية الصور والألوان بصفة أختصت بها وهى الصقالة - والثانى : هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، كالعلم بأن الأثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد - والثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال ، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال أنه عاقل فى العادة - والرابع : أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها».

ونكتفى بهذا القدر ما ذكره العالم والمفكر الإسلامى الجليل / أبو حامد الغزالى (رَحِمَهُ الله) عن معنى وفضل العقل ، وننتقل إلى نقطة أخرى فى سبيل التعريف بالعقل وإبراز أهميته القصوى فى إصلاح حال الفرد والأمة على سواءٍ ألا وهى: احتفاء القرآن الكريم به على قدر مدى أهميته للإنسانية جمعاء.

إحتفاء القرآن الكريم بالعقل

ليس أدلّ على احتفاء القرآن الكريم بالعقل من أن تذكره افتتاحيته التنزيلية الأولى على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولقد جاء ذكره بالتصريح دون الإيحاء أو التلميح ، فالعقل أسمى وأكرم خلق الله عز وجل وأجدى بالاحتفاء القرآنى المنزل على أكرم وأشرف الخلق جميعاً (صلى الله عليه وسلم) ، ذلك لأن العقل هو الأداة التى نخط بها مسيرتنا على صفحة الوجود ، سواء كنا فرادى أو جماعات ، ولأن كل فعل نريد أن نجترحه فى عالمنا لن يُكتب له الوجود ولن يترك أثره الدنيوى إلا بُدّاد العقل الذى هو صاحب السلطان المهيمن على سائر النفس ، هذا، فضلاً عن أن العقل هو مناط التكليف وأداة الإنسان الأولى ومعوله الأثير لاستعمار الأرض ، وهو الذى ينير له الطريق ويهديه سواء السبيل بالتّوجّه نحو الخالق سبحانه وتعالى.. فمن الإنصاف أن تكون له تلك الإشارة الصريحة فى الرسالة الإفتتاحية الأولى لتنزيل دستور ومنهاج الفطرة «القرآن الكريم» وبلفظ إعجازى مبين ، وبمُسَمّى (الْقَلَم) ، فأول ما تنزّل من الآيات الكريمة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أشارت إلى العقل إشارة لطيفة قد تبدو من النظرة الأولى أنها مجازية ضمنية إلا أننا ندركها واضحة صريحة بشيء من التدبر خاصة فى لحظات الصفاء الفطرى والجلاء النفسى.

ولنبداً فى تقصى هذا الاحتفاء الخاص من حيث بدأ نزول القرآن الكريم

بأول آيات تنزلت صحبة الملك الأمين جبريل عليه السلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غار حراء بمكة المكرمة ، وذلك في قوله تعالى من سورة العلق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾ سورة العلق.

والآيات الشريفة فيها أمور ثلاث بينها رباط وثيق وصلة حميمة ، نريد أن نتوقف عندها وقفات ممعنة علنا نهتدى إلى ما في باطنها من معان جلية.. والأمر الأول الذى يتصدر المشهد هو القراءة في لفظ : (اقْرَأْ) - والأمر الثانى هو التعليم في لفظ : (عَلَّمَ) - والأمر الثالث هو الأداة التى يستعان بها فى التعليم، فى لفظ : (الْقَلَمُ) سنقف عند كل منها وقفة ممعنة وسنجد العقل يعلن عن نفسه فى كل لحظة.

فكلمة: ﴿ اقْرَأْ ﴾..هى أول شعاع من النور الذى أنزله الله هدى ورحمة للعالمين لينير للإنسانية طريقها فى ظلمات الدنيا.. ألا يجب أن تثير فضولنا؟! خاصة وأنها أول ما نزل من توجيهات دين الفطرة على رسول الفطرة النبى الأُمى (صلى الله عليه وسلم).. فالمثير للدهش وللفضول معا أن الكلمة فى جوهرها دعوة للقراءة وأنه (صلى الله عليه وسلم) وهو النبى الأُمى الذى لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يتعلمهما من قبل ، فإلى ما يقرأ؟!... وكيف له من سبيل للقراءة؟!.. ألم يتنزل الملك الأمين بالقرآن الكريم إلا بأمر الله السميع العليم ، الذى اصطفى نبيه الأُمى (صلى الله عليه وسلم) للرسالة الخاتمة ؟ ، فما هو السر

فى أن تتنزل أول كلمة لتحمل أمرا بالقراءة على النبى الذى لم يتعلم الكتابة ولا يعرف أن يقرأ ما هو مكتوب؟! ،.. فهل القراءة مقصورة فقط على ما هو مَدَوَّنٌ بالكتابة؟! أم أن للقراءة معنى أوسع من مجرد إمكانية الاطلاع على ما هو مَدَوَّنٌ أو مكتوب؟. هذا تساؤل جدير بأن نتناوله بقدر من الإمعان والتدبر.

الحق أنه منذ نزلت الآية الشريفة على النبى الأمى (صلى الله عليه وسلم) وحتى يومنا هذا لم تثر فينا الفضول بالقدر الذى تحمله من نفائس ، واكتفينا بأن نمر عليها، على عجل، دون أن نتوقف عندها مَلِيًّا ودون أن ننقب عن منجمها النفيس.. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ آية 24 سورة محمد.. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ آية 82 سورة النساء.. ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آية 29 سورة ص.. وفى مواضع عديدة من القرآن الكريم ورد مثل هذا التوجيه بإعمال العقل لفهم وتدبر كلام الله المنزل.

وكما تشير الآيات، فالأمر بتدبر القرآن الكريم هو أمر لكافة المؤمنين ، إلا أن الأخذ بظواهر الآيات - لا باطنها - ما زال هو الأغلب فى التفسير القرآنى حتى يومنا هذا ، وتلك كانت ملاحظة عابرة.. ونعود لحديثنا عن العقل، فإن أول ومضة من النور الذى تنزل على النبى الأمى (صلى الله عليه وسلم) كانت كلمة : ﴿إِقرأ﴾ ومادتها الهجائية (ق - ر - أ) ويشق منها : يقرأ - قراءة - قارئ - مقروء ... إلخ ، وتلك الاشتقاقات جاءت وفق ترتيب الأحرف الهجائية المكون منها أصل الكلمة ، وبين هذه الإشتقاقات صلة وثيقة ، هى أقرب إلى صلة الرحم التى

نعرفها بين الناس .

إلا أنه يوجد ثمة اشتقاق آخر أشار إليه (ابن جنى) فى مؤلفه الضخم (الخصائص) - وهو واحد من أهم كتب التراث الذى بحث فيه خصائص وسمات وفلسفة اللغة العربية وعبقريتها ، فقد أشار هذا العالم الفذ إلى إمكان اشتقاق كبير لأصل أى كلمة دون التقيّد بترتيب حروف أصل الكلمة ومع تبديل مواضع أحرفها ، فإذا ما غيرنا مواضع الأحرف التى تشكل المادة اللغوية لكلمة (إقرأ) وهى (القاف والراء والألف) سنجد أنه يشتق منها: (أرق - أقرّ - راق) وهى اشتقاقات أشبه بعلاقة النسب بين الناس ، وبإمعان النظر بين الكلمات الثلاث سنجد أن مشوار العلم كله مكون من معانى هذه الكلمات ، فأوله (أرق) يصيب العالم ويلازم كده وكبده ودأبه فى سبيل العلم ، وثانيه أن (يقرّ) العالم بنتائج علمه (ويقرّ) العلم فى الصدور ، وثالثه أن (يروق) العالم بنتائج علمه وبنجاحه فى الحصول على ثمرة من ثماره النفيسة ، وأن اجتهاده وكده فى هذا المضمار قد أضفى به إلى فوز ثمين ، فمشوار العلم (أرق) متواصل أثناء البحث عن الدلائل والبراهين والنتائج المتتابعة ، فإذا ما وصل العالم إلى الخبيئة التى يبحث عنها من كنوز العلم فإنه (يقر) بها (يروق) لها نفسه ، والخلاصة من ذلك أنه توجد ثمة صلة بين القراءة وبين العلم.. وإن كان الأمر فيه شىء من الطرافة إلا أنه لا يخلو من الحقيقة ، فالقراءة تزيد من المعرفة ، والمعرفة تشكل قاعدة الفكر ، والفكر رُوح العلم..«وسياق الحديث لاحقا عن أثر المعرفة فى التحصيل العلمى وفى كشف الحقيقة فى موضعه من

هذا الباب ».

وفي الآية الرابعة ورد ذكر الصلة بين القلم والعلم في قوله تعالى : ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.. وفيها أمران مقترنان ومتلازمان ؛ الأول هو لفظ : (علّم) والثاني في كلمة : (بالقلم) بمعنى أن الوسيلة الأساسية للعلم - وربما الوحيدة هي القلم. ولتكن بدايتنا عن (القلم).. والسؤال الذي يبادرنا أولاً هو: ما المقصود بالقلم هنا؟، وهل هو القلم الذي نكتب به؟، أم أن للفظ أبعاداً أخرى أو معانٍ أعمق من ذلك؟، ثم ما هي الكيفية التي ينبغي للقلم أن يقوم بها لكي يُعلّمنا ، أو يتفضل علينا بالعلم؟!.. فالقلم وحده وبمفرده لا يستطيع أن يعلم أو يفعل شيئاً فما هو إلا أداة ساكنة جامدة.. لا روح فيها ، ولا حركة ، ولا وعياً.. ولا إرادة لها. الحق أن استحضار صورة القلم الذي وظيفته الكتابة - وحدها - أثناء بحثنا عن مدلول اللفظ ومعناه ، لا يكفي لاستجلاء المعنى المقصود أو المعاني التي تفيض بها الآية الشريفة ، وإنما يجب أن نميط اللثام أولاً عن المعنى اللغوي للفظ ، كما يجب أن نتعرف على حقيقة القلم وقصته مع الإنسان منذ بدأ استخدامه وحتى يومنا هذا ، وأن نبحت كذلك عن لفظ القلم ومرات وروده في القرآن الكريم ، وهل جاءت جميعها بمعنى الأداة المعنية بالكتابة ، كما يستلزم الأمر استجلاء الصلة الحقيقية بين القلم والعقل والعلم.

ولنبداً بالبحث عن المعنى المقصود للفظ في الآية الشريفة بتقصي قصة القلم الذي هو (أداة للكتابة) عبر التاريخ الإنساني ومنذ وُجد الإنسان على ظهر هذه الأرض.. فأول قلم استعمله الإنسان لم يكن إلا قطعة مسننه من الحجر

الصلد يحفر بها على الجدران أو على الأحجار الكبيرة كل ما يريد أن يظهره عليها من رسم أو خط ، ثم ما لبث أن تحوّل ذلك القلم الحجري بعد قرون عديدة إلى قضيب معدني مُدبب (أزميل) يؤدى نفس الغرض ، ثم تحول هذا القلم المعدني إلى ريشة طائر تغمس في مِدادٍ قائم ويُدَوّن بها على رقعة من الجلد أو ما شابه ، وفي مرحلة تالية تحول القلم الريشي هذا إلى قطعة من الخشب أو البوص مسننة أو مدببة، أى (مُقْلَمَة) من أحد طرفيها ، إلى أن صار القلم بالشكل الذى ندركه فى عالمنا الحاضر ، إنه أداة..كل ما يميزها أنها مدببة أو مسننة أو مقْلَمَة من أحد طرفيها ، وقبل ذلك لا يمكن أن نسميها قلمًا ، فالذى صيّرَها قلمًا هو كونها مدببة أو مُقْلَمَة من أحد طرفيها ، وهذا الطرف المدبب هو الذى يُحدث الأثر الذى يبقى مع الوقت كخطوط أو رسمٍ أو كتابة ، إلا أن القلم قد تحوّل أخيراً مع التقدم العلمى والتقنى الرهيب والمتسارع فى هذا الزمن حتى صار مجرد زر صغير فى لوحة مفاتيح الحاسب الآلى ، أو قطعة معدنية فى لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة ، والأغرب من ذلك فقد بدأ يتحول القلم من أداة مادية إلى مجرد صوت ، فيمكنك الآن أن تكتب ما تشاء من صفحات وتدوينات دون استخدام تلك الأداة المدببة المعروفة بالقلم، وما عليك إلا تسخير صوتك على جهاز الكمبيوتر ، أن تحدّثه فيكتب ويدَوّن على شاشته ما تريده دون الاستعانة بالقلم المدبب..فأى من هذه الأقلام تعنيه الآية الشريفة!؟.

ثم أن القلم - كأداة - سواء كان أداة مسننة أو مدببة أو غيره ، ليست صالحة للتعليم بمفردها ، فلو جلست أمام القلم وطلبت منه أن يُعلمك فلن يُجيبك

مادام أنتظارك وما دام تَوَسَّلَكَ!!، فلا إرادة له ، ولا وعي لديه ، ولا فهم ولا إدراك! ، كل ما يمكن للقلم عمله هو أن نستخدمه كوسيلة لأن تترك أثرا أو علامة على مُسَطَّح مُعَد لذلك ، سواء كان هذا المسطح حائط أو معدن أو جلد أو ورق.. إلخ ، لذا فقد أصبح القلم هو الوسيلة الفعالة لتدوين ما تجود به القريحة الإنسانية وما ينتجه الفكر الإنسانى ، مجرد وسيلة - ليس إلا - وإنما الفاعل فى التدوين هو الإنسان ذاته ، أو على سبيل الدقة (العقل الإنسانى) ، هذا هو الفضل الأعظم للقلم دون شك ، لكن ما هو دور القلم فى التعليم ، وهل نعتبر القلم وحده هو المعلم الأول والوحيد للبشرية بالرغم من أنه ليس إلا أداة مادية بلا روح.

المؤكد أن التعليم ليس وظيفة القلم وحيداً ومنفرداً ، والمؤكد أيضاً أن التعليم فى معظمه أحواله يتم بالأسلوب الشفهي المدعوم ببعض الوسائل التعليمية الأخرى ومن بينها القلم ، والمؤكد كذلك هو أن دور القلم فى العملية التعليمية هو دور ثانوى ويبدو هامشياً ، فالمعلم يُلَقِّن العلم لطلابه فى معظم الأحوال دون استخدام القلم ، وذلك على هيئة ما يدور بينه وبينهم من شروح ومناقشات وأسئلة وإجابات واستفسارات، ومعظمها يكون شفاهياً ، ولا يلجأ المعلم إلى الكتابة على السبورة لمزيد الشرح إلا يسيراً ، وقد يقوم الطالب بتدوين بعض النقاط أو الملاحظات بصفة تنسيقية ذاتية لكنها هى الأخرى هامشية ولا يلجأ لها الجميع فى كل الأحوال، وإنما يأتى دور القلم فى بعض وقت الاستدكار ، وفى الاختبارات التحريرية فقط ، عدا الاختبارات العملية والشفاهية.. هذا هو دور

القلم فى التعليم وهو ليس دوراً أساسياً بل هامشياً ، أما الدور الأعظم للقلم سواء فى العلم أو فى الثقافة العامة فهو تدوين ما تجود به القريحة الإنسانية على هيئة كتب ومراجع ومجلدات.. إلخ ، وعلى طالب العلم أو طالب المعرفة اللجوء إليها إذا أراد ، وقد يلجأ الطالب إلى الاستدكار مستعيناً بالقلم - أحياناً - ليثبت بهذه الوسيلة ما علمه من معلمه أو أن يقوم ببعض التدريبات فى بعض المواد الدراسية كمادة الرياضيات على سبيل المثال.. هذه واحدة.. فأما الثانية : فالقلم عندما نستخدمه فلا نقول له أكتب فيكتب من تلقائه!! فإنه لا يدون شيئاً من ذاته وبمفرده ، فهو فى حاجة إلى يد وأنامل تمسك به وتحركه ، واليد التى تحركه قد زودها الله بجهاز عضلى وجهاز عظمى لا يتحركان إلا بأمر تحمله الخلايا العصبية المتصلة بأحبال دقيقة تأتى بالتوجيه من المخ بناء على أوامر العقل ، فالحرك الأول لكتابة ما نريده هو الدماغ (الذهن) وبدقة أكثر هو: (العقل) ، وبدون العقل لا يمكن للقلم أن يفعل شيئاً ، فالأمر يرجع فى النهاية إلى عقل الإنسان ، وما بعد العقل من أدوات، سواء اليد أو العضلات أو الأعصاب أو الأنامل أو القلم فليست إلا مجرد آلات تستجيب لأمر العقل ، وأيضاً، فإن ما يحدث بين الناس من مخاطب ونقاش وتفاهم وتعليم وتعلم... وكافة أفعال الإنسان مرجعها الأول ومحركها، بدءاً، هو العقل.

العقل إذن، هو أداة التعليم الأثيرة وليس القلم ، ففي غيبة القلم يمكن نقل العلم بين كل معلم ومتعلم ، أما فى غيبة العقل فلا علم ولا تعليم ولا تعلم ، وها هو القلم يأذن بالاختفاء من الحياة العامة لانتشار البديل الأجدى (الكمبيوتر

الشخصي) ، وما القلم إلا مجرد وسيلة من وسائل العقل يستعين بها كيفما شاء وأنى شاء...وما نريد بيانه أن المعنى المقصود من لفظ القلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ليس هو قلم الكتابة..بل هو شيء آخر غيره!! ولمزيد من الإيضاح ننتقل إلى العلاقة بين العقل والقلم والعلم .

ما بين العقل والقلم والعلم

فأما الأمر الثانى الذى ورد فى الآية الشريفة فهو عن التعليم..فى لفظ : (عَلَّمَ)..والتعليم هو عملية تنظيمية ثلاثية الأبعاد (معلم / ومادة علمية / ومتعلم) ، "المعلم " حافظ للعلم ومكلف بتوصيله للمتلقى - " ومادة علمية " تحصل عليها المعلم سابقا ومخزنة ومحفوظة فى عقله - " والمتعلم " هو طالب العلم الشغوف به ، وفى حاجة إليه.. ، وسريان المادة التعليمية من المعلم للمتلقى لا تقتصر على نظم أجهزة التعليم الرسمية وغير الرسمية الذى تنظمها المجتمعات ، بل هو أوسع من ذلك بكثير ، فالمهن والحرف يتم تعليمها فى غير هذا الإطار ، وهى أنشطة واسعة المجال فى أى مجتمع ، وجميع ما يتم من طرق تعليم المهن والحرف يكون تدريبيا وشفاهيا فى الأغلب ، ودوننا أدنى معرفة بالقراءة والكتابة ، ودون الاستعانة بالقلم..وهنا تجدر الإشارة إلى هؤلاء الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ويشغلون فى مجال السياحة فى ربوع الأهرامات والمعابد المصرية القديمة ، ويتحدثون عدة لغات أجنبية ، تعلموها شفاهة وبدون قلم ، وذلك

الصبي الأمي الذي يتعلم أى مهنة (ميكانيكا - كهرباء - نقاشة - بناء ...) فانه يتلقاها من معلمه شفاهة دون قلم ودون أن يقرأ عنها شيئاً في الكتب لأنه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ورغم هذا يتعلم مهنته ويجيدها أيما إجادة، ومع الوقت تزداد خبرته وتنمو قدراته ، ثم يقوم بعد ذلك بدور المُعَلِّم وينقل علمه لآخرين دون قلم ودون معرفة بالقراءة والكتابة ، فالحقيقة المؤكدة هي أن القلم ليس الأداة الوحيدة للتعلّم ، حتى في التعليم المنظم فهو في معظمه يتم مشافهة..بيد أن مدارك الإنسان جميعها شريكه في تحصيل العلوم والمعارف ، أو توصيلها من طرف إلى آخر تحت قيادة عقل رشيد مُقَلَّم .

والقرآن الكريم أعطانا نموذجاً لكيفية التعلم والاهتداء للحقيقة دونما استخدام القلم ، حينما قرأ سيدنا إبراهيم (عليه السلام) صفحة السماء وأسطر الكون ، ليهتدى إلى خالق هذا الكون سبحانه وتعالى .

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنْبِئَنَّ رَبِّي أَنَّهُ أَكْبَرُ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآيات من 75 : 79 سورة الأنعام.

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام تعلم بالعقل الذى فطره الله فى النفس الإنسانية ، وقرأ صفحة الكون وأسطر الطبيعة - معاينة - ليهتدى إلى خالقه بالعقل وحده وليس بالقلم الذى نعرفه .

والسؤال الذى مازال يلح هنا..إذا كان التعليم لا يتم بالقلم الذى وظيفته الكتابة - كما ذكرنا - فى الوقت الذى قرنت فيه الآية الشريفة بين اللفظين (القلم والعلم) فى قوله تعالى : ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فما هو المعنى المقصود بالقلم فى الآية الكريمة من سورة العلق ؟...وللأجابة : نعود إلى العملية التعليمية ، وكما قلنا إنها من حيث الظاهر ثلاثية الأبعاد ” معلم / ومتعلم / ومادة علمية ” ، ولأن اقتضت على هذه الأبعاد الثلاثة ، إلا أنها تصبح غير مكتملة لفقدائها أهم أركان العملية التعليمية..ألا وهو : توجيه الإرادة للعلم والحرص عليه ، فلن يتم التعليم على الوجه الصحيح ما لم يتهياً عقل الطرفين للعملية التعليمية ، فكيف يتلقى العلم من جُنّ عقله أو من هو كاره للعلم، ومن ليست له رغبة فيه؟! ، وكيف يتلقاه صاحب ذهن شارد غارق فى أحوال الدنيا وأمورها واصطراعاها خالى الطرف من التوجه إلى العلم..كيف ينقل العلم أو يتلقاه أى من هذين الشاردين؟!..فن بالغ الأهمية أن لا تتاح فرصة التواجد بقاعات التدريس إلا لمن يجب أن يكون طالبا للعلم ، أى تكون له رغبة أكيدة فى تحصيله واشتياق بالغ للاستزادة منه ، أما أن يساق إليها عنوة فتلك خطيئة كبرى ، ولهذا سمي متلقى العلم (طالباً) ، وأما بشأن تعليم الصغار فلا يتأتى إلا بأن نغرس فيهم

الرغبة والتشويق فيقبلوا عليه بإرادة خالصة وبكل الشوق والشغف ، وبالمثل يجب أن يكون مانح العلم سخيًا في جهده ، كريما في عطائه ، مؤمنا برسالته ، مثابرا عليها ، باذلا في شأنها كل ما في وسعه ، ولن يستطيع ذلك ما لم تكن له الرغبة الأكيدة في غرس العلم في أذهان طلابه ، وما لم تكن له بهم رعاية كراعية الأب لأبنائه ، مع التهلل والافتخار بنتائج جهده وعطائه ومثابرته كلما جاءت ثمرات غرسه على الوجه المأمول.

فأما عن طالب العلم فإننا نتذكر حينما كنا نتلقى دروسنا صغارا وكان بيننا دائما أحد هؤلاء شاردى الذهن الغارقين في دوّامات الحياة ، وإذا ما فاجأه المعلم بالسؤال عن الموضوع الذى يتحدث فيه يرتبك ويتلثم دون إجابة..ويكتشف الجميع أن عقله كان مشتتا في وادٍ أو أودية أخرى! ، وقد استحوذته أمور شتى وأوقعته في شباكها ، وأنه كان غائبا بكل مشاعره وبكل وعيه عن القاعة وعن موضوع الدرس وربما عن المدرسة بأسرها..رغم اجتهاد المعلم وحرصه في عمله ، الأمر الذى يضطره إلى زجر صاحبنا الغافل هذا أو معاقبته بعقوبة مؤلمة يُقلّله من تلکم الدوامة وتجمع له شتات ذهنه وتُنْفِض عنه شوارده..فالمؤكد أنّ من كان هذا شأنه فليس له الرغبة الأكيدة في تحصيل العلم ، وأنه بذلك ليس بطالب علم ، والمؤكد أيضا أن التعليم يتطلب - بالإضافة للأبعاد التى ذكرناها - ذهنًا صافيا غير مشتت وفي حالة شُحذ وتوقّد ، وبمعنى أوضح أن يكون العقل خالصا من أى شوارد فكرية قد تكون عالقة به ، وأن يكون كما الصفحة البيضاء ، ومهيئا تماما لتلقى الدرس واستقبال العلم .

فالعقل - إذن - لا يتهيأ للعلم ما لم تُزال عنه أية أفكار أخرى مهما قل شأنها ، أى يكون (مُقَلَّمًا) من هذه الأفكار الدخيلة ، والحقيقة التى لا مرأى فيها هى أن الطلاب يتفاوتون من حيث التفوق على قدر تركيزهم الذهنى وقت تلقى العلم ، وعلى مدى قدرتهم فى تهيئة عقولهم لتحقيق العلم.. وذكاء الطالب أو غباؤه يقاس دائماً بمدى قدرته على التركيز الذهنى والإنصات التام وقت تلقى دروسه العلمية.. وهذا لا يتأتى - مطلقاً - ما لم يكن عقله فى أوج نشاطه وخالٍ تماماً من أى شواغل أخرى غير التعلم.. أى يكون عقله (مُقَلَّمًا) من الشواغل وحاداً فى درجة التركيز.

وتقليم العقل هنا له معنيان، الأول : أن يتهيأ بالتوجه الخالص لتلقى العلم بمثل ما نقوم القلم لنعده للكتابة ، والثانى أن تُنتزع منه أى عوالق قد تشغله وتفقد التركيز المطلوب وقت تلقى العلم.. ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا بأن تأثير المُعلم فى عقل الطالب كتأثير القلم على صفحة بيضاء وأى شواغل قد تكون عالقة بذهن الطالب فمثلها كمثل الشخبة التى تملأ الصفحة البيضاء فلا تصلح للكتابة.

العملية التعليمية هى إذن أشبه بعملية التدوين التى نقوم بها مستخدمين القلم على الورق ، ذلك أول ما تفيض به الآية علينا من إلهامات.. وهنا ننقل إلى نقطة أخرى بالغة الأهمية ، وهى: ما السبيل لتنقية العقل من الشوارد التى تشغله عن تلقى العلم وتُضعف من قدرته على التحصيل العلمى؟ ذلك ما سنتطرق له تحت مسمى آلية استنهاض العقل ، وبمعنى آخر: (تقليم العقل).

آلية استنهاض العقل

عند تداولى لموضوع شَخَذَ العقول واستنهاضا ، رأيت أن أتناوله من زاوية التعليم ، قاصداً من ذلك إبراز الكيفية التى نتمكن بها من إيقاد جذوة العقل ، وكذلك وضع الأطر والضوابط التى تحكم العلاقة الوطيدة بين ثلوث التعليم (المعلم ، الطالب ، والمادة التعليمية) مع إبراز أهم أركان صحة العملية التعليمية ، وذلك لخلق أجيال من النابهين النابغين فى كافة النشاطات الإنسانية..وبانشغالى بهذه الزاوية من الموضوع عادت معها ذاكرتى إلى فترة الصبا ، وطافت بذهنى ذكريات الدراسة وكيف كان يتعهدنا الأساتذة بالرعاية والإخلاص والأمانة ،خاصة الأستاذ/موسى ..مدرس مادة الرياضيات فى المدرسة الإعدادية ، وذكرى هذا الأستاذ الجليل تحتل فى قلوب تلاميذه جميعا مكانة مرموقة ، وقد نال من الإعجاب والحب والتقدير ما لم ينله غيره من المعلمين..ذلك لبراعته وتميّزه وإخلاصه للدرجة التى صار فيها جميع طلابه متفوقين فى مادته ، وكنا نحبه حبا صادقا ونتشوق للقائه ، وكنا ننتظر حضوره لقاعة الدرس بكل شوق وشغف ، وما أن يدخل القاعة بوجهه الأبوى المشرق وأبتسامته الحانية حتى يبدأ عمل أحد التدريبات الذهنية - التى اعتادها قبل بدء الدرس - لِيُنَشِّطَ عقولنا فى بعض دقائق ، أذكر منها على - سبيل المثال - أنه كان يأمرنا بالوقوف للحظة يتفحص فيها وجوهنا بنظرة نفهم منها أنه يريد

أن يبعث فينا بعض النشاط ، ثم ما يلبث أن يأمرنا بالجلوس فنجلس جميعا ، ثم قيام فجلوس عدة مرات متتابعات ، هذا التتابع الرتيب (قيام بعد جلوس وجلوس بعد قيام) يجعلنا مهينين للأمر دون أعمال العقل ودونما تفكير ، فنقوم ونجلس في تتابع آلى سريع بمجرد أن ينطق الأستاذ باعتباره تمرينا رياضياً ليس الغرض منه إلا تنشيط الدورة الدموية وإزالة آثار النوم من عيون البعض ، إلا أنه يفاجئنا ويغير النهج الرتيب بأن يأمرنا بالجلوس حين جلسونا أو بالقيام ونحن وقوف ، فيقع معظمنا أو جميعنا في الخطأ ، فتعلو منا ضحكات مكتومة لاتتعدى سقف الاحترام الواجب لهذا المعلم القدير ، وفي هذه اللحظة - وقبل إستئناف التدريب - يشحذ كل منا عقله لاستيعاب الأمر التالى ونستغرق في تركيز ذهنى شديد قبل الإتيان بالحركة حتى لانقع فى الخطأ ثانية..ويتتابع قيامنا أو جلوسنا بحسب ما يأمرنا به الأستاذ ، ومرة بعد أخرى ومع ازدياد درجات التركيز الذهنى يقل أعداد الذين يقعوا فى الخطأ ، ولانبتدىء الدرس إلا بعد أن يتيقن أستاذنا الجليل من أن الجميع قد صار فى حالة من التركيز الذهنى التام ، وأن عقولنا جميعا قد تخلصت من شواغلها وصارت كما الصفحة البيضاء وتهيأت تماما لتلقى العلم..والحق أن مثل هذه التمارين الذهنية كانت على قدر عظيم من الأهمية لأنها كانت تجمع شتات أذهاننا وتنفض عنها شواردها ، وتشحذ عقولنا وتوقد جذوتها وبمعنى آخر (تُقَلِّمُهَا) ، ولقد كان أستاذنا العبقري هذا، يضع بمثل هذه التمارين الذهنية - وربما دون أن يدري - القواعد والأسس العلمية لاستنهاض عقولنا من سباتها ، وفضل آخر تعلمه بعضنا من هذه التمارين

الذهنية هو معرفتنا بأن العقل يستسلم للواقع الرتيب فى الحياة حتى أنه يغفو مع الوقت ويظل فى سبات ما لم تتجدد الحياة بأمر تزلزل رتابتها.

وطرق تقليم العقل إما أن تكون من خلال مثل هذه التدريبات الذهنية ، أو يقوم بها المجتمع بمنظومة علمية وتعليمية متقنة ، وإما أن تكون قصره مفاجئة وتفرضها الظروف الطارئة التى تنذر بالخطب الجلل أو الخطر الحال ، سواء على المستوى الفردى أو على مستوى الجماعة أو الأمة ، فنذر الأخطار الوشيكة تضع كل فرد من الجماعة موضع المغوار الجسور لمواجهة هذا الخطر المدهم ، إنها لحظة الاستنفار الحاسمة التى تُستنفض معها كل جوارح الإنسان ، والعقل من هذه الجوارح التى يستنفرها (أو يستفزها) الخطر ، فنذر الأخطار الداهية تنفض لها كل نفس وتنتفض معها كل جارحة ، وتمحو من العقل أى مشاغل أو شواغل أخرى - مهما عظم شأنها ، حتى تتفرغ العقول لهذا الخطر الداهم وحده وبأقصى طاقاتها ، وبتصفية عقول كل أفراد الجماعة من أى شواغل أخرى وانشغالها فقط بأمر الخطر الداهم يجعلها جميعها منصهرة فى عقل واحد متعاظم على قدر شأن المصيبة الوشيكة.

وفى ذاكرتنا جميعاً أمثلة لهذا التقليم القصرى للعقل ، ولعلى أذكر مثلاً من عندى...فلقد كانت تربيتنا فى الريف المصرى المعروف ببيوته المتلاحمة تُشهدنا ببعض تلك التجارب الإنسانية التى ينتفض لها العقل..حيث كنا صغاراً نلعب

فى ربوع القرية الهادئة ، والناس من حولنا منشغلون - كالمعتاد - بأمور حياتهم التى يمارسونها بغاية الهدوء والسكينة ، إذا بصرخات مُدَوِّية تشق جدار الصمت وتفتك بالسكينة لتعلن عن نشوب حريق بمنزل ، وكأن مسًا أصاب الناس جميعا ، وما تراهم إلا فى سباق محموم وهم مُلتاع صُوب مصدر الصراخ ، تلمح فى وجوههم ملامح وقسمات الجنود البواسل وقت النزال ، وتدب فيهم روح وقوى كامنة ، كأنها المارد خرج لتوه من ققمه لإنقاذ القرية جميعها من هذا الخطر الداهم الذى قد يطول الجميع ما لم يُقْصَ عليه فى التو واللحظة ، والمدهش أن ستارة من الصمت تنزل على الجميع وتُغَلِّف القرية بأسرها إلا من بعض صيحات حادة ومتفرقات وبعض نداءات وأوامر قاطعة بين حين وآخر تزداد حدتها مع كل انتفاضة للهيب أو مع أى زفير للنار، ولحظة بعد أخرى والحريق المتمرد ولهيبه النافث وشره المستطير ودخانهِ الأسود النافر يستصغر شأنه أمام أراذتهم العاتية ، ومن المثير أنهم كانوا يتقاسمون العمل بخبرة فائقة وبدافع ذاتى دونما اضطراب ، لكنها خبرات تتهيا تلقائيا من عصارة التجارب المتراكمة من قديم الزمان ، أو كأن الصرخة التى أنبأت بالحريق قد أخلَصت العقول من شوارد الفكر الأخرى وأصهرتها لهذا الخطر وحده ، واستدعت معها تلك الخبرات من أعماق نفوس الناس فجابها بها المصيبة بثقة ومراس واقتدار..فهذى فرقة تعلى الأسطح المجاورة للمنزل المشتعل بالحريق ، وتلك أخرى تقترب منه بجذِر شديد ، وثالثة تنقل المياه فى أوعية أعدتها فرقة رابعة ، وخامسة هتُمها البحث عن أقرب مصادر أخرى للمياه..وترى الأوعية تتناقل بين الأيدي فى ثبات ورفق

وتؤدّة لتصل إلى حيث تضطرم النيران ، فيتلقفها هؤلاء المُطَوّقون للحريق ليصبّونها على ألسنة اللهب في تتابع لا ينقطع ، ونشهد جميعاً ألسنة اللهب الناهمة والدخان الأسود والشرر الثائر وهى تنهزم وتخبو وتتلاشى في خزى كأنها الوحوش المتراجعة في انكسار وذلة وقت الهزيمة ، ولا أنسى - من مفردات هذا المشهد - هؤلاء الذين يخلّون النطاق المحيط بالحريق من أى مواد قابلة للاشتعال وهم في همة ونشاط منقطع النظير ، ليعزلوا موضع الحريق تماماً فلا يمتد لأماكن أو بيوتٍ أخرى ، وهكذا يدور العمل في معزوفه متقنة ، تستحق أن يرصدها علماء الإدارة ليستنبطوا منها أسس وقواعد علم إدارة الأزمات.

المارد الذى خرج من ققم الإرادة - وقتها - لم تكن له وجهة سوى هذا الخطر الداهم ، ولا همّ له إلا القضاء عليه في مهده ، فالحريق الذى فاجأ الجميع في قرينتنا الوديعة لم يكن إلا تحدياً لإرادة أهل القرية التى نجحت في إستجماع جل قواها لمواجهة ووأده قبل إستفحاله..وبذلك عبّرت الأزمة الرهيبة وتفرق الجميع ، وعادوا إلى سلامهم ووّداعتهم وهدوئهم من جديد.

وكما ينبئنا التاريخ فالأهم كذلك قد تفاجئنا الخطوب كالفياضانات والجفاف ، أو العواصف الثلجية المستديمة ، أو الزلازل المدمرة أو غيرها من مفاجآت الطبيعة القاسية ، التى تُنهض همم جميع أبناء الأمة ، وتُسقط من أذهانهم - أو بمعنى آخر (تُقَلِّمها) - من كل أمر آخر غير هذا التحدى ، فيتوحدوا جميعاً

لمجابهة هذا الخطر الذى يُطبق عليهم ، وكل منهم لايشغل إلا بهذا الأمر الجلل ، فتتجمع إرادتهم فى إرادة واحدة وتنصهر عقولهم وأذهانهم فى عقل وذهن واحد منشغل بأمر واحد هو مدافعة الخطب، وأن ينجوا الجميع.

وقد تكون الأخطار من العَظَم والجسامة فوق طاقة الجميع بحيث لا تُجدى معها المجابهة أوالمواجهة ، فتضطر الأمة للرحيل والمغامرة فى البحث عن موقع آخر ينشدون فيه الأمان ، تلك المغامرة وهذا الجهد فى البحث وهذا التحدى هو الذى يُوجِد إرادتهم فى بوتقة واحدة ويُوَجِد أذهانهم وعقولهم فى عقل واحد لا يشغله إلا أمر واحد لحين إدراك الموقع الآمن .

فالمطلَّع على الحضارات الإنسانية يرى بجلاء أن بعض الحضارات بل معظمها كانت بدايتها وخطوتها الأولى فى مواجهة الجماعة لما يقابلها من تحديات ومجابهات ، بما يُعرف بنظرية التحدى والاستجابة..وصاحب هذه النظرية هو العالم التاريخى الشهير / أرنولد توينبى ،أحد أهم مؤرخى الحضارة - بل أهمهم على الإطلاق - حيث تناول بالدراسة الشاملة لإحدى عشرة حضارة ، تخيرها من بين الحضارات الإنسانية ، وخرج من هذه الدراسة بنظرية علمية تقول : أن حركة التاريخ لاتعود إلى البيئة الجغرافية ، ولا تعتمد على الأجناس وإنما هى نتيجة موقف الجماعة ما يقابلها من تحديات ومجابهات شرسة ، ونوع ردّ فعلهم عليها وأستجابتهم لها ، وما لم يقله «توينبى» أن مثل هذه المجابهات الشرسة من شأنها أن تُنفِض العقول جميعها من أى شوارد فكرية أخرى سوى أمر هذا

الخطر وتنصر جميعها في عقل واحد منتفض، أى (مُقَلَّم)..ولقد أشار توينبى إلى مثل هذه الظروف الاضطرابية التى واجهت المصريين الأقدمين حيث وُوجِّهوا بتحدٍ قاسٍ عندما أشتد جفاف مواطنهم وكان لابد لهم أن يقرروا المغامرة ويقبلوا التحدى ، فعزموا أمرهم على اقتحام حوض النيل الذى كان فى تلك الأعصر غياضاً ومستنقعات حافلة بالأخطار واليأس والوحشة بشكل يصعب تصوُّره ، وواجهوا التحدى أولاً بالتحكم فى مجرى نهر النيل ، ومنع فيضانه المستديم على الوادى كل عام ، مما يجدد المستنقعات الآسنة والموحشة والغير قابلة على الحياة ، ثم تحكوا فى المستنقعات وقاموا بتجفيفها وأزالوا أحرشها، وهكذا بدأت خطوتهم الأولى نحو الحضارة بمواجهة التحدى الذى شحذ عقولهم واستنفر قواهم واستفز عافيتهم ، وكلما ذاقوا النجاح وشاهدوا تقدمهم وعلو بنیان حضارتهم شيئاً فشيئاً زاد إصرارهم على المضى قدماً، وبهذا التحدى وبهذه الإستجابة لمجابهته كانت الخطوة الأولى للحضارة المصرية**.

الخلاصة من ذلك هى أن العقل ليس بمستطاعه أن يفعل شيئاً ذا قيمة إلا بأن يُنْفَضَ عنه أى فكر آخر سوى ما يتعلق بالأمر الذى توجّه له ، وبمعنى آخر : أن يُقَلَّم ويُرَّال عنه أية أفكار أخرى قد ينشغل بها وتزاحم فكرته المحورية التى يتوجّه لها ، فإذا أصبح كذلك فقد صار قَلَمًا مهيبًا صالحاً لأن نخط به إرادتنا وأحلامنا ونرسم به حركتنا ونجتري به أعمالنا على صفحة الحياة الدنيا ، ذلك هو المعنى المقصود من لفظ القلم فى الآية الشريفة ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾..إنه الْعَقْلُ الْمُقَلَّمُ.

فإذا ما عدنا إلى العملية التعليمية سيتجلى لنا فضل العقل المقام في نقل العلم بين طرفيه (المعلم والمتعلم) على الوجه الأكمل :

فتقليم الذهن وتهيئة العقول (حين تلقى العلم) مثله كمثل من يكتب بقلم مُقَلَّم على صفحة بيضاء خالية من أى نقش ، وبدون هذا التقليم للعقل تضعف العملية التعليمية ويكون مثلها مثل من يريد أن يكتب بقلم مقصوف على صفحة سوداء مليئة بالنقوش والشخبط..ذلك هو أول أركان العملية التعليمية .

وثمة ركن آخر في العلاقة التي تربط بين المعلم والمتلقى ' إنه في المسافة الفاصلة الواصلة بينهما ، وهى مسافة محسوبة بحسابات دقيقة لتحفظ الرابطة الوثيقة بين هذين الشريكين ، هى أشبه بعلاقة النجم بالكوكب الذى يدور حوله ويستمد منه الضوء والحركة ، فإن كان أقرب أو أبعد عن المسافة المثلى لانهار النظام ولتفكك ما بينهما من رابط ، ويمكن لنا استجلاء هذا الميثاق بإمعان النظر فى اللحظة التى ينساب فيها العلم بين المعلم وطالب العلم ، ونستطيع أن نبين ذلك بمثال نستعيرة من دار العلم ذاتها (المدرسة أو الجامعة) ومن معمل الكيمياء بهما ، فالعلاقة بين المعلم وتلميذه أشبه بما بين القارورتين الزجاجيتين ، وهما تلك الكرّتين ذواتا الفوهتين الرقيبتين الضيقتين اللتين نعهدهما فى المعمل ، فانسياب العلوم والمعارف من المعلم إلى المتلقى ومن جيل إلى جيل إنما هو أشبه بسائل يُصَب من إحدى القارورتين إلى الأخرى ، ويتم ذلك بأن تكون المليئة بالسائل محمولة بيد وفى وضع مائل ، وتحتها الأخرى

الفارغة في وضع رأسى ممسوكة باليد الثانية ، فلن نتمكن من نقل السائل بينهما مالم نظل على تركيز واجتهاد مستمرين ، لتقليل درجة الإهتزاز بينهما وأن نساير بين قُوَّهتيهما الضيقتين لتكونا في وضعهما الدقيق والموائم لانسباب السائل بينهما دون أن يتسرب للخارج..هذا بالضبط ما يحدث بين المعلم والمتلقى - وكلاهما يعمل بذهنه المحاصر بأنواء الفكر الدنيوى التى تلاطمه من كل جانب ، فتحرف بعقل كل منهما يمينا ويسارا على غير تحُرُّف الآخر، فينفلت كل منهما عن صاحبه بين لحظة وأخرى ، لهذا يلجأ المعلم دائماً إلى أن يبادر المتلقى بسؤال كمثل : "واخذ بالك ؟ أو أليس كذلك ؟...أو تدور حلقة الدرس فى هيئة نقاش متبادل بينه وبين تلاميذه..إلخ ، ذلك ليضمن المعلم تركيز أذهان الطلاب ، وبالمثل كذلك، فكل منا يتخير لفظاً أو أكثر يستعمله مع الآخر فى محاوراته و مجادلاته ، وذلك لأمران..الأمر الأول : حتى لا يشرذم بذهنه عن الموضوع الدائر بينهما ، والأمر الثانى : لكى يمسك بلب الآخر ويضمن أنه مازال على تركيزه ولم يَشرَح منه ، وأن حديثه معه لا يذهب سدى ، ..أما المتلقى فإنه - بين حين وآخر- يلجأ إلى الاستفسار عن بعض النقاط ، أو عن بعض الأمور فى الموضوع الدائر ، حتى يظل فى حالة من التركيز الذهنى المتقابل ، وكلما دار النقاش فى حلقات العلم بين المعلم والمتلقى على هذا النحو كلما كان من مظاهر الصحة التعليمية.

وركن ثالث يجب توافره لضمان صحة التعليم ، وهو فى حفظ مسافة الإلتقاء بين طرفى العملية التعليمية وقت التعليم ، وحتى نبين ذلك نعود إلى القارورتين الزجاجيتين ، ولنتصور أن الفوهة العلوية منهما - وهى تمثل المعلم - كانت مرتفعة بعيداً عن الأخرى ، فالمؤكد هنا أن السائل كله - أو معظمه على أحسن تقدير - سوف يتسرب خارج الإناءين ليذهب سدى ويضيع هباءً ، فكما بُعدت المسافة بين الأناءين فحتماً سيتسرب قدراً من السائل المسكوب يتناسب مع قدر المسافة الفاصلة بين الفوهتين ، وكما تقاربت الفوهتان كلما تكللت محاولتنا بالنجاح..فذلك ما يحدث بين المعلم والمتعلم ، فكما تقارباً مودة وحباً وعطاء وإجلالاً وإحتراماً نجحت العملية التعليمية ، وكما تباعداً إرهاباً وخوفاً وغلظة وكرهاً وبغضاً فليس بعدُ إلا الفشل .

وأما الركن الرابع لضمان سلامة العملية التعليمية ، فهو عن الكيفية التى تناسب فيها العلوم والمعارف بين طرفى المنظومة التعليمية (المعلم والمتعلم)..فإنها يجب أن تكون بدقة وبحرص شديد وتمهّل دون تسرع أو اندفاع ، فما يجب أن يُصب السائل من القارورة العلوية صباً متدافعاً دون تمهّل ، وإنما يجب أن يُسال إلى الثانية برفق وبقدر محسوب ودقيق وعلى قدر يناسب فوهتها الدقيقة وإلا اندفع خارج الإناءين دون أدنى فائدة.

ليس هذا فحسب، بل هناك أمر أخير لا يقل أهميه عن كل هذا ، وهو في التقاء إرادتي المعلم والمتعلم ، في أن كلاهما يجب أن يحب ويهوى ما يؤديه ، وأن تتهيأ لهما كافة الظروف التي تشجع وتحبب كل منهما في واجبه ، فلو أن أيا منهما لا يحب ولا يريد ذلك، تتعثر معهما عملية إنتقال العلوم والمعارف.. هذا ما سوف نتحدث عنه في موضع آخر من كتابنا.

تلك هي أمور مطلوبة بين طرفي التعليم (المعلم والمتلقى) ودونها شتات متواصل لذهن المعلم ولذهن المتلقى ولمادة العلم التي تضيع هباءً مع الوقت ومع الجهد (فإن لم يتلقى الإناء السائل ذهب هباءً) .
فالتعليم ونقل الأفكار ليست ثلاثية الأبعاد فحسب ، ولكنها رباعية إذا أضفنا إليها العقل المتهىء (العقل المقلم) فتقليم الذهن وقت التعلم هو أمر في غاية الأهمية ، وهذا هو المعنى الذي نراه في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

العقل حال قيام المعلم بتعليم طلابه يكون فاعلا ، وحين يتلقى الطالب علمه يكون عقله منفعلا ، في الحالة الأولى هو قلمٌ يترك أثره على صفحة عقل المتلقى ، ولن يترك أثراً إذا كان مقصوفاً وإذا لم يكن مقملاً ، وفي الحالة الثانية هو صفحة يُدوّن فيها العلم ، ولن يتهيأ عقل الطالب لأن يترك التعليم أثراً فيه ما لم يكن كمثّل الصفحة البيضاء ، أى يكون خالياً من أى شواغل عقلية أخرى مهما كان شأنها ، وفي كلتا الحالتين يجب أن يكون العقل مقملاً أى خالياً من أى

شواغل غير العلم..وهذا طباق القول الحكيم: " التعليم في الصغر كالنقش على الحجر " ، فالنقش على الحجر لا يكون إلا بأداة مسننه أى مقلمة على صفحة ذهن خالى من أى شواغل ، ذلك لأن الطفل لايشغل ذهنه بموجات متلاطمة من أمور الحياة وغالب أفكاره غاية الصغر والبساطة مثله ، فهى أفكار طفولية رقيقة تنسحب وتتلاشى أمام الأمور الكبيرة كالتعلم الذى يستقبله الصغير بذهن صاف كمثل الصفحة البيضاء ، فتُنقش العلوم فى عقله وتستقر مع الأيام والسنين فى مكان أمين من ذاكرته .

وعن فضل صفاء الذهن فى رُشدِ العقل نذكر واقعة - لأدرى ما إذا كانت قد حدثت بالفعل أم لا - إلا أن الألسن قد تداولتها حتى صارت مثالا يُذكر ويُلقن للدارسين فى بعض معاهد العلم..وتحكى الواقعة : أنه فى ظهيرة يوم عمل وفى وقت الذروة تحديداً ، إرتبكت حركة المرور بشوارع إحدى المدن الكبرى ارتباكاً شديداً ، وتوقفت الحركة تماماً فى منطقة يمرق فى باطنها أحد الأنفاق القديمة ، وسبب المشكلة أن إحدى شاحنات النقل الكبيرة، ذات الصندوق الضخم قد انحشرت بالنفق ، مما استحال تحركها ، لالتحام صندوقها بسقف النفق ، ومع الوقت تراكت خلفها أعداد كبيرة من المركبات وتوقفت الحركة المرورية تماماً ، وهُرع الخبراء وكبار المسؤولين على الموقع للبحث عن حل للأزمة التى تزداد تفاقماً مع مرور الوقت ، وتكاد تؤذن بتوقف الحياة فى المدينة ، وراح الجميع يفكرون إما فى سقف النفق أو فى أعلى صندوق الشاحنة ،

وأوصى من أوصى باستخدام المعاول أو ماكينات تقطيع الحديد ، ويبدو أن الكل قد حوَّص تفكيره في موضع الإحتكاك بين الشاحنة وسقف النفق ، ولم يتعدى تفكيرهم هذا الموضع الضيق لأنهم أتوا للموقع وعقولهم مثقلة بالهموم ومتخمة بالمشاكل ، إلا أن علاج الأزمة جاء من طفلٍ لم يتجاوز العاشرة من عمره - كان يرتدى زياً مدرسياً ويحمل خلف ظهره حقيبة كتبه - قد تواجد في هذا الموقع من باب الفضول وحب الإستطلاع ، وكان يرقب الأحداث عن قرب وعن كُتب ، ويبدو من انبساط ملامحه أنه في حالة معنوية مرتفعة ، فتقدم نحو أحد المسؤولين الذى لم يعره أى انتباه أول الأمر بل وأوشك أن ينهره ، إلا أن الطفل بادره قائلاً: ما بالك كالغرقى!! ؟ وأردف بالسؤال دون انتظار رد : لماذا لا تفرغوا إطارات الشاحنة من بعض الهواء حتى يهبط بها قليلاً فيمكنها المرور من النفق بسلام !! ، وهنا أسقط في يد المسئول الكبير وكل من كان حوله.. وإنتهت المشكلة وحلت الأزمة ، التى وقفت أمامها عقول المسؤولين والخبراء فى حيرة وشتات وفى حالة من اليأس والعجز ، وجاء الحل الحاسم من طفل يحمل فى رأسه ذهنًا صافياً وعقلاً مستنهضاً ، فى حين كان الأمر يتطلب من الخبراء والمسؤولين أن يهَيِّئُوا عقولهم ويُقَامُواها من أى أفكار أو شواغل كابته : بأن يتحلون بالثقة ، ويطرحوا الخوف من المسؤولية جانبا ، وأن يلجأوا إلى أخذ الرأى والمشورة ، تلك أمور تهىء العقل والذهن وتجعله متوقدا وقادراً على احتواء الأزمة والإحاطة بعناصرها جميعها ، كما وأن تقليم العقل يوسع دائرة الفكر ويمد ساحه النظر لتشمل الموضوع بكامل أبعاده ومحاوره وزواياه وليس

الاكتفاء بالنظرة الضيقة ، مثلما كانت فى مشكلتنا وهى نقطة التلاقى بين سقف النفق والشاحنة ، فالعقل الصافى أو بمعنى آخر (العقل المقلم) يُنمى القدرة على التفكير السليم ويطلق عنان البديهة ويستقبل الخواطر ، وهذا هو معنى الذكاء الذى يأتى مع الانسجام بين البصر والبصيرة ، ومع التوحد بين العقل والعقل والمعقول.

ونكتفى بهذا المثال الذى يبين فضل صفاء الذهن فى تقليم العقل وتهيئته وإعداده لمسيرة الحياة .

والعبرة التى نقصدها هى أن العقل هو ذلك ينبوع الأول من ينابيع الحضارة ، وهو خطوتنا الأولى إذا ما أردنا أن نغير ما بأنفسنا ، حتى يُغَيَّرَ الله حالنا البائس إلى حال من الرُقَى والحضارة والصحة والغنى والقوة والعزة والمنعة ، لذا، فقد كانت له تلك الإشارة العميقة فى أول آية تنزلت على خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم) ، وقد جاءت بالتصريح دون التلميح وبمسمى إعجازى (بلفظ القلم) ، كما جاءت على قدر من اللطف والنفاسة والتألق معاً لتناسب تماماً لطف العقل ونفاسته وألقه.

* * * * *

وبعد أن تكلمنا عن معنى لفظ القلم الذى ورد فى أول آيات قرآنية تنزلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من سورة العلق كإشارة صريحة عن

العقل ، بقى أن نتعرف على مواضع ذكر لفظ القلم فى القرآن الكريم ، وهل جاءت جميعها بمعنى أداة الكتابة وحدها ، أم أن اللفظ يتعدى ذلك إلى معان أخرى غير أداة الكتابة ، ثم ننتقل إلى البحث عن المعنى العام الذى أوردته المعاجم اللغوية للفظ القلم ، وقول أهل التفسير عنه فى إطار تفسيرهم للآية الشريفة : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ .

القلم فى القرآن الكريم

سنعرف هنا على مواضع ذكر لفظ (القلم) فى آيات القرآن الكريم ، وهل جاءت جميعها بمعنى أداة الكتابة أم أن اللفظ معان أخرى. فقد ورد لفظ القلم فى القرآن الكريم فى أربع مواضع : فى الآية الأولى من سورة القلم - والرابعة من سورة العلق - والسابعة والعشرين من سورة لقمان - والرابعة والأربعين من سورة آل عمران ، ولم تكن جميعها تعنى ذلك القلم الذى وظيفته الكتابة .

قال تعالى :-

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ آية رقم 1 سورة القلم.

والقلم فى هذه الآية الشريفة هو القلم المعنى بكل ما يُدَوَّن أو يُسَطَّر سواء الكتابة أو الرسم ، لأن الآية جاءت بلفظ إعجازى يتسع لمجالات أخرى غير الكتابة وهو لفظ (يسطرون) ففيه أسطر الكتابة وفيه الخط المُسَطَّر

كالرسم الهندسى والرسم البيانى .. إلخ، على خلاف لفظ يكتبون الذى لا يتسع لغير الكتابة فقط، والفعل هنا منسوب إلى فاعله بإضافة الواو والنون وذلك إيجاز بلاغى حيث أن القلم لا يكتب أو يسطر بمفرده ومن ذاته ، وإنما يحتاج لفاعل يستخدمه وهو عقل الإنسان.

- قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ سورة العلق.

ونحن الآن بصدد البحث عن معنى القلم فى هذه الآية ، وقد وصلنا إلى أن المعنى الذى نراه للفظ أعمق من إضفائه على القلم الذى وظيفته الكتابة فقط ، بل يمتد إلى العقل المتبهي للعلم أى : ”العقل المقلم“.

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)﴾ سورة لقمان.. وفيها إشارة صريحة بأن المعنى المقصود من لفظ ﴿أَقْلَامٌ﴾ هو أدوات الكتابة .

- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ أَيْهِمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُخْتَصِمُونَ (44)﴾ سورة آل عمران ، ومعنى ﴿أَفْلَاهُمْ﴾ فى هذه الآية الشريفة ليس المقصود منه أداة الكتابة بل هى السهام التى تستخدم فى القوس ويستعملها الرماة عند النزال ، وكانوا قديما يستهمون بها.

فليس ذكر القلم فى كل الأحوال بمعنى أداة الكتابه ، فقد جاء ذكره فى

الآية الرابعة والأربعون من سورة آل عمران على غير هذا المعنى ﴿إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾، ولقد سمي السهم قلماً لأنه ذو شكل رفيع ومستقيم ومدبب من أحد طرفيه ، أى مقلم من طرفه ، ولا يُقال عنه قلم إذا لم يُقلم ، فقبل التقليم لا يكون إلا مجرد قصبة.

وكل ما كان مقلماً فهو قلم! ، والعقل كذلك جاء ذكره في القرآن بمسمى القلم لأنه لا يؤدي مهامه إلا وهو مقلماً.. أى يكون خالصاً للأمر المنشغل به فقط ومجرداً تماماً من أى إنشغالات أخرى عداه.

والعقل محله القلب لكن لا ندرك إلا آثاره التي تأتي من المخ ، ومن اللافت للنظر أن موقع المخ من الإنسان كموقع السن المدبب من القلم ، لكأنما هو الأداة التي نخط بها مشيئة الله وقدره في الأرض ، ونُحْط به ما نستطيع من غايات ، ونرسم به خُطى مسيرتنا في الحياة الدنيا»..

قول بعض المفسرين لمعنى القلم

ربما لم يتفق المفسرون على المعنى الذى نراه لِلْفَظ القَلَم فى الآية الشريفة باعتباره إشارة صريحة عن العقل ، يَبْدَأُ أنهم اتفقوا على المعنى الظاهرى وإن لم يخلو عن الإشارة إلى وظائف العقل ، فقد ذكر/ أبْن كثير فى تفسيره لمعنى القلم فى الآية الشريفة من سورة العلق : ﴿الَّذِي عَلمَ بِالْقَلَمِ﴾ (٤) بقوله: أى الذى علم الخط والكتابة بالقلم وعلم البشر مالم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فكما عَلم سبحانه وتعالى بواسطة الكتابة

بالقلم فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب ».. كما أضاف : « أن من كرمه تعالى أن عَلمَ الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم وهو القدر الذى أمتاز به أبو البشره آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون فى الأذهان وتارة يكون باللسان وتارة يكون فى الكتابة بالبنان . ذهنى ولفظى ورسمى ، والرسمى يستلزمها من غير عكس . فلهذا قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (٣) الَّذِي عَلمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) سورة العلق وذكر المنتخب فى تفسير « الَّذِي عَلمَ بِالْقَلَمِ » . أى : الذى علم الإنسان الكتابة بالقلم ولم يكن يعلمها .

وفى القرطبى : (الَّذِي عَلمَ بِالْقَلَمِ) يعنى الخط بالكتابة ، أى علم الإنسان الخط بالقلم ، وروى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله عظيمة ، لولا ذلك لم يقيم دين ، ولم يصلح عيش ، فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأن علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة البغى إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله كتبه المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هى ما استقامت أمور الدين والدنيا وسُمى قلما لأنه يُقَلَّمُ ، وقال بعض الشعراء المحدثين يصف القلم :

فكانه والحبر يخضب رأسه * شيخ لوصل خريدة يتصنع

لم لا ألاحظه بعين جلاله * وبه إلى الله الصحائف ترفع

وأضاف القرطبى : أنه ثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه

قال: (أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة ، فهو عنده في الذكر فوق عرشه).

هذا ولم يصف الطبرى والجلالين والبعوى والسعدى جديداً عن معنى القلم في تفسيرهم للآية الشريفة من سورة العلق .

ولا أحد ينكر فضل اختراع القلم على الإنسانية ، بل هو من أهم إنجازات العقل على الإطلاق ، فلقد ساهم - مع اختراع الكتابة ومع صناعة الورق - بقدر عظيم في دفع الإنسانية نحو الحضارة والرقى بدوره الفعال في حفظ ونقل المعارف والعلوم عبر الزمان وعبر المكان ، أما دوره في التعليم فلم يكن إلا كأداة مساعدة ولم يكن الفاعل الأوحده فيها بل كان مجرد عاملاً مساعداً في بعض الوقت وإذا لزم الأمر.

معنى القلم في اللغة

ذكر المصباح المنير في معنى القلم : " قلماً من باب ضرب قطعته ، وقلمت والقلامة بالضم هي المقلومة من طرف الظفر ، وقلمت بالتشديد مبالغة وتكثير ، قلم الظفر : أخذت ما طال منه ، فالقلم أخذ الظفر بالقلمين ، وبالقلم وهو واحد كله ، وأضاف: أن القلم الذي يكتب به على وزن فَعَلَ بمعنى مفعول كالحفر والنفض والخبط بمعنى المحفور والمنفوس والمخبوط ، ولهذا قالوا: لا يسمى قلم إلا بعد البزى وقبله هو قصبه . قال الأزهري ويُسمى السهم قلماً لأنه يُقلم

أى يُبرى وكل ما قطعت منه شيئاً فقد قلمته والمقلمة بالكسر : وعاء الأقلام .
وفى المعجم الوجيز : « قلم الشجرة : أزال عنها الأغصان اليابسة .. والقلم
: ما يُكتب به ... »

وفى مختار الصحاح : قلم ظفره من باب ضرب ، وقلم أظفاره شدد للكثرة ،
والقلامة بالضم ما سقط منه ، والقلم : الذي يُكتب به والقلم أيضاً الزلم .
والذى يعيننا هنا ما ورد بمعجم المصباح المنير بأن القلم فعل بمعنى مفعول
، كالخفر بمعنى محفور ، والنفض بمعنى منفوخ ، والخبط بمعنى مخبوط ، أى أن
لفظ قلم بمعنى مفعول أى « مُقَلَّم » .. وقياساً على ذلك فلفظ القلم الذى ورد فى
الآية الشريفة من سورة العلق بمعنى مُقَلَّم ويكون المعنى الذى نراه من الآية : ﴿
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ أى الذى علّم بالعقل المقَلَّم . أى المجرد تماماً من كل أمر سوى
ما هو منشغل به .

هكذا تشير المعاجم إلى أن لفظ القلم لا يطلق إلا على كل ما كان مُقَلَّمًا ،
فتقليم الشجرة يعنى إزالة الأغصان اليابسة عنها ، والسهم يقال عنه قلم لأنه يُقلم
أى يُبرى من أحد طرفيه ، ولا يُطلق لفظ القلم على أداة الكتابة إلا بعد البرى
فقال الرصاص قبل أن يُبرى ليس أداة تصلح للكتابة ، وما هو إلا قصبه لا أكثر
، ولن يؤتى أثره بالكتابة أو التدوين إلا وهو مُقَلَّم ..

والعقل كذلك لا يؤتى آثاره إلا بالتقليم مثله مثل القلم الذى نبريه ونزيل
عنه القلف المحيط بالسن الكربونى ، فحينئذ فقط نستطيع أن نكتب وندون
بالقلم ما يجول بقرحتنا ، كذلك العقل يجب أن نزيل عنه قُلف الأفكار التى

تُغَلِّفه قبل أن نوجهه لأى أمر خاصة ما كان منها ذو شأن كأمر التعليم والعلم والتعلّم.

وبعد أن استعرضنا معنى القلم فى الآية الشريفة من سورة العلق وقول بعض المفسرين والمعنى اللغوى ، فإذا ما عدنا للآية الشريفة « عَلمٌ بِالْقَلَمِ » فإنها تتسع لأن تستوعب معنيان ..الأول : علم بالعقل المقام .. والثانى : علم بالتقليم . الفهم الشامل للمعنيين يتسع لمعانى متعددة :

أولها : أن العقل الذى طرفه فى رأس الإنسان (الدماغ) ومداده يأتيه من القلب ، كمثّل سن القلم الذى يأتيه مداده من قلب القلم .

ثانيها : أن العقل لا يعمل بكامل طاقته ما لم يتهيأ للأمر المنشغل به « أى يُقَلِّم » ، فنأقل المعرفة أو العلم يجب أن يُقَلِّم عقله أى (يُزَيِّره) ليخط به علمه فى عقل المتلقى ، وعلى المتلقى أن يُقَلِّم عقله بأن يزيل عنه شتات الأفكار لتتهيأ صفحة ذهنه لتلقى العلم .

ثالثها : أن انتقال وسريان المعارف والعلوم تحتاج إلى تقليم العقول ، فالتقليم للعقول هو أحد أهم محاور العملية التعليمية.

رابعها : ولأن العقل يتخذ موقع السلطان فى مملكة النفس فإن تقليمه يتعدى نطاقه ويمتد لكافة أرجاء النفس ، فالمعلم ذو العقل المُقَلِّم ينفع فؤاده بحب العلم وبشغف توصيله لطلابه ، ويجند لهذه الرسالة الحميدة جل إرادته ، والمتعلم النابه هو الآخر يميل للاستزادة من العلوم برغبة أكيدة وبحب وشغف ، ويبذل فى هذا السبيل الميمون قصارى فكره وجهده بفؤاد متلهف وبعزم أكيد

هذا التقليم المُمْتد لسائر أحوال النفس وغرائزها وغرائسها يشحذ العقل فيبلغ أوج رشدته ويتثبت على عرشه ويحفظ سلطانه وتأمين مملكته.. وبمعنى آخر: فتقليم العقل تزكية لسائر النفس.. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ سورة الشمس آية 9. العقل المقالم إذاً هو أهم أدوات العملية التعليمية ، وهو ركنها الركين وعمادها القويم.. بل هو عماد الحياة بأسرها.

هكذا جاء ذكر العقل في افتتاحية التنزيل القرآني تصريحاً دون تلميح ، وبمسمى « القلم ».. وهو لفظ لطيفٌ معجز كلُّطفٍ وإعجاز العقل. وإنني لأرى أن هذا التشریف القرآني الذي حظى به العقل أشبه باحتفاء كريم قد جاء في مواعده المُقَدَّر ، ذلك لأن زمن نزول الرسالة الخاتمة اتفق والموعود الذي بلغت فيه الإنسانية مرحلة النضج وبلغ العقل فيها اكتمالاً ورُشداً ، بعد تراكمات من التجارب والخبرات والابتلاءات والتمحيصات ، ومراحل شتى من الاصطفاء والتزكية برسُل الله ورسالاته وأنبيائه منذ عهد آدم عليه السلام إلى وقت البعثة المحمدية الشريفة، ذلك، لأن العقل الراشد هو المنوط به قيادة النفس على التوجه في الحياة الدنيا بالإيمان والعمل الصالح ، ولأنه هو الذي يهديننا لأن نتعرف على الخالق سبحانه وتعالى ، وبه يتميز الإنسان عن غيره من الخلائق الأخرى ، وبه نحافظ على نقاء الفطرة وعلى صفو النفس وسلامة القلب ، وبه نحظى بسعادة الدارين.

وفضلاً عن هذا التشريف ففي الآيات أيضاً تكليف ضمنى للناس جميعاً بتعهد وتركية العقل ، فالعقل فى حاجة إلى حماية وصيانة دائمة لأن الإنسان يخوض معترك الحياة الدنيا مدفوعاً بالهوى والغواية ومأخوذ بزينتها ، غير عابئ بأحوالها وأدرانها وقلفها ، والعقل، مثله مثل سائر النفس ليس بمنأى عن قلف الدنيا وأدرانها ، وهو غرسة فطرية أشبه بغرسة النبات فى حاجة دائماً لتزكيته بسقاء المعرفة وغذاء العلم ونسائم الفكر الحر ، وإلا أصابه الضعف والذبول واستحالت معه الحياة إلى هوان وضعف وذلة.. لذا فصيانة وتركية العقل ترتقى إلى درجة الفرض الدينى لأنه يحقق صالحنا فى الدنيا والآخرة.. وتحقيق المصالح العليا للأمة لا شك أنها من أهم فروض الدين القويم.

والعبرة التى نريدها هى : « أن الركيزة الأولى للحضارة هى العقول ، بيد أن العقول تُقصِف من عثرة التخلف ومن وقع السقوط والتردى ، وعلى الأمة التى تبغى النهوض من عثرتها أن تضع العقل فى المبرة أولاً حتى يصير قلماً يمكنه أن يؤتى آثاراً جليلة ..» ذلك هو التغيير الأول والأجدى بالنفس لِيُغَيَّرَ الله ما بالأمة.

هكذا يُفَضَى بنا الحديث عن معنى القلم فى الآية الشريفة من سورة العلق إلى أن المعنى المقصود للفظ أعَمَق من أن ننسبه للأداة التى نكتب بها وحدها ، وسُقنا من الدلائل ما يؤكد أن المعنى الأوفى للَفْظَةِ « القلم » هو « العقل

المُقَلَّم « أى العقل الرشيد ، ويكون المعنى الأجدى للآية الشريفة ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ هو : « الذى علم بالعقل الرشيد » ، فما القلم الذى نكتب به إلا تلك الأداة التى اخترعها العقل ذاته وجعلها خادمة له وفى متناوله ليستخدمها كيفما شاء ويُسَخِّرُهَا أنى شاء.

وقبل أن نتحدث بشئ من التفصيل عن أهمية العقل فى رقى وتقدم الأمم ، سنوجز المرحلة الفلسفية فى الفكر الإنسانى عن العقل وما انتهت إليه من آراء فلسفية ، ثم نستطرد الحديث عن موقع العقل فى النفس الإنسانية وعن آفاق العقل وعلاقاته بمجمل النوازع الإنسانية الأخرى وآلية عمله.

النظرة الفلسفية للعقل

ظهرت أولى بادرآت النظر الفلسفى فى موضوع العقل فى عهد الحضارة الإغريقية ، ولكنها ظلت دون النظرة العلمية حتى ظهور أرسطو الذى انتشرت نظريته وآراؤه وذاع صيتها على الساحة الفلسفية منذ العهد الإغريقى حتى يومنا هذا ، فبدأت أقدم نظرية فلسفية عن النفس والعقل ، إلا أن نظريته، تلك، لم تخلو عن كثير من الغموض ، بيد أنها ظلت متماسكة بفضل قيام فلاسفة الإغريق باحتضانها ، ومناولتها بالشرح والتفسير ، وحاولوا إزاحة ما يكتنف بعض جوانبها من غموض ، ولعل أشهرهم هو: «الإسكندر الأفروديسى» ، كما تناولها بعد ذلك فلاسفة المسيحية والإسلام وأدلى كثير منهم بدلو الفكر فيها

سواء بالشرح أو بالتعليق أو بالرفض لبعض نقاطها ، أو بمحاولة الكشف عن غموض بعض جوانبها والتوفيق بينها وبين العقيدة ، إلا أن هيكل النظرية الأرسطية عن العقل ظل محتفظا بقوامه حتى أن المفكرين وأهل التخصص العلمى يعتبرونها النظرية الأم التى خرج من كنفها كل ما جاء بعدها من آراء ونظريات ، بيد أن أهل العلم يكادوا يجمعوا على أن الفيلسوف الإسلامى أبا الوليد بن رشد يُعد الشارح الأكبر لنظرية أرسطو.

وإن كنا نتمنى أن يصل موضوع كتابنا هذا إلى الكثيرين من جمهور القراء فإننا نلرجو أن يجد البعض منهم ما يدفعه إلى الاستزادة بالاطلاع على مثل هذه المواضيع الفكرية ويتخذها معبرا إلى الفكر الفلسفى المترفع والأبعد منالا والأكثر بُعداً وعمقا ، فإن تحقق هذا فنعم ، وهذا بعض ما نأمله ، ولذا نؤثر فى طرحنا لبانوراما النظرة الفلسفية للعقل أن تكون فى إيجاز شديد بعيدا عن التخصص العلمى ، وفى سبيل ذلك فلن نتعرض لكافة الآراء الفلسفية عن العقل ، فهذا موضوع شائك وشديد التخصص ولا يتسع المقام له ، وما يهمنا فقط، هو أن نلقى نظرة خاطفة على المشوار الذى قطعه الفكر الفلسفى فى محاولته التعرف على العقل خاصة أنه لم يكن فى مبدئه مبنيا على أسس وقواعد نابعة من عقيدة أو دين ، ولن نتعرض للمصطلحات الفلسفية شديدة التعقيد فهى غامضة وغير مستساغة وعسيرة الفهم لغير أهل العلم ، وعلى من يريد الاستفاضة العلمية فى هذا الموضوع نحيله إلى كتاب: (فى النفس والعقل

لفلاسفة الإغريق والإسلام) للأستاذ الدكتور/محمود قاسم . أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة - إصدار مكتبة الأنجلو المصرية ، ففيه دراسة علمية رائعة ورفيعة المستوى وذات أسلوب شيق وممتع للمتخصصين ولغيرهم من المهتمين ، وأراه - بحق - من أهم الكتب التي أحاطت بهذا الموضوع إحاطة تامة حتى أنى اتخذته كرجع وحيد في هذه النقطة من البحث..ونقلت منه بعض الأفكار لكن بإيجاز شديد وبقدر من التصرف وبأسلوب مُبسَّط لتقريب المعنى لغير المتخصصين من القراء.

ومن المناسب أن نبدأ بصاحب النظرية الأم وهو الفيلسوف الإغريقي أرسطو ، ويمكن إيجاز نظريته عن العقل في بعض النقاط : فهو يرى أن العقل وحده هو المفارق للبدن على غير القوى الحسية الأخرى التي لا يمكن تصور وجودها بعيدا عن البدن أو مستقلة عنه ، ويقسم العقل إلى مرحلتين أو يفرق بين عقليين : الأول ويسميه «العقل بالقوة» أو العقل المنفعل وهو جزء من النفس شبيه بالمادة ومهياً - مجرد استعداد - بأن يستقطب جميع المخلوقات الكونية ويقبل معاني الأشياء ويصيرها فيه دون أن يختلط أو يتحد بها مثله مثل قوة الحس ، فالإحساس لا يختلط بالأشياء المحسوسة ولا يتحد معها، والعقل الثانى وهو « العقل الفعال » الذى يلقي بضوئه على الصور الخيالية المتحصلة فى العقل الأول (العقل المنفعل) حتى يخرج منها بالصورة العقلية إلى الفعل بعد أن كانت موجودة فيه بالقوة ، وهنا يصير العقل المنفعل (عقلا

فعلاً) ، ويُشبه أرسطو هذا العقل الفعال بالضوء الذى إذا ما انتشر على الأشياء المستخفية فى الظلام وغمرها تظهر ألوانها وأحوالها وأشكالها ، فالعقل فى نظر أرسطو يعمل على مرحلتين متتابعتين : فى الأولى يُصَيِّر المخلوقات فيه بعد استقطاب صورتها من الواقع وفى الثانية يصنع المعقولات وينتزع المعانى من الصور ويُحَلِّقها.. إلا أن النظرية لم تخلو من بعض النقاط الغامضة.. منها، مثلاً، أنه لم يقل صراحة ما إذا كان العقل الفعال جزء من النفس أم هو مستقل عنها.. وفى سبيل إزاحة الستار عن الغموض الذى اكتنف نظرية أرسطو عن العقل ذهب «الإسكندر الافروديسى» إلى أن العقل الفعال الذى يصنع المعقولات ليس جزءاً من النفس وليس كذلك وظيفة من وظائفها أو حالة من أحوالها بل هو الإله الذى يتمثل فى النفوس ويقوم مقامهم فى إدراك معانى الأشياء ، وحاول هذا الفيلسوف أن يفسر الرؤية الأرسطية عن العقل بالتفرقة بين عقول ثلاث وهى : العقل المنفعل ، والعقل المكتسب ، والعقل الفعال ، فالأول ليس إلا مجرد استعداد لإدراك حقائق الأشياء وسماه العقل المادى أو الهولانى ، والثانى هو ذات العقل الأول ولكن بعد اتحاده بالصور أو المعانى العقلية ، أما العقل الثالث فهو الذى يخرج العقل من القوة إلى الفعل ، وتتخلق فيه القدرة على الإدراك ، وهو غير قابل للفساد مثله مثل العقل الأول والعقل الثانى ، إلا أنه مفارق للنفس ولا يتصل بالعقل المادى إلا وقت التفكير. ثم جاء فلاسفة الإسلام وتناولوا آراء أرسطو ونظريته عن العقل بالشرح أو بالتعليق أو بالنقد وحاولوا تخليصها من أى أفكار تناقض العقيدة ، فذهب

الفارابي إلى التفرقة بين أربعة عقول (وليس ثلاث كما رأى أرسطو) أو مراحل أربع متتابعة للعقل وهي : العقل بالقوة ، والعقل بالفعل ، والعقل المستفاد ، والعقل الفَعَال ، فالأول وهو (العقل بالقوة) شبيه بالمادة ، وليس لإقوة من قوى النفس مهياة لأن تنتزع ماهيات الأشياء وأن تستقطب صورها ، وهو لا يختلط ولا يتأثر بالصور العقلية التي ينتزعها من الواقع ، والثاني (العقل بالفعل) هو نفس العقل الأول ولكن بعد اتحاده بالصور العقلية التي انتقلت إليه من الواقع ، والعقل الثالث (العقل المستفاد) فهو الحالة التي ينتقل إليها العقل الثاني بإدراكه للصور العقلية ، فتمت عقل تلك المعقولات صار عقلا مستفادا ، أما العقل الرابع وهو (العقل الفعال) فيرى الفارابي أنه منفصل عن النفس وهو الذي يجعل العقل بالقوة عقلا بالفعل ، ولا تتم المعرفة حقا إلا إذا اتحد هذا العقل بالنفس العاقلة لدى الإنسان.. وقد ابتدع الفارابي رأيا لم يصمد طويلا إذ رأى أن الناس جميعا مشتركون في عقل واحد .

ولم يختلف ابن سينا كثيرا عن الفارابي في التفرقة بين العقول الأربع التي ذكرها الفارابي ، إلا أنه يرى أن العقل الثاني يزيد عن العقل بالقوة في أنه قد اكتسب القضايا الأولية البديهية وسماه بالعقل الممكن أو العقل بالملكة ، ويليه العقل بالفعل ثم العقل المستفاد وهو آخر المراحل العقلية والذي يتم اكتسابه بفيض من العقل الفعال الذي هو مستقل عن النفس .

وانتهج « ابن باجة » نهج « ابن سينا » في تعريفه للعقل ولكنه أضاف ما أسماه الحدس العقلي الذي يسمو بالإنسان عن سائر الكائنات بتحقيق الاتصال

بالعقل الفعال الذى هو مستقل عن النفس ولم يختلف عن ابن سينا والفارابى فى ذلك.

وينفرد فيلسوف الإسلام أبو الوليد بن رشد عن غيره من الفلاسفة فى كثير من الآراء، فهو يرى أن العقل الفعال ليس خارجا عن النفس الإنسانية بل هو جوهرها، كما يرى أن العقول المختلفة أو المراحل العقلية التى ذكرها غيره ليست سوى مظاهر متعددة للنفس، ويذهب بذلك إلى تأكيد وحدة النفس على خلاف أرسطو وغيره من الشراح، كما يرى أن انفعالات العقل تكون على أحوال أو مراحل متتابعة ثلاث، وفى سبيل ذلك يفرق بين عقول ثلاث كلها داخل النفس وهى ثلاث مظاهر نفسية أولها العقل المادى ثم العقل بالفعل فالعقل الفعال، ويرى أن العقل الأول والعقل الثانى مرجعهما حالة الاتحاد بين النفس والبدن، أما الثالث فهو دليل على استقلال ذلك الجوهر رغم اتصاله بالبدن، كما يرى، على خلاف كل من أرسطو والفارابى وابن باجة، أن الارتباط بين القوة العقلية والمعقولات ليست علاقة مخالطة مثل العلاقة بين قوى الحس والمحسوسات، لأن العقل مستقل وغير مخالط للبدن، ومن آرائه التوفيقية بين مختلف الآراء الفلسفية الأخرى أنه يرى أن النفس الإنسانية ما إن تتصل بالبدن يصير لها فعلا: الأول هو القدرة على انتزاع المعانى وتجريدها، والثانى هو الاستعداد لقبولها، ومن أهم النقاط التى يختلف فيها عن أرسطو أنه يرى بعدم التفرقة بين العقل المادى والعقل الفعال وأن وجودهما على هذه الهيئة الثنائية ليس إلا لأنهما مظهران من مظاهر النفس، كما يرفض

فكرة العقل المستفاد الذى ذكره غيره من الفلاسفة ، والذى ينجم برأيهم عن اتصال العقل الفعال بالعقل المادى ، وأطلق ابن رشد على هذه المرحلة العقلية إسم «العقل المكتسب» ويرى أنه ليس إلا العقل المادى وقد تحول من القوة إلى الفعل ، وأن اتصاله بالعقل الفعال ليس اتصال وجود بل اتصال إدراك ، وأنه يتألف من عنصرين هما العقل المادى والصور العقلية..ويوجز ابن رشد العمليات العقلية فى الإنسان بأن الصور المادية تصير أولا فى النفس صورا حسية ثم تتحول إلى صور خيالية فعقلية.

ونكتفى بهذا القدر من نظرة الفلاسفة لموضوع العقل ونستكمل الحديث عن باقى الموضوعات الأخرى المتعلقة بالعقل بدءا من موقع العقل من النفس.

موقع العقل فى الإنسان

الشائع لدى الناس أن العقل ماهو إلا تلك المعجزة التى أودعها الخالق سبحانه وتعالى فى ذلك الصندوق الصلب المحصن بعظام الجمجمة والذى هو (المخ) ، والعلماء بدورهم قد احتاروا فى العقل ، واختلفوا فيما بينهم حول موقعه فى الإنسان ، ومنهم من أقر بأنه لم يجده فى المخ ، فما المخ - بحسب رأيهم - سوى كتلة من آلاف البلايين من الخلايا المادية ، وليس إلا جهازا كهروكيميا لاصلة له بالتعقل أو العقلانية.

ولكن القرآن الكريم (وحى الله لخاتم رسله) قد حسم هذا الأمر بتحديد

موقع العقل في الإنسان بصريح القول وليس على سبيل المجاز ، وذلك في مواضع كثيرة في آياته الشريفة ، مثل قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمَّ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ آية ٤٦ سورة الحج .

وفيه قول صريح وإشارة قاطعة لا تقبل جدلا ولا نقاشاً بأن العقل محله القلب وليس هو مخ الإنسان .

كما وأن القلب هو محل التعلم الذى هو صميم عمل العقل ولا يتم إلا به ، وكذا هو محل التفقه والفهم والوعى . فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ آية ٩٣ سورة التوبة .
وقال جلّ شأنه :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ آية ١٧٩ سورة الأعراف .

وذلك تأكيد بأن القلوب هي محل الفهم والوعى والتفقه والتعلم التى هي جميعها عمليات عقلانية لا يقوم بها إلا العقل وحده ، وأما الحواس الأخرى كالبصر والسمع والذوق والشم .. إلخ فليست إلا روافد وموصلات تقوم بعمل الوسائط والمحسّات لتربط الكيان الإنسانى بالواقع المادى المحيط به ، بهذه

المجسات، يظل كل إنسان فى تواصلٍ إحساسى بمفردات الحياة الدنيا، لكن هذا التواصل لا يتجاوز ذلك الإحساس المادى يمكن تسجيله - أيضاً - بألة التصوير السينمائى أو غيرها ، بينما تنقصه تلك الصلة المعنوية العقلانية المفعمة بالوعى وبالمشاعر والمعانى ، والتي تأتى ثوًّا بمجرد وصول هذه المحسوسات لديوان للقلب ، حيث يتلقفها العقل ويُمجِّصها بقدراته وأدواته التى مكَّنه الله منها وهى : البديهة والمنطق والفهم والتفقه والتعقل والتدبر والاستيعاب.. إلخ ، فتعى النفس أمور الحياة الدنيا ، وتتعرف عليها ، وتدرك معانيها وأحوالها ، وتعى مدى موافقتها للنفس وللطرة أو مدى خطورتها عليها ، وبذلك، تتواصل مع أمور الدنيا تواصلا عاطفياً ، ثم تتعامل أو تتفاعل معها أو تنفعل بها أو تعرض عنها وفق نتائج هذا التمحيص العقلانى.. فإن لم تتحقق هذه الصلة العقلانية العاطفية فلا معنى لكل ما يحسه الإنسان من تلك الصور المادية والتي لا تتجاوز أشكال الصور المُجسَّمة التى يمكن أن تستقطبها المرأة أو يمكن انطباعها فى الأجسام المصقولة دون أن تعيها أو تتعرف عليها أو تعقلها أو تفهمها أو تدرك خطورتها من عدمه.

فضلا عن ذلك فإن آيات القرآن الكريم تؤكد بأن القلب هو أيضا المعنى بالأمور الوجدانية الفؤادية من حب وود ورحمة ورأفة التى تتدخل هى الأخرى فى عمل العقل .. فقال تعالى :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ۖ ﴾ من الآية آية ٢٧ سورة الحديد.

كذلك، القلوب هي موضع الأمور الأخرى كالشعور بسكينة النفس والطمأنينة والاعتقاد والإيمان وجميعها لا تنفصم عن العملية العقلية ، كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ آية ٤ سورة الفتح .. ، هؤلاء المؤمنين الذين أنزل الله السكينة في قلوبهم هم أيضا ذوى القلوب المطمئنة ، كما تشير الآية الشريفة من قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ آية ٢٨ سورة الرعد.. وتشير الآية هنا إلى أن القلب أيضا محل الطمأنينة .

والعقل لا يعمل بمفرده في معزل عن توجهات الفطرة الإنسانية ، فالذاكرة وحصيلة المعرفة تُدلى بدلوها في عمل العقل بما تختزن من الخبرات والتجارب التي لها تأثيرها المباشر في توجُّه العقل ، والفؤادية الإنسانية بما تذخر بالمشاعر والأحاسيس لا تقف هي الأخرى على حياد حينما نتدبر الأمور بعقولنا ، والفطرة على حالتها من صفو أو كدر هي الأخرى ليست في منأى عن العقل ولا العقل غير آبه بها .

والحقيقة أن عقل الإنسان معنًى وليس مبنًى ، ولا يمكن الإشارة إليه وتحديد موقعه على سبيل اليقين والدقة ، وإنما نستشعره حينما يحيك الأمر في صدورنا ، كما وأن القلب الذى ذكره القرآن ليس هو ذلك الجهاز الإعجازى الكائن فى القفص الصدرى الذى يضح الدم لأرجاء الجسم ويتلقاه ليضخه تباعا ، وإنما هو القلب المعنوى الذى تنتصب فيه حقيقة النفس الإنسانية.

ونحن نتفق مع الوصف الذى ذكره حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي فى كتابه (إحياء علوم الدين) بأن العقل (لطيفة نورانية) قد غرسها المولى سبحانه وتعالى فى قلوبنا لتبصر به خطانا فى حياتنا الدنيوية ، ولتوصلنا فى النهاية إلى دار السعادة فى الآخرة ، وذلك بعبادة الخالق سبحانه وتعالى وتعمير الأرض بالبناء والرقى والسلام والأمن .

محل العقل إذن، هو القلب ، أما المخ فليس إلا ملتقى إدراكات الحواس والجوارح التى نتواصل ونتفاعل بها مع عالمنا المادى ، حيث تتجمع فيه تلك الإدراكات والإحساسات لتتوحد فيه جميعها فى هيئة مكتملة وماثلة للواقع تماماً ، كما وأن له القدرة على إحالة تلك الصور المتحصلة فيه إلى لطائف غير مادية تناسب طبيعة القلب فيستجيب لها ويتفاعل معها ، ومخ الإنسان - على هذا النحو - يقوم بعمل همزة الوصل بين عالمين مختلفين ، هما عالمنا الخارجى المادى وعالمنا الداخلى المعنوى .

ولقد بين القرآن الكريم تلك الصلة الرابطة بين الحواس من جهة والإدراك العقلى من جهة أخرى ، وفى الآية الشريفة ١٧١ من سورة البقرة يضرب الله مثلاً للذين كفروا ، فمثّلهم كمثّل طائر الغراب الأعجم الذى ينطق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، فهم كفاقدى السمع والنطق والبصر والحواس ، وبالتالى، فلا عقل لهم .. فقال تعالى :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ آية ١٧١ سورة البقرة

وكذا، الآية الشريفة من سورة الأنفال تشير إلى من كان بلا حواس أو إدراكات فهو بلا عقل .. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ آية ٢٢ سورة الأنفال.

فالمخ - إذن - ليس هو العقل ، وإنما هو تلك المعجزة الخلقية ذات التركيبية المادية المؤلفة من عدة آلاف البلايين من الخلايا الهلامية شديدة التعقيد ، والتي تعمل من خلال موجات كهروكيميائية ومن خلال طاقات فائقة أخرى ومعقدة أشد التعقيد، والتي تتيح له القدرة على إدراك كل بادرة تصله من عالمنا المادى (عن طريق الحواس) المتواصلة به بمنظومة مُعَقَّدة من الخيوط العصبية الدقيقة والممتدة فى سائر أعضاء وأعضاء الجسد ، ثم يحيل تلك الصور من حالتها المادية إلى حالة غير مادية يستطيع القلب استقبالها وتمحيصها حتى يستقر على توجّه عقلانى بعينه يرتد ثانية إلى المخ الذى يقوم بدوره بتوجيه الجوارح للتفاعل مع الحدث الخارجى - وفق الأوامر العقلية - وفى دَوْرَةٍ شديدة الإحكام.

أفاق العقل

النفس الإنسانية وإن تبدو فى الظاهر متعددة المظهر (عقلا ، ومداركا ، وجوارحا ، وفؤادا ، وذاكرة ، وإرادة ، ووجدانا..) إلا أن النفس متحدة الجوهر ، وليس كل جزء فيها بمعزل عن الآخر ، فليس من انفصال أو انفصام بين تلك الأحوال أو القوى والنوازع ، وإنما فقط هناك تنوع فى الأحوال والوظائف

، فعقل الإنسان لا يعمل بمفرده فى منأى عن غرائز وأحوال النفس وانفعالاتها الأخرى ، وإنما يخضع دائماً لها ، بل وتتوثر هى الأخرى فيه تأثيراً بليغاً ومباشراً بمثل ما يؤثر هو فيها أيضاً ، فصفاء الفطرة أو تعكرها يلقى بالظلال على العقل ، وخزائن الذاكرة - أيضاً - لها تأثيرها المباشر على عمله بما تذخر بالوقائع والخبرات والأحداث والذكريات..وبالمثل فمخزون المعرفة يحتاج إليه العقل دائماً لينهل منه مايعينه وما يُعضد وجهته ، والفؤاد والوجدان هما أيضاً وبما فيهما من فيض المشاعر لا يقف أيهما على حياد لحظة إعمال العقل ، وإرادة الإنسان - كذلك - لا يستطيع العقل أن يخطو خطوة واحدة دون الإعتماد عليها فى القوة الدافعة له ، فقد تدفعه فى سبيل الحق أو قد تطيش به فى طرائق الغي..وإجمالاً : فحُيمة العقل ليست فى حاجة إلى كافة نوازع النفس وغرائزها فحسب ، ولكنها ترتكز وتعتمد عليها وتتثبت بها جميعها..وهذا ما نقصده من معنى التعبير (آفاق العقل) الذى اتخذناه عنواناً لهذه الفقرة.

والأمر قد لا يحتاج منا عناء البحث فى المختبرات ، وإنما التبصر الدائم فى أحوال الناس ، والنفاذ إلى نفوسهم والتطلع إلى انفعالاتهم يتسنى لنا أن ندرك أحوال العقل (آفاقه - موقعه من النفس - وآلية عمله..) ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴾ آية 21 سورة الذاريات.

وحتى نتعرف على تلك الآفاق العقلية بشئٍ من الاستفاضة سوف نعقد مقارنة بين عقليين على نقيض أحدهما عقل رشيد والثانى عقل غير رشيد ، لنستدل من هذه المقارنة المتفاوتة على أهم الفوارق بين عمل العقليين ونستدل

على مدى تأثر كل منهما بنوازع نفس صاحبه..وليكن اختيارنا بين عقل العالم كمثل للعقل الرشيد ، وعقل المجرم كنموذج للعقل غير الرشيد.

فنحن نرى أن عقل المجرم يقوده إلى المهالك ويُزديه في شر الأعمال ، ذلك لأن فطرته عتمة على غير صفاء ، فما تتراءى له الحقائق إلا أشباح بلا ملامح ، فتختلط عليه الأمور اختلاطاً شائكاً ، وتصيبه الحيرة ، ويقوده الوهم وسوء الظن، وتدفعه الخرافة إلى التخبط في ظلام الغي.. هذا عن فطرته ، فإذا ما تبصرنا وجدانه فلا نجده إلا كصندوق النفائات ملىء بِنَزَعَاتِ الْغِلِّ وَالْكُرهِ والبُغْضِ والحقد والحسد التي تدفعه دائماً إلى التخبط والطيش والسقوط المرة تلو الأخرى ، وبالمثل فإذا ماتفحصنا مخزون ذاكرته وحصيلة معرفته ، سنجدها تنضح بَعْطَنَ الخبرات وتصطرع بالتجارب الإنهزامية وتزدحم بالعقد النفسية والاجتماعية التي قد تقذف به إلى البغي والغى حيناً فحين ، أما عن إرادته فهي طائشة منفelte بلا ضابط ووقودها ليس إلا الهوى والغواية..فمثل ذلك العقل الذى تلاطمه تلك الأنواء العاصفة وهذى الأمواج العاتية وذاك الركام المصطنع ليس بوسعه أن يخطو حثيثاً في تدبير وأناة ، وإنما السقوط والعثرات المتتاليات هو مآله لا ريب ، ذلك لأن عقله صار هزيعاً مريضاً مقصي عن عرشه ، فاقد لسلطانه ، وصارت مملكة النفس في حالة متردية من الاضطراب والفوضى..أما عن المعمار النفسى فقد صار مُزَلْزَلاً آيلاً للسقوط وما بقى إلا رجّة أو دفعة يسيرة لينهار كلياً ويصير رُكاماً.

وعلى الجانب الآخر : فإننا نرى - وبجلاء - عقل العالم ، ذلك العقل المصون بصفاء فطرة صاحبه ، يتبصر به الحق ناصعا جليا ، بَيِّن العالم ، واضح الرؤى.. كما تبدو لنا خزائن ذاكرته الذهبية وفيض معرفته النفيسة تذخر بخبرات جليلة القدر ، رفيعة المنزلة ، سامقة المقام ، فإذا ماتكشفت لنا قَيِّينة وجدانه وأسرار فؤاده ما نجد لها إلا فياضة بالرحمة فَوَاحة برفيع الأحاسيس ورهف المشاعر ، ومتعطرة بمكارم الأدب وسمو الخلق وروح الحب وعبير المودة والسلام.. فإذا ما تجملت لنا إرادته المثابرة واجتهاده المتواصل وصبره الجميل وعزمه الأكيد ، ندرك من فورنا زُشد عقله الذى ينأى به عن الزلل ويمضى به فى سبيل الخير ويسمو به فى معراج الحقيقة بكامل الثقة والثبات والأناة مهما بلغ به الجهد والعناء.. فهذان عقلان على تقيض.. فهل يستويان ؟!.

شعلة العقل

وفى إطار متابعة الحديث عن آفاق العقل باعتباره قبس النور الذى تفضل الله به علينا ليسر لنا سُبُل الحياة الدنيا ، فمثله فى ذلك كمثل القنديل التى تقشع شعلته ظلمة الليل وتحيلها إلى نور جالٍ فنهتدى به ، فالعقل كذلك مسَّخَرٌ بأن يهديننا سُبُلنا فى ظُلمة حياتنا الدنيا.. وما القنديل الذى يضرب به هذا المثل إلا ذلك المصباح الذى عرفته الإنسانية منذ غابر الزمان وحتى عهد ليس ببعيد - كأحد رموز التاريخ الإنسانى حتى صار أيقونة ترمز بها لنور العلم والمعرفة

..وكما نعلم.. فإنه وعاء محكم ملىء بالزيت النقي ، تعلوه فوهة ضيقة مثبت فيها مشجب رأسى اسطوانى مُحكم - مثل الرقب ، هذا المشجب ممسك بالفتيل الذى يتدلى، من خلاله، فى وعاء الزيت ، ويبقى منه جزء يسير يطل للخارج أعلى المشجب، ويسمى بالذبالة ، تلك الذبالة هى التى تصير شعلة المصباح حينما نوقدها ، وطالما ظلت الشعلة متقددة فإنها تستمد طاقتها فى كل لحظة من زيت القنديل الذى يأتيا تباعا وحثيثا وبقدر منتظم من خلال الفتيل المتدلى فى الزيت داخل القنديل.

وقد كان القنديل على هذا النحو قليل الفائدة لضعف الضوء المنبعث منه لأن شعلته كانت بلا حماية وكانت عرضة للهواء الذى يتلاعب بها، وكثيرا ما كان يجهب عليها ، هذا فضلا عن انبعاث الدخان الكثيف منها ، وكان القنديل بهذه الهيئة أقرب لأن يكون باعثا للدخان الأسود أكثر منه مَصْدَر ضوءٍ .. ومع الزمن حدث تطوُّر له حيث أضيف للشعلة زجاجة بللورية شفافة تحميها من وطأة الريح وتنظّم مرور الهواء لها على قدر احتياجها دون زيادة أو نقصان ، وأضحت الشعلة بتلك الحماية البللورية الشفافة أكثر ثباتاً وتألّقاً ، وامتنع الدخان إلا اليسير الذى لانستشعره ، وصار أكثر فائدة ، وما بين هذا المصباح ذو الزجاج البللورية الشفافة وبين العقل أمور عديدة متشابهة تجلّى لنا طبيعة العقل وآفاقه.

• فالعقل فى الإنسان كمثل الشعلة من القنديل .. كلاهما يحتل المكانة الأسمى.

- وشعلة العقل ما هي إلا قبس من نور الخالق سبحانه وتعالى ، قد تجلّى به على مخلوقه المكرّم ليلتمس به السُّبل وليهتدى به في ظلام الدنيا ، وهو في حاجة دائماً إلى الحماية مثله مثل شعلة المصباح ، لذا..فقد نهى الدين عن كل ما يمس هذا القبس النوراني باعتباره منحة من منح الله المباركة لبنى الإنسان ، وقد حرّم الدين كل ما يؤدى إلى إضعاف العقل أو إخماره كالمخدرات والمسكرات والكحوليات ، حتى أنه لم ينهى عن تناولها فحسب بل أمر بالابتعاد عنها واجتنابها ونهى عن كل فعل يُقَرِّب المرء منها ، كما أمر الإنسان بالابتعاد عن الشعوذة والأباطيل والخزعبلات حماية للعقل..ونهى كذلك عن التهادى في الانفعالات العاطفية وعدم الرضوخ لزوابع الهوى بقصد حماية شعلة العقل الكريمة.
- وإرادة الإنسان مَطِيَّة العقل مثلها كمثل مشجب المصباح الذى تمتطيه الشعلة فى الوقت الذى يُحكم فيه قبضته على الفتيل وعلى الدُّبالة حتى لا تنفلت وتغرق هباءً فى باطن المصباح.
- والعقل فى الإنسان يعتمد على جبل الذاكرة وعلى خزين المعرفة ويتغذى على ما فيها من خلاصة الخبرات والتجارب والحكم المصفاه ، مثله فى ذلك مثل شعلة المصباح التى تعتمد على جبل الفتيل المتدلى بالزيت المصفى..ولك أن نتخيّل كيف يعمل عقل إنسان قد فَقَدَ ذاكرته ، وكيف يعمل مصباح دون الفتيل.

- وشُعْله المصباح تستمد طاقتها الضوئية من مخزون الزيت المصفى ، والعقل كذلك يستمد وقوده من الشجرة الإنسانية المباركة وبما تحتزن فيها من حكمة رشيدة وعِظَاتٍ وعِبَرٍ أثيرة على مر التاريخ.
- وبدون الزجاجاة البللورية تكون الشعلة فى مهب الريح يتلاعب بها ويحيلها إلى باعث دخان أسود ، ويعصف بها فى الأغلب ، مثلها فى ذلك كمثل العقل حينما تتلاعب به أنواء الغضب ، ورياح الإنفعالات ، وزوابع العاطفة ، وأعاصير الهوى التى تضعفه وتُثَبِّتُه وتعصف به ما لم يتحصن المرء بصفو ونقاء فطرته ، فصفاء الفطرة يلم شتات الفكر ويزيد من تألق العقل ، ويُجهز على شواذ الفكر وغرائبه وأباطيله ، ويقضى على الظنون الهالكة ويحكم الانفعالات الزائدة.

نعود للمصباح..فقدما كان الأهل يتعهدون زجاجته لإزالة ما يتراكم عليها من رواسب دخانية عاتمة لتعيد لها ألقها من جديد..والعقل كذلك فى حاجة دائما إلى إزالة ما قد يتراكم عليه من سِنَاجِ الهوى وعممة الانفعالات ودخائن الشيطان ، ومن ظلمة الجهل وأدران التخلف ورواسب العادات والتقاليد ، وذلك بأن نتعهد الفطرة وننقيها من أى شائبة ونصفيها من ذميم الخلق ، وذلك بالدعوة إلى مكارم الأخلاق وإلى صحيح الدين ، مع دوام التواصل بالمرحمة والحق والصبر ، وغرس وتزكية الذوق العام ، وإشاعة السكينة والأمان.

غريسة العقل

بالنظر للعقل باعتباره غريسةً فطريةً فهو في حاجة للرعاية الدائمة لكي ينمو في تربة النفس ويؤتي ثمرته ، مثله في ذلك مثل غريسة النبات التي تحتاج للرعاية الدائمة لكي تنمو وتورف وتزهر وتؤتي ثمارها وظلالها، ولكي نعقد مقارنة بين غريسة العقل وغريسة النبات التي نضرب بها هذا المثل نذكر بعض خصائص المشتركة في النباتات ، حيث يتثبت كل منها في التربة بجذورٍ مزودة بشعيرات دقيقة لها القدرة على امتصاص الغذاء الذائب في التربة ، ثم تصعد عصارتها إلى الساق والأوراق والأزهار والثمار ، فينمو النبات مع الوقت ويملأ الظلال الوارفة ويغدق علينا بثماره الياقة..ومن إعجاز خلق الله فإن لكل نبات خصوصية وتفرد ، وأحد مظاهر هذه الخصوصية أنه يتعرف على كافة أصناف العصارة الغذائية الذائبة في التربة ويفرزها ثم لا ينتقى منها إلا ما يناسبه فقط ، وذلك أيضاً مثل ما يحدث لكل إنسان مع بيئته ، فكل فرد له شخصيته الفريدة ، وكذلك العقل له خصوصية وتفرد وذاتية الفرد نفسه ، حيث يتأثر ويتفاعل وينفعل مع البيئة والمجتمع بحسب شخصية صاحبه ، وتتوالى على خزينة ذاكرته - مع الزمن - كافة الأحداث والوقائع التي تعترض الفرد أو يتعرض هو لها ، فيسترحق وجدانه خلاصة المبادئ والقيم المجتمعية بحسب انطباعاته الذاتية عنها ، وتختلف هذه الانفعالات وتتفاوت من شخص لآخر - فقد يرتضى أحدهم بأمرٍ لا يرتضيه الآخر ، وقد يهوى شيئاً لا يستهوى غيره ، ومع تراكم الذكريات والمعاني الفؤادية والقيم

الوجدانية تتكون الشخصية الفردية وترتخ الذاتية ويتجلى الفرد كشخصية متفردة لا طباق لها.

وبالنسبة للنبات فصلاحيه التربة شرط هام لى ينمو ويورق ويثمر ، ومن أهم خواص التربة الصالحة أنها غير صلبة وغير رخوة أو زلقة وإنما وسط بين ذلك بحيث يسهل تمهيدها وتسويتها وتقليبها وتهويتها ، وأن تقبل الرى دون أن تفقد المياه ولا تمسكها فتضر بالنبات ، ومن المهم أيضا أن تكون التربة خالية من أى شوائب أو مواد مضره للنبات ، وفى كافة الأحوال وأغلبها يجب أن يتدخل الإنسان لتمهيد التربة وتنقيتها قبل الغرس.. وحال المجتمع الذى ينشأ فيه كل فرد كحال الثرة للنبات ، ويجب أن يكون المجتمع صالحا لنشأة الفرد صلاحيه التربة لاستنبات للنبات.

وفى المجموع الحضرى للنبات تنتشر تلك البلاستيدات الخضراء التى تضيف عليه اللون الأخضر - وهى إحدى معجزات الخالق سبحانه وتعالى - فلها القدرة على امتصاص ثانى أكسيد الكربون مع ضوء الشمس (نهارا) لتحويل العصارة التى تصلها من التربة غذاء فيما يسمى بعملية (التمثيل الضوئى).. وتلك فكرة موجزة عن النبات - عَرسَةُ الأرض ، ومثله فى ذلك مثل العقل "غرسه الله فى الفطرة الإنسانية" ، وبإيجاز نذكر أوجه التشابه والتلاقى بينهما:

- فلكى تنمو غرسه العقل وتؤتى ثمارها فهى فى حاجة إلى تربة مجتمعية صالحة تسودها الرحمة والأخلاق الحميدة وتزخر بالفضائل والمبادئ

والقيم النبيلة.

- والفطرة الإنسانية (محل غرسه العقل في النفس) في حاجة دائما إلى تنقيتها من شوائب الوهم والخرافة ومن حشائش العادات والتقاليد الجاهلية البالية ومن جلا ميد الجهل.
- وغرسه العقل في حاجة إلى الحرية مثلها مثل حاجة النبات إلى الهواء وأشعة الشمس.
- ومثل ما يستمد النبات طاقته من ضوء الشمس فالعقل يستمد طاقته من التجارب والخبرات الإنسانية إلى جانب هُدى السماء الذى يأتيها صحة رُسل الله الكرام.
- وكحاجة النبات لماء الرى ، فالعقل كذلك رواءه المعرفة والعلم.. فبهما يزكو وينمو ويتعاضم قدره ويؤتى ثمرته ، وبدونهما يضعف ويذبل وربما يموت ولا نتحصل منه على فائدة.
- والنبات بعد أن يمنحنا الثمار والظلال ، نتحصل منه على البذور التى نعيد غرسها ثانية فى الأرض فتنبت وتنمو وتثمر من جديد ، والبذرة على صورتها المعتادة عبارة عن فلقتين متصلتين فى موضع يبرز منه نتوء يسمى (الجنين) أو البادرة ، وعند غرس البذرة وريها بالماء يأخذ هذا الجنين فى النمو معتمدا على ما فى الفلقتين من غذاء - شاء الله تعالى أن يدخره لهذه اللحظة - حتى يصير بُرْعُما صغيرا له جَذِيرًا ومجموعا خضريا ، ثم ينمو تباعا بعد ذلك معتمدا على نفسه

حتى يصير شجرة باسقة..ومثله في ذلك مثل عقل الإنسان ، فإن الله سبحانه وتعالى قد خلق له جنين الفكر وبادرته ، وهي البديهيّات التي يبدأ بها كل إنسان تشكيل بناءه المعرفي منذ قدومه للدنيا ، هذه البديهيّات تمثل الأحرف الأولى للغة العقل ، وهي التي نتعدها برواء المعرفة فتنمو وتتعاظم مع الزمن وتثمر الحكمة والمعارف والعلوم.. (وسوف نتحدث عنها لاحقا بشيء من التفصيل في موضعها من هذا الباب).

* * * * *

الآلية العقلية

السؤال الذي نريد أن نطرحه الآن هو عن ميكانيزم عمل العقل..أو الكيفية التي يتعامل بها العقل مع أمور الحياة ، وكيف يتفاعل معها أو ينفعل بها؟! وبمعنى آخر، ماذا عن الآلية العقلية ؟ ، وإن كنت أعلم أن الأمر يبدو من وهلة الأولى بالغ العسر والصعوبة ، ولكن بشيء من التبصر في أنفسنا وبإمعان النظر في ردود أفعالنا قد يتيسر لنا الأمر..فبالنظر في أحوال العقل نراه على أحد حالين : فإمّا أن يتعامل مع أمور الحياة المحيطة به خارج الذات الإنسانية ، أو يفرض هيمنته داخل النفس الواحدة بمواجهته لشبّة الغرائز والانفعالات ، والتي يمكن اختصار الحديث عن هذه الحالة الأخيرة في أن النفس مملكة وسلطانها العقل ، ولن يقدر العقل على فرض هيمنته على سائر أرجاء النفس

ما لم يتمكن من صولجان سلطانه وما لم يتثبت هذا السلطان ، وإلا ضاع هذا المُلْك وانهارت المملكة وتقوضت أركانها ، وتحولت إلى عالم من الفوضى..ولهذا سنكتفى بالحديث بالتفصيل اللازم عن الآلية العقلية خارج الذات ، وبمعنى آخر، عن التعاملات العقلية مع أحوال الدنيا خارج النفس ، ثم نتعرض لاحقاً للعلاقة بين العقل وباقي نوازع النفس.

وبالبدية التي قد تقودنا إلى التعرّف على هذه الآلية هي أن ننظر أولاً في الكيفية التي يتصل بها الإنسان مع عالمه الخارجى ، والتي يمكن تقسيمها إلى أربع مراحل متتابعة ، تُشكّل كل منها قاعدة للمرحلة التي تليها..هذه المراحل الأربع تبدأ من مرحلة الإحساس - فرحلة الشعور - ثم مرحلة الإدراك - وتنتهى بمرحلة الانفعال العقلى.

سنتحدث عن هذه المراحل بشيء من التفصيل ، بيد أننا رأينا أن يكون حديثنا عن مرحلتى الإحساس والشعور فى نطاق واحد ذلك لأن النفس لا تدرك الأشياء المادية إلا مع اكتمال المرحلتين معا ، ومن جهة أخرى فإن اختيارنا لهذا النهج إنما جاء قياساً للأسلوب الذى تحدث به القرآن الكريم عن المرحلتين معاً كما سنرى لاحقاً.

أولاً : من حيث الإحساس والشعور

(أ) . الإحساس

الحق أن جَوْهَر النفس الإنسانية هو جوهر غيبي ، ولا يستطيع التعامل مع الأحوال المادية للدنيا ما لم يُمَهِّد الله الفِطْرَةَ لذلك ، ومن فضله تعالى أن زَوَّد النفس بمجسَّات رهيبة على هيئة أجهزة حِسِّية شديدة الدقة والتعقيد مثل : (السَّمْعُ ، البَصَرُ ، اللمس ، الشم ، الذَّوْق .. إلخ) ، هذه المجسات هي المسؤولة عن تحقيق الاتصال بين النفس وواقع الحياة ، أما عن كيفية هذا الاتصال فتلك مسائل علمية شديدة التخصص ولها علماءها الأجلاء ، وليس لغير المؤهلين من أمثالي أن يتطرقوا لها إلا استحياءً.. فقط، ومن زاوية الثقافة العامة نستطيع القول في إيجاز شديد: بأن كل حاسة من هذه الحواس مزوَّدة بملايين الخلايا العصبية بالغة الدقة والحساسية ، وهذه الخلايا الفذة لها القُدرة الإعجازية على إحالة أى خواص طبيعية تقع في نطاق عملها إلى نبضات كهروكيميائية متنوعة التردُّد ، وعلى أثر ذلك تنطلق هذه النبضات في رحلة خاطفة إلى المخ من خلال منظومة التوصيلات العصبية الدقيقة ، حيث تتجمع هناك في اتساقٍ تَرْدُدى يماثل الواقع تماماً، ويلطابقه ، وبذا، تُدرك النفس وجود الأشياء على هيئتها المجسمة والمطابقة للواقع تماماً.. على أن الأمر يتوقف - لحظتُئذٍ - على مجرد إحساس الفرد بوجود هذه الأشياء ، وعلى نفس هيئتها التي أدركتها النفس

..مجرد إحساس.

الحواس إذن، هي وسائل النفس لاستقطاب مفردات وأحوال الحياة الدنيا من حولها ، وكل منها منوط به أن يستنسخ أحد الحواس الطبيعية والأحوال والصفات الظاهرية للشيء المادى المتعرض لها..وبذا تستطيع النفس أن تستنسخ صورة مجسمة ومماثلة ومكتملة لظاهر الواقع وبمكتمل عناصرها الطبيعية شكلا ولونا وحالا وحركة وصوتا ورائحة ومذاقا..إلخ ، وهذا هو عمل المخ ومساعدته من الحواس والأعصاب..إنه مجرد إحساس مادى..مجرد مرحلة استنساخ ، وفي ذات اللحظة فإن المُخ يقوم بعمل آخر ، حيث يتوَلَّى إحالة هذه الصور المستنسخة إلى ما يمكن تسميته (بأشباه المادة) ليتسنى للقلب التعامل معها وفقا لجوهره الغيبي.

هذا عن إحساس النفس بأحوال الحياة الدنيا ، وهي مرحلة مُحَيَّة ، يليها مباشرة بداية المراحل القلبية ، وأولها هي مرحلة الشعور.

بيد أن عمل الحواس لا يزيد كثيرا عن عمل المرأة المصقولة التي يقف دورها عند الاستقطاب..ليس إلا! ، لكن، هل استوعبت النفس معنى تلك الصور الدالة على الأحوال الخارجية؟..وهل بإمكانها أن تتعرف على مدى خطورتها أو صلاحها للفطرة؟..وما هو موقف الفرد منها؟..هل تحظى تلك الصور برضى النفس؟ ، أم أنها جديرة بالرفض والإعراض والنفور؟!..لابد إذن، من وجود خاصة قلبية أخرى تُمَكِّن الإنسان من الوعى بمدى أهمية هذه الصور..وتلك هي مرحلة الشعور ، وبذلك، فإن "الشعور" مرحلة قلبية أعمق من الإحساس ،

ذلك لأنه يُمكن النفس من أن تعي المعنى من وراء تلك الصُور المستقطبة لتتياً
هى للتعامل معها وفق صلاحها أو خطورتها عليها وعلى الفطرة.
وننتقل - إذن - للحديث عن هذا الشعور بشيء من التفصيل.

(ب) . الشعور

الشعور هو المرحلة التى ترتبط فيها النفس ارتباطاً عاطفياً مع الصُور
المستنسخة ، فإما أن تَرْضَى بها وتطمئن إليها ، وإما أن تأبأها وتنفر منها أو
تعرض عنها ، وبذلك، فرحلة الشعور أشبه بوقفة يسيرة على بوابة القلب حتى
تتفحص النفس تلك الصُور المستقطبة وتتعرف على هويتها باعتبارها وافدة
على مملكتها.. وذلك، بمثل ما يحدث بمنافذ الدول من استيقاف كل قادمٍ للتعرف
على هويته وفحص حالته قبل أن يُصرَّح له بالمرور أو يُمنع من الدخول، بحسب
خطورته أو عدمها.

وقد يرى البعض ترادُفاً فى معنى (الإحساس) و (الشعور) ، واستخدامنا
لللفظين قد يثير شيئاً من الخلطة وسوء الفهم.. ومن ثم يلزم استجلاء حقيقة معنى
كل منهما.. فالإحساس ليس إلا مجرد اتصال مَادى يقوم به المخ عن طريق
الحواس والمنظومة العصبية! ، أما الشُعُور فيأتى مع مرور تلك الصور على
الفؤاد - باعتباره مَنْقَذ القلب - ليتعرف على مغزاها وليحقق الوعي بها وإظهار

المشاعر القلبية عنها ، هذا الشعور قد يكون علامة انجذاب ووافق مع هذه الصور ، كالرضى / القبول / الأمان / الحب .. إلخ ، أو يكون علامة على النفرة والإعراض كالإشمئزاز / البغض / الكره / الخوف / الرعب / الفزع .. إلخ .

ويمكن إبراز أهم الفوارق بين الإحساس والشعور فى أن الحواس مهمتها طباعة الصور الخارجية على صفحة النفس فتحسبها الذات ، مثلها فى ذلك مثل صورة الخاتم التى تطبع على المستندات ، إنها مجرد علامة يتركها الخاتم ، لا أكثر! ، أما الشعور فهو أكثر بُعداً من مجرد كونه بصمة شكلية ، ومثله فى ذلك مثل الصفة الرسمية والصيغة الإلزامية والاستحقاقات القانونية المترتبة على وجود هذه البصمة .

ولتقريب المعنى أكثر نضرب مثالا عمّا يحدث بين الشاة والذئب ، وما يحدث بينها وبين وليدها ، فعندما تفاجأ الشاة بوجود الذئب ، فلا يقف الأمر عند انتزاع الصورة الدالة عليه ، بل تأتى مرحلة تالية تستدعى فيها تلك الصورة حالة شعورية غريزية ثانوية فى فطرة هذا النوع من الدواب ، فترتعد فرائسها وتمتلى فزعاً وزعجاً ، وتشعر من لحظتها بهؤل الخطر المُدْهِم ، ومن فورها تنزع للهرب .. فى حين ما إذا شعرت بوليدها - الذى غاب عنها بعض الوقت - فإنها تفيض حنانا ورحمة وعطفاً وتقبل عليه فى تودةٍ وسَكينةٍ وعطف .. فصورة الذئب أو صورة الوليد لم تكن إلا إحساساً ، أما ما (استدعته) تلك الصورة من

مشاعر الخوف والفزع أو مشاعر الرحمة والحنان فذلك هو "الشعور" الذى يأتى عقب مرحلة الإحساس مباشرة.

وسبحان الخالق البديع الذى استودع فطرة كافة المخلوقات الواعية براجاً معلوماتية غريزية بكل الاحتمالات المرتبطة بحياتها ، هذا البرنامج الإلهى أشبه (بالسوفت وير) الذى نعرفه فى عوالم الحاسبات الآلية، لكنه مُعد إعداداً إلهياً مسبقاً ، ومزوّد بكافة المعلومات وكافة الاحتمالات المرتقبة التى هى نافعة لفطرة كل نوع ، وكذلك كافة المعلومات الأخرى التى تشكل خطراً عليها، فيرضى المخلوق بالأولى ويُقبل عليها ، ويأتى الثانية وينفّر منها ، إنه نداء غريزى فحواه أن : " هذا خطر فلا تُقدِّم عليه وانفر منه ، وهذا صالح فلا بأس به " ..والحق أننا نجد هذا الانفعال الغريزى ينضح على تصرفات المخلوق منذ لحظة ميلاده الأولى حيث ينشغل فى تحسُّس ثدى الأم عقب مولده مباشرة ، وهو الذى يُشعره بالأمان حال وجوده فى رحاب الأم أو بين أفراد القطيع ، وهو الذى يُحذّره بخطورة ابتعاده عنهم ..إنها هداية ربانية لكل الخلائق ، وسبحان الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ..﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) ﴾ سورة طه .. ، وبذلك فالشعور، انفعال قلبى لحظى يأتى عقب الإحساس بالصورة حتى تتعرف النفس عليها وتُحدّد موقفها منها..وذلكم هو عمل الفؤاد الذى يذكره القرآن الكريم دائماً على أعقاب ذكره (السمع والبصر (باعتبارهما من أهم أدوات الحس . (وسوف نتناول موضوع الفؤاد بمزي من

التفصيل فى موضعه من هذا الباب).

وبعد أن تحدثنا عن الإحساس والشعور كمرحلة أولى فى تعامل النفس خارج الذات ، وقد تبين لنا من خلالها أن العقل لم يتدخل بأى انفعال فى هذه المرحلة ، وموقفه منها موقف المطلع المراقب فقط ، فالحدث ما زال فى مرحلة الاستقطاب وفى بدء رحلته للوصول لأعماق النفس من خلال برزخ يبدأ من الحواس فالأعصاب فالخ فالفؤاد ليتحول فى نهايتها من مجرد حدث مادى إلى لطائف ومعانٍ ، وهنا تبدأ مرحلة الإدراك والتدخل العقلى.

ثانيا : مرحلة "الإدراك" العقلية

وتأتى هذه المرحلة عقب الشعور بالحدث وبعد تحديد موقف النفس منه ، والأحداث عموماً لا يخرج أمرها عن ثلاث حالات : فإما أن تتقبله النفس عن رضى / أو يكون مرفوضا بالنسبة لها / أو يكون من الوقائع البسيطة التى لا ضرر منها ولا نفعاً فلا تأبه له النفس ولا يتمعن فيه العقل ، فالعقل لا يتدخل إلا فى الأمور التى تهتم الإنسان أو التى تُشكّل له أمراً ذا بال ، أما الأشياء المهملة فلا شأن للعقل بها ولا يعنيه أمرها ، وعمل العقل فى هذه المرحلة هو أن يتلقى الصور المستقطبة بعد استحالتها من الحالة المادية إلى الحالة "اللامادية" أو "أشباه المادة" ، فيتناولها بأدواته العقلية ووفقا لطبيعته الغيبية، باعتبارها "معقولات".

ولتفصيل هذه المرحلة نقول : أن وجودنا ذو صفة إزدواجية، حيث أننا نُشرف على عالمي الغيب والشهادة في آن واحد ، فلنا وجودنا المادي على الحالة الجسدية في الوقت الذي نحمل في أعماقنا قلباً نورانياً متصلاً بعالم الغيب وغير منفصم عنه.. هذه الإزدواجية في الكيان الواحد تلزم وجود همزة وصل ذات وجهين لتوصل بين شطري النفس. ويمكن التفرقة هنا بين حالات ثلاث :

١ - الحالة الوجدانية : الحق أن أول ما يتجلى لنا من عمل العقل مع الأمور الخارجية هي أنه لا يتعامل معها بعيداً عن أحوال النفس وعن شخصية الفرد ذاته ، ذلك لأن الوجدان يتدخل من فوره ويصبغ الحدث بصبغته ، لذلك فالحالة المعنوية للحدث الواحد تختلف من شخص لآخر ، وتختلف كذلك في الشخص الواحد من وقت لآخر حسب حالته المزاجية ، فقد يقف أمام الحدث أفراد كثيرون فترى واحداً ينجذب له ويؤخذ به أخذاً شديداً ، وترى الثاني يمتد شفتيه أو يتفوه بكلمات تتم عن عدم اكتراثه ، وثالث قد لا يعنيه هذا الأمر ولا يأبه له بالمرّة ولا يشغل له بالاً لأنه يكون منشغل - حينها - بأمراً آخر ذو شأن أعظم ، في حين قد نجد شخصاً آخر لا ينشغل بالحدث ذاته بقدر انشغاله بالأسباب التي أودت إليه أو بنتائج المنتظرة أو بالحالة النفسية للشخص المتسبب فيه.. وهكذا.

٢ - الحالة الدماغية : عقب تحقيق الشعور بالحدث ، تشغل النفس به للحظة خاطفة لمعايرته ، ذلك لأن الفطرة قد جُبِلت على الانجذاب لكل ما هو صالح للنفس والنفور مما هو ضار أو هالك ، وبذلك فإنها مأمورة بالإقبال

على كل ما كان في صالحها والنفرة من كل ما يشكل ضرراً أو خطراً عليها ، فأما الأولى : فهي من جانب السموّ كالخير ، والرحمة ، والعدل ، والحق ، والجمال ، والأمن... إلخ ، وأما الثانية : فهي من جانب الدنو كالظلم ، والجور ، والبغى ، والفحش ، والمنكر ، والقبح ، والفوضى ، والقسوة... إلخ ؛ ولقاء ذلك يتخلق في النفس مشاعر قد تكون جاذبة كالرضى / الحب / الود / العطف.. إلخ إذا كان الحدث منتمياً للطائفة الأولى - أو مشاعر نافرة مثل : الكره / البغض / العداوة / الخوف / الرعب / الغضب.. إلخ إذا كان الحدث منتمياً للطائفة الأخرى ، وهذه الآثار العاطفية التي تتركها الأحداث في النفس يتخذها العقل كقاعدة للتعامل معه الحدث.. هي - إذن - بداية التعرف العقلي للواقع. والتي تتحول الأحداث حينها من مجرد "وقائع" مادية إلى "معقولات" على هيئة لطائف معنوية يمكن للعقل أن يتعامل معها وفقاً لطبيعته ، وبذلك فإن هذه المرحلة تفرض نفسها على العقل دون أن يجتهد هو في تحصيلها ، وموقف العقل منها لا يتعدى موقف المراقب لا أكثر ، وإنما التدخل العقلي الفعلي يبدأ في المرحلة الذهنية التالية.

٣ - الحالة الذهنية : في هذه الحالة يبدأ العقل انفعاله وتفاعله مع الحدث ، سواء باستجماع العزم وتجنييد الإرادة لمواجهة ، أو بالتفكير في أسلوب ووسيلة التعامل معه ، أو مراوضته ، أو البحث عن دوافعه وأسبابه ومسبباته ونتائج ومدى ارتباط الأسباب بالنتائج ، وتقليب جميع الأمور المتعلقة به على كافة جوانبها.. في هذه المرحلة فإن العقل يتهياً ويستعد ويعدّ

عُدَّتْهُ للوثوب على الحدث.

وبذا يمكن إيجاز مراحل تَعَقُّل الأحداث الخارجية إلى أربعة مراحل ،
ثلاثة منها بمثابة إعداد وتهيئة الحدث لإدراجه - آخر الأمر - في نطاق عمل
العقل. وهى : الاستقطاب ، الإحساس والشعور ، ثم استحضار معنى الحدث
، ثم أخيراً إحالته إلى الحالة اللامادية كي يتعامل معه العقل وفقاً لطبيعته
الغيبية .

وحتى لا يختلط الأمر على القارئ نضرب مثالا نبين فيه التفرقة بين
المحسوسات، والمشاعر، والمعاني، والمعقولات : فحينما يرى أحدنا قطعة من أبحار
الرخام ملقاة بين بقايا قطع كثيرة من الكسر الفائض ، ربما لا يعنيه أمرها ، فهى
من الأشياء التى لا يؤبه لها ، بينما يختلف الأمر إذا ما تناول تلك القطعة المهمة
مثال حاذق فيصنع منها تمثالا عجيباً يعبر عن الأمومة، مثلاً، له من الكمال ما
يفيض بهاءً وسحراً خلافاً.. فقطعة الرخام فى حالتها المهمة ليست إلا شيئاً مادياً
”محسوساً“ ، بيد أن النفس لا تنشغل به ، لكن بعد استحالتها إلى تمثال مدهش
عجيب ، فقد تحوّل - حينئذٍ - من مجرد شئ ”محسوس“ إلى حالة شعورية -
حيث تتعلق النفس به بفيض من ”مشاعر“ الإعجاب المريحة للنفس.. فإذا
شاهد التمثال أحد المولعين بهذا النوع من الفنون فسيتعدى الإعجاب به إلى
مرحلة الإنفعال العقلانى معه ، ويتساءل صاحبنا هذا عَمَّنْ أبدع التمثال؟..
وكيف له أن يأتيها بهذه البراعة؟، وهل صقلت موهبته بالدراسة؟!.. وهل يتغير
الحال لو كانت الخامة المستخدمة فى صنعه نوع آخر من الحجارة أو المعدن أو

الخشب..؟ فتلك تدخلات عقلية ، ويكون التمثال وقتها "معقولا" بالنسبة له .
وإلى هنا تنتهى مرحلة الإدراك العقلى لتبدأ مرحلة التفاعل العقلانى مع
الحدث.

ثالثا : مرحلة الإنفعال العقلى

الخالق الكريم سبحانه وتعالى قد زوّد عقل الإنسان بشحنات ثلاث
تعيّنه على التفاعل مع مفردات الحياة الدنيا ومع أحوالها ، وهى : (البديهيات
- ومُضنة الخُلُود - قَبَسُ الحقيقة).. بهذه الشحنات الكريمة قد تميّز الإنسان عن
سائر الخلق بالعقل المدرك الفعّال ، وبها استحق أن يكون خليفةً فى الأرض ،
وبها يستطيع أن يحكم أمور الحياة فيها بالحق ، وبفعلها، نال العقل زمام الحركة
الإنسانية فى عالم الشهادة ، ولولاها لما اهتدى كل منا سبيله فى الحياة الدنيا ،
ولأضحى الإنسان مثله كمثل باقى المخلوقات الدنيوية الأخرى بلا إرادة عاقلة أو
اختيار رشيد ، وسنتاول كل من هذه الشحنات بشىء من الإيجاز دون إسهاب
أو تفصيل لا يتسع له المقام.

(١) البديهيات :

من كرم الله تعالى أن زوّد الفطرة الإنسانية - دون باقى الخلق - بمبادئ
وقوانين وقواعد بديهية بسيطة تُمثّل الأبجديات الأولى للغة العقل ، وهى بمثابة

نواة المعرفة ، وتمثّل الأساس الذى تنبنى عليه المفاهيم العلمية والمعرفية والعقلية ، وإنها لمشتركة فى جميع الناس ، ونتخذها جميعاً كأدوات قياس نقيس بها حقائق الدنيا من حولنا ، ويبدأ عملها مع بدء الوعى ومنذ الطفولة الأولى..إنها منحة هداية تجلّى بها الله على كل نفس..﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ الآية 50 سورة طه .

وبذلك، فالبدئية هى نواة الفكر وبادرتة - مثلها كمثّل بادرة النبات - ولها القدرة على النماء تباعاً بقدر المعرفة التى تتزود بها..ويرى بعض العلماء أن منها ما هو غرسة فطرية ويأتى فعلها عفويّاً دون تعلّم ، ومنها ما هو ثمرة الملاحظة ، فن الأولى : أن الإنسان يعلم - بداهة - أن أنصاف الأشياء المتساوية متساوية كذلك ، وأن الأشياء المتطابقة متساوية أيضاً ، وأن الإثنين أكثر من الواحد ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن ما كان قديماً فليس حديثاً ، ومن البدييات التى تستقر بالنفس عبر الملاحظة : أن الأجسام التى لها ثِقَل تسقط من أعلى لأسفل ، وأن الأجسام الثابتة لا تتحرك إلا إذا تدخلت قوة مؤثرة تدفعها فى نفس إتجاه القوة ، ومنها أيضاً استحالة وجود إنسان واحد فى مكانين فى ذات الوقت ، ومنها كذلك المعرفة البدئية بالأضداد فما هو فوق فليس بأسفل ، وما كان فى الأمام فليس بالخلف ، والنور يبدد الظلام ، والشرب يطفىّ الظمأ..إلخ. وفى تعاملاتنا اليومية نجد أن العقل على حالين ، فإما أن يكون غير منفعل أو أن يكون منفعلاً ، فيكون بلا انفعال طالما كان الحدث موافقاً للبدئية ،

ويساوره القلق والانفعال إذا ما جاء الحدّث على خلاف مع البديهية أو كان مناقضاً لها ، ذلك لأن البديهيات هي قوانين عمل العقل ، فإذا ماتلاحظ لفرد أن جسمه له ثقل يصعد لأعلى ، فهذا حدّث مناقض للبديهية ، وهذا التناقض يُدهش النفس ويثير فيها قلقا ، فلا يتقبله العقل على مثل هذه الهيئته الغريبة ، فينتفض من فوره للبحث والتحقيق لمعرفة السبب الذى أدّى لهذا التناقض ، ويظل يساوره هذا القلق حتى يتكشف له السبب أو العلة أو الدليل ، وساعتئذ - فقط - يهدأ العقل ويعود لسكينته..فإن كان العقل على قدر من الرشد أو العلم ولم يكتفى بهذا التعليل فيظل يساوره القلق حتى يدرك أن تلك القوة كانت فى نفس اتجاه الحركة ، وأن مقدار هذه القوة المؤثرة كانت أكبر من وزن الجسم...وهكذا.

والملاحظ أنه كلما ازدادت حصيلة المعرفة زادت معها شحنة البديهية واشتد عزمها ، فإذا ما كان هذا الشخص أحد علمائنا المهتمين بعلوم الحركة ، فيستمر انفعاله وقلقه الذى يتفتق عن عدة أسئلة افتراضية صارخة مثل : ماذا لو كانت هناك قوة أخرى تدخلت للحد من حركة هذا الجسم الصاعد؟! ، وما أثر عوامل قوى الاحتكاك على حركته؟! ، وما هو مقدار تأثير قوى الجاذبية على صعود الجسم لأعلى؟! ، وما أثر ميل أو اتجاه أى قوة أخرى لها تأثيرها فى حركته؟! ، وكيف يمكن حساب مقدارها؟! ، وما هى سرعة الجسم وقتها؟! ، وما مقدار الزمن الذى يستغرقه؟! ، ومتى يتوقف عن حركته؟! ،...وهكذا يظل انفعاله على هذا النحو حتى يحصل بعد جهد دؤوب على الإجابات الشافية ، فيشفى

غليبه ويستقر ، ويهدأ معه القلب ويطمئن إلى حين..وذلك هو العقل الفتي
أو عقل العالم.

ومن جهة أخرى، فكما صَحَلَت المعرفة وَهَنَت معها الشحنة البديهية وَهَن
معها العقل الذى يكتفى بأقل القليل كمثّل عقل الطفل ، فليس من طاقته أن
يتحمل مزيد الانفعال ، وسرعان ما يدع القلق جانبا ويركن للراحة والهدوء
وربما ينشغل باللهو واللعب لأنه مازال عقلاً صغيراً فى طور التكوين ، أما إن
كان صاحبنا فى طور الشباب أو فى طور الرجولة واستسلم عقله لظلام الجهل
والخرفة والأباطيل وقَنِع بموقعه هنالك مع الصغار فذاك هو عقل الجاهل
، أما العقل الرشيد الفتي فلا اكتفاء لديه لأن بديته فتية كذلك ، وعقله
متعطش للحقيقة ولديه نهم لمزيد المعرفة ، وكلما ذاق لذة القرب من الحقيقة
ازداد اشتياقاً لها واشتد عزمها إليها ، وهكذا يظل ينهل العالم من العلم دونما
ارتواء ويظل فى حالة استغذاء للمعرفة دونما شبع..ذلكم هو العالم ، والمبدع ،
وصاحب الموهبة.

(٢) وَمَصَّةُ الْخُلُود :

فأما عن الشحنة العقلية الثانية فهى ”وَمَصَّةُ الْخُلُود“ الباسقة فى أعماق
القلب ، والعقل بطبيعته خالِدٌ خلُود القلب ، إلا أنه مُغَلَّفٌ بالجسد المادى
ومحاط بقوانين الكون وبنواميس الزمن ، وانفعالاته وآثاره ممتدة فى أحوال
الدنيا ، أى أن قاعدة انطلاقه خالدة ومجال عمله زمنى..إنه ذو وجهين مختلفين

إن لم يكونا متناقضين..لذا وَجِب وجود صيغة توافقية لعمل العقل لا تغفل هذين الوجهين..وهذا ما سيأتى بيانه :

نعود للعالم الذى ذكرناه آنفا والمشغول بقوانين الحركة..فالحق أن عقل عالمنا هذا لن يستطيع أن يقلّب الأمور على مختلف جوانبها بمجرد النظر فى نطاق الحدث اللحظى فقط ، ذلك لأن الحدث لا ينفصل عن مجرى الزمن ، بل يرتبط به ارتباطا وثيقا ، فله صلة بالماضى بسلسلة الأسباب التى أدت إلى وقوعه ، كما وأن له صلة امتدادية فى المستقبل بتسلسل النتائج المترتبة عليه ، فإن لم تكن للعقل القدرة على التراجع الزمنى واستجلاب الخبرات السابقة ، وما لم تكن له رؤية مستقبلية واضحة لتأثيرات الأحداث وما سينجم عنها من نتائج مستقبلية متوقعة فلن تكون له القدرة على التعامل مع الأحداث بالحكمة اللازمة وبالحق الواجب.

ولذلك فقد تفضل الله على الإنسان بأن جعل للنفس القدرة على تخزين الأحداث والخبرات والمعارف والعلوم المكتسبة سابقا فى موقع أمين من القلب ، وجعل للعقل إمكانية استرجاعها من وعائها كلما أراد..ذلك هو وعاء الذاكرة..وبالإضافة إلى هذا الإنسحاق للماضى فللعقل أيضا إمكانية استشراف المستقبل من خلال توقُّع النتائج المترتبة على الأحداث الآنية والمُربَّح حدوثها مستقبلا ومدى ارتباطها بهذه الأحداث.

والحق أن طبيعة العقل هي جوهر خالد بيننا آثاره مادية زمنية ، إلا إنه يستطيع معالجة هذا التناقض من خلال تكثيف الزمن ليكون أقرب لنهج الخلود ، بمعنى أنه يملك إمكانية الإحاطة بالماضى والحاضر والمستقبل معاً في لحظة معالجته لأى أمر..وعلى سبيل المثال : لو أن إنسانا بلا زاد قد ضل في فلاة حتى أوشك على الهلاك ، وقد عثر على بعض ثمار في شجرة عالية لا تطولها يده ، فالجوع الشديد - حينئذ - هو حالة زمنية آنية ، والهلاك الذى ينتظره هو أمرٌ مستقبلى ، فهتان لحظتان زمنيتان (حاضر ومستقبل) وينقصهما الماضى لاستكمال دورة الزمن ، وهنا يأتي دور العقل في إمكانية الانسحاق للماضى - من خلال وعاء الذاكرة - والبحث فيه عن الخبرات التى تعينه على معالجة تلك المحنة، فتأتى له بالنجدة حينما يتذكر إمكانية الاستعانة بعُود غُصن يابس لقطف الثمار، فإن لم يسعفه هذا العود يستعين مرة أخرى بالماضى لينقب فيه عن خبرة أخرى تهديه لأن يُنَبِّت في طرف العود جزء من غصن يشبه المخلب ليتمكن من نزع الثمار المنشودة، وسرعان ما يصل لمراده بمعاونة هذه الخبرات السابقة.. فالعقل هنا قد طوى الزمن كله في لحظة معالجته لهذا الأمر الخطير، وبدون هذه القدرة العقلية الفذة في تكثيف الزمن فلن يكون العقل مؤهلاً للتعامل مع الحياة الدنيا..على أن الأمر لا يقتصر على الخبرات الشخصية الذاتية وحدها ، فقد شاء الله أن يكون أحد توجّهات الفطرة على مر الزمن هو السعى للرقى والتقدم ونشود الحضارة، ولهذا فإن الأسرة الإنسانية قاطبة ومنذ عهد آدم "عليه السلام" وإلى اليوم تسعى للاحتفاظ بخبراتها ومعارفها وعلومها واختزان حكمتها

التراكمية مع الزمن للبناء عليها بغية التقدم والرقى ، ويمكن لكل إنسان أن يستعين بها إذا إراد.

(٣) قيس الحقيقة :

ثمة أمر آخر له تأثيره البالغ في آلية عمل العقل ، وهو غريزة التشوق الإنسانى نحو الحقيقة المطلقة التى عاينها آدم فى الجنة ، والتى بقى مثالها فى الفطرة ليتخذها العقل كأداة قياس لأحوال الدنيا ، ولتكون حافظا له نحو الحق .

فالحق المطلق ليس له وجود فى عالمنا المادى ، وما يمكن أن ندركه منه لا يتجاوز "عين اليقين" أو "علم اليقين" ، هى درجات تبدأ من الوهم والتخيل ثم الظن فالاحتمال فالترجيح فالاعتقاد ، ولذا، فالإدراك العقلى للحقيقة لا يكتمل على الدوام ، أما "حق اليقين" فله طبيعته الخالدة فى العالم الآخر ، والفارق بين يقين الدنيا واليقين الحق كمثّل الفارق بين رؤيانا فى نومنا ورؤيتنا فى صحونا... ف(الناسُ نيام فإذا ماتوا انتبهوا) حديث شريف..و" انتبهوا " هنا بمعنى أنهم أدركوا اليقين الحق الذى لم يلتبسوه مكتملا فى عالم الدنيا.. لهذا، فمهما بذل الإنسان الراشد من جهد فى سبيل الوصول للحقيقة فى حياته الدنيا فلن تكتمل درجة اطمئنان قلبه على تمامها ، لكنه يظل دائما فى رحلة لا تخلو أبداً من مساورة القلق، فإن أصابه شعور بالإطمئنان التام فإنما هو شعور كاذب لا ينم إلا على الغرور بالذات والجهل بالحقيقة .

والإنسانية تقضى أحقابا وقرونا لتتقدم خطوة قصيرة نحو الحقيقة المنشودة ، ولقد آمنت آلاف السنين بحقائق كاذبة مثل أن الأرض مُسَطَّحة وأنها ساكنة بلا حراك ، وهى مركز الكون جميعه ، إلى أن جاء الوقت الذى أثبت فيه العلم أن الأرض ليست مسطحة ولا ساكنة ولا هى مركز الكون ، بل هى فى حركة دائبة وليست إلا كوكب صغير ذو شكل شبه كروى يدور حول الشمس ضمن مجموعة من الكواكب الأخرى..هذا، رغم أن إحساسنا البصرى ما زال يقول بغير ذلك ، فالبصر محدود القدرة ، بل قد يُخدع أو يكذب أحيانا !! والخداع البصرى أمره معروف فنحن نرى الأشجار وأعمدة التلغراف فى حالة حركة سريعة إذا ما نظرنا من نافذة قطار منطلق ، فى حين أننا نشعر وقتها بأننا نجلس على مقاعد ساكنة ..كذلك فالمدارك والحواس كافة، قدراتها محدودة وليس فى إمكانها أن تمنحنا اليقين الحق.

خلاصة القول أن العقل ذو شطرين غير متجانسين ، فجُوهَره منغمسٌ فى عالم الحق المُطلق - بينما وظيفته وآثاره ممتدة فى عالم الدنيا المفتقر للحقيقة المطلقة ، لذا فإن العقل فى قلقٍ لا ينقطع بسبب عدم التجانس هذا ، لكنه يتشوّف دائما للحقيقة المكتملة بيئد أنه لا يستطيع إدراكها ،..وقريبا من هذا المعنى يقول الأديب والمفكر العربى الكبير / توفيق الحكيم فى كتابه : (تحت شمس الفكر) فى سياق الفصل الأول من الباب الأول ما نصّه : (فالعقل لا يدرى إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه ، والحقيقة العقلية ليست الحقيقة

المطلقة وليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته ، فإذا كانت الحقيقة مرجعها القلب ، فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب..)، ويضيف المفكر الكبير بقوله: (..فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس ، ومن يُحِثِّل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام ، فالحقيقة العقلية أو العلمية شيء والحقيقة الإحساسية أو الدينية شيء آخر) ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التشوق العقلي للحق المطلق في سورة البقرة حينما أراد النبي إبراهيم (عليه السلام) أن يحصل على الدليل العقلي لكيفية إحياء الله للموتى ، ليس من ضعف إيمان ولكن لكي يطمئن قلبه القلق والمفطور على غريزة التشوق لحق اليقين، حيث قال لتعليل طلبه : ﴿ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ من الآية 260 سورة البقرة.

وبذا نكون قد استكملنا الحديث عن الآلية العقلية مع أمور الحياة الدنيا خارج الذات الإنسانية ، لكن بقي الحديث بشيء من التفصيل عن الفؤاد والذاكرة والوجدان وغيرها من نوازع النفس التي لها تأثيرها على عمل العقل، ونستهلها بالحديث عن الفؤاد وأثره في آلية عمل العقل.

مستودع الشعور

من فضل الله تعالى على بنى الإنسان أن ذرأ في فطرتهم خاصة ارتباط عاطفى تحقق لهم الاتصال والوعى بكل ما هو كائن فى حياتهم الدنيا ، وبهذه الصلة الشعورية تستطيع كل نفس أن تتذوق مفردات وأحوال وعوالم واقعها الدنيوى وأن تتعرف على مدى نفعه أو مدى ضرره عليها وعلى الفطرة ، وبذلك قد صار للنفس معايير عاطفية تُمكنها من أن تنتقى من واقعها الدنيوى ما تأمن له وما ترتاح إليه وما يحقق لها المصالح والمنافع ، وأن تعرض عما لا يناسبها وعن كل ما يشكل لها خطراً أو يجلب عليها مفسد أو مضار ، وبدون تلك الخاصة الشعورية يهيم الإنسان فى حياته الدنيا ويتخبط فيها وتنقطع صلته بهذا العالم.. وتلكم هى النزعة الفؤادية.

وحتى نتعرف أكثر على الفؤاد وأهميته للإنسان وصلته بمجمل النفس ودوره فى عمل العقل يجب أن نتدبر الآيات القرآنية الشريفة التى ورد ذكره فيها ﴿كِتَابُ أُزْلِنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آية ٢٩ سورة (ص).

فقد جاء ذكر الفؤاد فى القرآن الكريم فى ست عشرة آية شريفة ، وذكر مرتان فى سور: الأنعام / إبراهيم / الأحقاف ، كما جاء ذكره مقترنا دائماً بالسمع

والبصر باعتبارهما معه من أهم الروافد التي يتحصل بها الإنسان على معارفه وعلومه الدنيوية ويدرك بها أحوال الحياة من حوله ، ولو لم يزود الله الإنسان بتلك الروافد لانقطعت صلة الناس جميعا بعالم الشهادة ولا نفصم كل إنسان عن بنى جنسه وأهله وذويه وصحابته ومُجِبِّيه ، ولا نصدع عن الأرض التي خُلق منها ولَصَلَّ عن المخلوقات التي سَخَّرَهَا الله له .

ولنتدبر معاً بعض الآيات القرآنية الشريفة التي ورد ذُكر الفؤاد بها لنرى تلك الصلة الوطيدة بين الفؤاد وبين السمع والبصر باعتبارها جميعاً، من أهم المدارك الإنسانية التي يتصل بها كل إنسان مع عالمه المادى .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ آية ٢٣ سورة الملك .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ آية ٧٨ سورة النحل .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ آية ٧٨ سورة المؤمنون .

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ آية ٢٦ سورة الأحقاف .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ

نَسْلُهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾ الآيات من ٧ : ٩ سورة السجدة .
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ آية ٣٦ سورة الإسراء .

والملفت أن ذكر لفظ (الفؤاد) جاء بصيغة الجمع في معظم الآيات ، ذلك لأنه هو محل المشاعر الذاتية ومستودع العواطف الإنسانية والتي هي بمثابة المعايير التي يزن بها كل إنسان أعماله وانفعالاته في حياته الدنيا قبل الإتيان بها ، وهي تختلف بين إنسان وآخر بحسب مدى زكاء النفس ، فالإنسان الذي يزيكى نفسه ويصون فطرته تترزكى مشاعره ويأتى انفعاله وتفاعله مع أمور الحياة دون تفريط أو إفراط ودون بخس أو مغالاة ووفق ما يرضى الله تعالى ، أما من يدس نفسه ويهمل صيانة فطرته تخبو فيه تلك المشاعر النبيلة ، وينفعل مع الحياة انفعالاتٍ مختلة بلا ضوابط أو معايير ، فيخيب سعيه ، ويلقى سخط ربه ، والناس يتفاوتون على درجات كثيرة بين هذا وذاك ..لهذا جاء لفظ الفؤاد بصيغة الجمع في معظم هذه الآيات الشريفة (أفئدة) ..ومن الإعجاز القرآني أيضا أن يأتى البصر بصيغة الجمع (أبصار) في معظم هذه الآيات ، على غير " السمع " الذى ورد ذكره دائما بصيغة المفرد ، ذلك، لأن الجهاز البصرى فى الإنسان يلقط من أحوال الحياة الدنيا بما يعي المرء منها وما يعن له وبحسب حالته المزاجية والنفسية، ولذلك،تتفاوت استخداماته بين إنسان وآخر ، كما

تتفاوت في الفرد الواحد بين وقت وآخر حسب حالته المزاجية، فاستخدامنا للبصر يتنوع تنوعاً كبيراً ، وقد يأتي على أى من هذه الحالات : إما مشاهدة أو معاينة / رؤية / لمحا / استبصاراً / نظراً / رنواً / طرُفاً / تحديقاً / حدجاً / رمقاً / رقابة / لحظاً / إطلاعاً / شَوْفاً ...إلخ ، وكل من هذه الألفاظ تحتل معنى دقيقاً ودلالة ذات خصوصية متفردة ، بحيث يكون كل منها هو الأوفق للتعبير بغاية الدقة والدلالة عن الحالة التي تكون وقتها هي محل النظر ، فالمعاينة : تعنى النظرة المستديمة بعض الوقت ودسّ العين لتفحص الأشياء والأحوال - ما ظهر منها وما بطن ، والمشاهدة : تعنى انفعال المرء بكل ما يراه وبما يصله منه من شعور أو معان ، والرؤية : تعنى الإحاطة بالنظر لمجمل ما يراه المرء ، والبصر : مجرد وقوع حالة الرؤية والشعور بها ، والنظر : يعنى مجرد توجيه الجهاز البصرى لحالة أو لشيء بعينه ، واللمح : يعنى تصويب العين إلى الشيء بنظر خفيف ، والرنو : إدامة النظر فى سكون طرف ، والطرف : منتهى ما تدركه النظرة ، وحدّق بمعنى شدّد النظر ، وحدّجهُ : بمعنى نظر إليه نظرة ارتياب واستنكار ، ورمقَ : بمعنى أتبع الشيء بالنظر ، ورقبَ : تعنى الرصد والتتبع ، وشافهَ : بمعنى نظر إليه بمؤخر العين نظر المبعض أو المتعجب ، هذا بخلاف العديد من التعبيرات الأخرى مثل حَمَلَقَ : أى دقق النظر باتساع العين ، وشَرَرَهُ : أى نظر إليه بمؤخرة العين نظر الغضب ، والزَّوَرُ : وهو النظر السريع بمؤخرة العين ، وأزْلَقَه : أى نظر إليه نظر المتسجّط ، ورامَقَه : أى نظر إليه نظر العداوة .. وهكذا ، لهذا فالناس يتفاوتون فى التوجيه المقصود لحاسة

البصر طبقاً لظروف الأحوال وبحسب مدى أهمية الحدث أو الشيء الواقع في نطاق الرؤية لكل فرد على حده ، وبحسب حالته النفسية والمزاجية وقتها ، فقد يقع حادث يراه جمـع من الناس ولكن لكل منهم رؤيته فيه ، فيختلفوا حول تفسيره..ولذلك جاء التعبير القرآني للبصر بصيغة الجمع في الآيات الشريفة.

أما السمع الذي ورد ذكره بصيغة المفرد دائماً فذلك لأن الجهاز السمعي يُدرك الأصوات، التي تنتهي إليه، على حالتها ، ولا يتفاوت فيه فرد عن آخر ، كما لا يتفاوت الأمر في الفرد الواحد من وقت لآخر أو من حالٍ لغيره اللهم إلا بين السمع والإنصات فقط ، فالسمع هو شعور النفس بالصوت وإدراكها به ، أما الإنصات فيتجاوز ذلك إلى توجيه الانتباه للصوت واستجماع الوعي له.. لذلك، جاء الإعجاز القرآني بصيغة الجمع للبصر (أبصاراً) وللفؤاد (أفئدة) ، على خلاف (السمع) الذي ورد بصيغة المفرد دائماً. وتلك لفظة سريعة ونعود لموضوع الفؤاد.

الفؤاد - كما ذكرنا - هو المختص بالمشاعر والأحاسيس ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المشاعر والعواطف كالحب والشوق والعطف كما في قول الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم "عليه السلام" وهو يودّع زوجته السيدة / هاجر وفلذة كبده "اسماعيل" بعدما تركهما بلا حول ولا قوة في وادٍ غير ذي زرع بركة.. ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ مِثْرَةٍ مَحْرَمٍ ﴾

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ آية سورة إبراهيم.. وينفطر الفؤاد عند الفزع ووقت الهول رَوْعاً ورعباً حتى تفرغ شحنته الانفعالية مالم يشبته الله.. كما في قوله تعالى عن حال أم النبي موسى (عليه السلام) حينما طرحت وليدها النهر: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ آية سورة ١٠ القصص , وقوله تعالى في وصف الظالمين الذين يؤخّروهم ليوم العذاب الذي تشخص فيه الأبصار. ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ آية ٤٣ سورة إبراهيم.. والقلب قد يساوره القنوط الذي تضطرب معه أحوال النفس ويتزلزل منه الفؤاد وتختلط معه المشاعر ، ولدى تثبيت الفؤاد تهدأ ثائرة المشاعر ويأمن القلب وتستقر أحوال النفس قاطبة.. قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ آية ١٢٠ سورة هود.

وبمثل ما ذكرنا - سابقاً - من أن المخَّ هو بوابة الجسد المنفتحة على عالم القلب فالفؤاد هو بوابة القلب المنفتحة على الجسد وعلى عالم الدنيا.. وكلاهما معاً (المخ والفؤاد) يشكلان البرزخ الذي يتحول فيه الإحساس المادى لأى مفردة واردة من خارج النفس إلى شعور معنوى قبل مرورها على القلب ، وتتحول فيه المعانى الصادرة عن القلب إلى أوامر تتفعل بها الجوارح لتخط بها آثارا مادية فى عالم الدنيا.

ومن جهة أخرى فإن عمل الفؤاد أشبه بعمل اللسان الذى نتذوق به الأطعمة ، حيث أننا نتذوق به طعم الحياة ، فنشتهى ما نستطعمه من أحوال الدنيا ومن مفرداتها وتأثيراتها ونزدر ما لا نستسيغه منها.. ونذكر بأن وعى النفس بالواقع يمر بمراحل ثلاث تسبق الانفعال العقلى : الأولى، وهى مرحلة الإحساس المادى التى تقوم بها منظومة الحواس والجهاز العصبى والمخ ، ثم تليها مرحلة الشعور التى يقوم بها الفؤاد ، والتى تتعرف فيها النفس على الأمر الوافد عليها ومدى أهميته للنفس وللْفِطْرَة ، ثم تأتى مرحلة الإدراك القلبي.. ولإيضاح ذلك نضرب مثلاً : فلو لمسَ أحدنا سلكاً من أسلاك الكهرباء وأصابته صاعقة فسترتد يده عفويّاً عقب هذا الإحساس المادى ، ثم يصيبه الدهول على أثر ذلك (وهو شعور فؤادى) ، ثم تأتى مرحلة الإدراك القلبي بأن يعي المرء حقيقة الخطر الذى تعرض له ، وآخر الأمر يأتى الانفعال العقلى فى الاستنتاجات العقلانية المتتابة مثل : أنه كان عليه أن يتخذ الحيلة اللازمة ، وأنه كان يجب ألا تُترك الأسلاك عارية هكذا ، وأنّ عليه أن يقوم بتحذير أطفاله وأهله من مغبة القرب من الأسلاك ، وأن يأخذ العبرة من وراء ذلك ، وأن يلجأ لفئى متخصص فى مثل هذه الأمور.. إلى آخر هذه الاستنتاجات العقلية.

وما يهمننا الآن هو الانفعال الفؤادى الذى يحقق للنفس أمرين ، فأما الأمر الأول فهو : شعور بمدى انجذابها لأحوال الدنيا أو النفور منها - والأمر الثانى هو : استيعاب النفس لأحوال الدنيا والوعى بها.. والفؤاد بهذا يُكوّن مع المخ برزخ

النفس الذى تلتقى فيه أحوال الدنيا المادية مع عالم المعنويات - كما ذكرنا آنفاً ، فى هذا الالتقاء البرزخى تتحول الماديات الواردة للنفس إلى معنويات يدركها القلب ، وتتحول المعنويات الصادرة من القلب إلى أعمال وأفعال مادية تخطُّها الجوارح على صفحة الدنيا.

وعند هذه النقطة يأتى موعد السؤال الذى يفرض نفسه تلقائياً عندما تبدو فى الأفق تلك الحلقة المفقودة ، والحلقة المفقودة فى موضوعنا هى : فى الكيفية التى يتلاقى فيها عالمى الغيب والشهادة رغم أنهما ضدان ، فكيف يتسنى التقاء الضدين (المادة والمعنى)؟! ، يَبْدُ أن السؤال على هذا النحو يفترض أن المادة والمعنى ضدان ، بالأحرى هما ليسا بضدين ، بل الذى يمكن تأكيده أنهما عالمين مختلفين.. ولنفترض مجازاً بأن أحد العالمين ضدُّ للعالم الآخر ، فليس من المؤكد عدم التقائهما أو عدم وجود صلة أو معبراً يوصل بينهما ، فأهل الفلسفة يرون بأن الأضداد تلتقى فى مفرق فاصل يفترقان عنده ، والمفرق ذاته بمثابة واصله ومعبرا بينهما ، كالإتجاهين المتضادين (الأعلى والأسفل..مثلا) يلتقيان ويتصلان فى مفرق يوصل بينهما.. ثم أن الحقيقة المعرفية النظرية لدى كل عاقل، هى أن عالمى الغيب والشهادة يلتقيان فى ذات النفس ، بيد أن هذا التأكيد عن حقيقة هذه الصلة لم يصل بعد إلى مستوى الحقيقة العلمية .. وكل ما يمكن تأكيده علمياً حتى الآن، هو أن الصوَر المستقطبة التى تتجمع فى المخ تفقد هيئتها المادية وتتحول إلى منظومة متسقة من الموجات الكهروكيمياوية ، هى

إذن بداية للتحويل ، لكن لا توجد حقيقة علمية مؤكدة عن الكيفية التي تتحول فيها هذه المنظومة من الموجات الكهروكيميائية إلى ما يمكن تسميته بأشباه المادة أو (اللامادة) حال تجاوزها المخ مروراً إلى الفؤاد والقلب، وتلك هي الحلقة المفقودة..ومن الجهة الأخرى: فالمرحلة المفقودة نجدها في اللحظة التي تتحول فيها المعاني القلبية إلى أشباه المادة حينما تصدر من القلب وتتجاوز الفؤاد مروراً إلى المخ ، وهي التي تؤتي آثارها المادية حينما تنفعل بها الجوارح ، بيد أن التأكيد العلمي على كيفية هذا التحويل ما زال صعب المنال حتى الآن...، لكن المؤكد عندي هو أن الفؤاد له خاصية مادية يمثل ما له من خصوصية قلبية ، وليس أدل على ذلك من تلك الإشارة اللطيفة التي وردت في الآية ٧٨ من سورة المؤمنون حيث قرنت الفؤاد مع السمع والبصر في التعبير القرآني البديع : ﴿ أَنْشَأَ لَكُمْ قُلُوبًا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾..، فالإنشاء بناء والبناء لا يكون إلا للماديات بما يوحي بأن للفؤاد خاصية مادية فضلاً عن خصوصيته الغيبية التي عبر عنها القرآن في مواضع كثيرة أخرى بلفظ (جَعَلَ) مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ فإذا ما قورن الجعل بالإنشاء في هذه الآيات فالجعل ينصرف للمعنويات وأما الإنشاء فإنما ينصرف إلى المحسوسات وإلى عالم المادة. نعود لموضوعنا الذي نتحدث فيه وهو إحساس النفس وشعورها ووعيها بالعالم المادي ، وقد وصلنا إلى أن الفؤاد هو المسئول عن تحقيق هذا الشعور ، فبدون الفؤاد - رغم وجود الحواس - لن يتحقق شعور الإنسان بعالم الدنيا بل

يهم فيها منزوع الصلة بها ، ولا يدري عنها شيئاً ، وفي غيبة عما يدور ويجرى حوله ، ويتحول إلى آلة استقطاب مادية مهمتها الوحيدة هي أن تنسخ صور العالم المادى وأحوال الدنيا دون أن تعي النفس عنها شيئاً ، ودون أن تحرك فيها ساكنها مثلها في ذلك مثل المرآة المصقولة ، ولذلك - ومن بديع القرآن - أن يأتي ذكر الفؤاد في الآيات الشريفة بعد ذكر أهم أدوات الحس ليؤكد هذه الحقيقة الإنسانية ، ذلك لأن عمله يأتي مقترنا بعمل الحواس وعلى أثرها مباشرة ، ولأن إدراك النفس بأحوال الدنيا لا يكتمل إلا باكتمال مرحلتى الإحساس والشعور معاً ، فما جدوى الحواس بدون الفؤاد ؟ ، وهو المسئول عن خلق الوعى فينا وعن إحساسنا وشعورنا بكل ما هو كائن في هذا العالم ، وما جدوى الفؤاد دون أن يتلقى إحساسات الحواس ؟ لا بد من إقتران عمل كل منهما بالآخر ليتحقق الوعى بالنفس .. ومن الإعجاز القرآنى أن نرى في الآيات الشريفة ، التى ذكرناها ، هذا التلازم بين أهم وأقوى الحواس وهما (السمع والبصر) وبين الفؤاد ، بل ونرى كذلك ، مدى اقترانهما بعضهما البعض ، ذلك لأن وجود أولاهما وهى (الحواس) يتحتم معه وجود الآخر وهو (الفؤاد) ، وغيبة أحدهما لا تعنى إلا غيبة الآخر ولا تعنى إلا أن عمله وحده لن يجدى شيئاً ، فحينما تتعطل الحواس (كما فى حالات الإغماء) يتعطل عمل الفؤاد وتنقطع صلته بعالم الدنيا ، وحينما ينخلع الفؤاد ترتبك جميع الحواس وتتعطل وظيفتها ، ويبدو ذلك جلياً فى وقت الرعب والفرع الشديدين أو حين الحزن الذى ينفطر منه الفؤاد ويؤدى إلى ارتباك كل أرجاء النفس - بما فيها الحواس ، وأيضاً ، فى حالات وقوع الفرد تحت

تأثير المواد المخدرة أو الخمر والمسكرات فهي الأخرى تخمر الفؤاد وتجعل بينه وبين الحواس غلالة ضبابية ، فترتبك وظيفته ، ذلك لأن الخمر والمسكرات تُحدث خللاً في المخ وفي الجهاز العصبي وتحدث ارتباكاً وتشويشاً في عمل الحواس فتُرسِل للنفس صور الأشياء على غير حقيقتها ، كأن تنقل صورة للجبل على هيئة ثعبان ضخم فتثير في النفس خوفاً وفزعاً يقشعر منه البدن وهي مشاعر غير متوافقة مع الواقع .

ولذلك، فإن غيبة النوازع الفؤادية يتعطل معها عمل العقل لأنه سينفعل بغير سند يستند عليه وبدون قاعدة ينطلق منها وبغير معايير يعاير بها الأحوال بصدق.. وتدبر معي قول الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ آية ١٠ سورة القصص ..ففؤاد أم موسى (عليه السلام) كاد يفرغ من شحنته حال طرح وليدها النهر ، وكاد عقلها يحن لولا أن ربط الله على قلبها ، فلم تبدى ثمة انفعال منفطر على الوليد لإيمانها الصادق بما أوحى الله لها بأن وليدها سيُرد إليها : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْتَقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧) سورة القصص .. لهذا رُشد عقلها وتدبرت أمر الوليد المحاط بالخطر من كل جانب والمشمول برعاية الله في كل لحظة بحسب ما أنبأتنا به الآيات الشريفة حتى ردّ الله لها وليدها (عليه السلام) .

ما بين الفؤاد والعقل

ونقف هنا وقفة يسيرة نتدبر فيها عمل الفؤاد ، لنرى هل هو حالة عقلية خالصة؟ بمعنى أن الشعور الذى يستشعره الفؤاد للواقع المادى هل يقع ضمن الإنفعال العقلى ؟ وهل للعقل دور فيه ؟ أم أنه يأتي قبل الانفعال العقلى ؟..والبحث فى مثل هذا الأمر يحتاج منا إلى أن نقوم بتجربة على غرار ما يتم فى الأبحاث المعملية ، حيث يمكن الاستعانة بآلة التكبير (المجهر) لفحص الدقائق الصغيرة ، سنحاول أن نُقلد هذا الأسلوب المعملى ، بيد أننا سنلجأ لأسلوب آخر يُناسب الانفعالات الإنسانية التى لا نستطيع معها استخدام المجهر وهو أن نُنتج الأحداث العادية التى لا يكون لها ثمة تأثير ملحوظ على وقع النفس ، وأن نتخير (بالافتراض) حدثاً من تلك الأحداث التى تترك فى النفس تأثيراً بليغاً ومتأججاً بالمشاعر ، ونتبع معاً وقَّعه عليها..فلو افترضنا شخصاً شارد الذهن يسير على عجلٍ بالقرب من منعطف أحد الشوارع الخالية من المارة، وإذ فجأة يجد نفسه وجها لوجه أمام حيوان مفترس (أسد مثلاً) رابضاً له فى المنعطف وفى وضع تحفُّزٍ للاقتراس به ، وأنه أيقن لحظتها بأن خطر الموت جاثم لا محال ، فأول انفعال يصيبه هو حالة الرُّعب المزلزل التى تصيب العقل بالشلل التام ، فإن كان صاحبنا هذا من عامة الناس الذين لم يكن لهم ثمة حظ من تدريب على الشجاعة ورباطة الجأش ، فظننا أنه سينهار أمام هذا الهول الجاثم أو بالأحرى، سيؤلى الفرار ، وسيظل على هذا الحال من

الفرع والفرار حتى يجد الملاذ أو العون أو يدركه الوحش ، أما إن كان صاحبنا ذو علم ودراية وكان له حظ وافر من رباطة الجأش ، فأغلب الظن أنه سيقف ساكنا برهة قصيرة دون حراك ليتدبر الأمر ، فظنُّه، ابتداءً، أن الخطر مُدْرِكُهُ لا مُحَال ولا مفر، وليس عليه إلا أن يجابهه بشجاعة دون فرار ، بل إن الفرار فيه تحفيز لاشتداد وطأة الخطر (هكذا علمته التجارب) ، وفي هذه البرهة القصيرة يستعيد كل خبرته ويستجمع جل قواه في أن يملك زمام نفسه التي رَوَّعَتْهَا المفاجأة ، وأن يسيطر على الخوف الذي أصابه ، وسريعا.. مع عودة الهدوء لنفسه يبدأ انفعاله العقلي الذي يأتي خاطفا وعلى قدر جسامته الحدث ، وسيدور عقله بين عدة افتراضات عاجلة يهمس بها لنفسه .. هل من وسيلة ممكنة للهروب الآمن؟! ، هل من أداة في متناولى أُرهب بها هذا الوحش؟! ، هل من حيلة أسوسه بها؟! ، ولماذا لا أرى لهذا الوحش حراكا ولا زئيرا كعهد هذه الوحوش؟! ، أليس من العَجَب أن يوجد أسدٌ حَيٌّ في هذا المكان؟! ، إن الأمر على هذا النحو الغريب لا يخلو من سِرٍّ! ، ولربما لا يكون حقيقيا هذا الذي أراه!.. وتمضى البرهة القصيرة ويكتشف على أثرها أن الوحش المتحفز لم يكن إلا تمثالا صُنع بعناية فائقة ، فصار يبدو للوهلة الأولى كأنَّ فيه حياة ، قد وُضِعَ أمام محل للعاديات للدعاية وللاجتذاب جمهور المشترين.. فيرمقه بابتسامة دهشة ساخرة ويواصل سيره في أمان ، بينما يكون صاحبنا الجبان ما زال في فراره فَرَعًا مُرْتَعِبًا!! ، وهكذا يكشف لنا هذا المِثَال أنه متى استسلم المَرء لعاصفة الخوف وكلما تَمَلَّكَه الرُّعب والفرع فإن العقل ينزوى لحين انقشاع تلك

العاصفة ، كما يكشف لنا، أن الانفعال الفؤادى ليس بحالة عقلية وأنه يأتى قبل الانفعال العقلى ، ويبدأ العقل عمله مع بدء انزواء وتراجع العاصفة العاطفية ، ويزداد تماسكاً مع انحسارها ، كما يكشف أيضا أنه إن كان الانفعال طاعيا فلا يترك للعقل أى فرصة للتدخل ما لم تكن للمرء حصونا يتحصن بها وما لم تكن له أسلحة ودروعا يواجه بها خطورة الأمر ألا وهى حصون العلم والمعرفة ، ودروع الصبر ، وأسلحة الدراية والخبرة.

ونحن ما زلنا فى رحلتنا مع مرحلة شعور النفس بواقع الحياة المادية وبعد أن بينّا أثر المعرفة والعلم والدراية فى ضبط انفعالات الفؤاد الزائدة ، بقى أن نتعرف على العلاقة بين الانفعالات الفؤادية وبين العقل.

ما بين العقل والعاطفة

ذكر المفكر العربى الكبير د/ زكى نجيب محمود فى كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » عن مدلول العقل ومعناه فى سياق الفصل الأول من الكتاب حيث يقول : «..ومن هنا كان بين الأسس العميقة فى بناء الثقافة العربية الصحيحة ، أن تكون للإرادة أولوية منطقية على العقل ، فالإرادة فعل ، والفعل باطنه قيمة تُوجّهه ، ومادامت مجموعة القيم أماننا ، لم نصنعها ، بل نشخص إليها لنحذوا حذوها ، فلم يَبَقَ للعقل إذاً من مهمة يؤديها إلا أن يرسم الطريق المؤدية إلى تحقيق ما تقتضيه تلك النماذج العليا المنصوبة أماننا ، ومعنى ذلك أن مجال

العقل منحصر في دنيا التنفيذ ، بحيث نلتمس به السبل المؤدية إلى الغاية المطلوبة...»، وفي الفصل الرابع من الكتاب ذكر المفكر الكبير «...أن الإنسان تحكمه ثلاثة مقومات أو صنوف ثلاثة ، كل صنف فيها يتعلق بجزء من البدن على سبيل الحقيقة ، أو على سبيل المجاز ، وتلك هي شهوات البطن - وعواطف القلب - وحكمة الرأس...» ، وأورد المفكر العربي الكبير تصور أفلاطون للإنسان بين العناصر الثلاث ، وهو أن تتصور الشهوة والعاطفة جوادين يجران عربة ، ويمسك باللجام سائق هو العقل.. فالشهوة والعاطفة مقيدة بشكائم العقل...» ويستطرد بقوله : «وإني لأزعم بأن متوسط الفرد من أبناء الأمة العربية في عصرنا يفلت من يديه زمام العقل ، فتجتمع عنده الشهوة والعاطفة جوحاً يحجب عنه رؤية الأهداف واضحة ، ومن ثم فهو يسد أمامه سبل الوصول...» وفي فصل آخر من الكتاب يقول: «...أن الاحتكام إلى العقل في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه ، هذا الاحتكام إلى مقاييس العقل وحده هو القاسم المشترك بين جميع الحضارات الإنسانية...» .

هذا ما ذكره المفكر العربي الكبير، وإن كنت أرى أن عمل العقل ليس قاصراً فقط على رسم الطريق المؤدية إلى الغاية المطلوبة فقط، بل إن تحديد الغاية أيضاً هو أمر عقلي ،..فلو تصورنا أن طالباً نال أعلى الدرجات في امتحان إتمام المرحلة الثانوية ، بما يتيح له فرصة الاختيار بين كافة الكليات الجامعية ، لاشك أنه سيفكر أولاً في الغاية التي يقصدها والتي قد تكون إما مركزاً اجتماعياً

مرموقا ، أو الاندماج فى مراكز السلطة والنفوذ ، أو امتهان مهنة تدر عليه عائداً مادياً كبيراً يتيح له حياة ميسورة .. إلخ ، ففى الوقت الذى يستعرض فيه تلك الطروحات إلى أن يستقر على إختيار بعينه فكل هذا هو عمل عقلى .. إذاً فتحديد الغاية إضافةً إلى رسم الطريق المؤدية إلى تحقيقها جميعه عمل عقلى .

إلا أن العقل قد يُشَلَّ للحظة وتندفع فيها الإرادة منفلة دون ضابط ودون حكمة ، كمثل صاحبنا المتواجد فى مطعم يتناول طعامه فى هدوءٍ وسكينة ، ويفاجأ بمن يصفعه على وجهه صفعة مهينة ، فيأتى رد فعله عنيفا من هؤل المفاجأة ومن فوره يستل السكين مندفعاً منتقما ، فالمفاجأة - بالنسبة له - قد ألجمت عقله وحيدته عن الحدث ، فإندفع بالعاطفة وحدها للإنتقام.. إلا أنه وبعد أن تسكن الأحداث نراه، وقد أُسْقِطَ فى يده، غارقاً فى الحسرة والندم لما علم من أن ضحيته المدرج فى الدماء ليس إلا شخصا مجنونا ، فصاحبنا هنا قد شُلَّ عقله من هؤل المفاجأة وأتى رد فعله الفورى مدفوعاً بدفقة العاطفة الهوجاء وحدها ، قبل أن تتدخل حكمة العقل ، ولأن العقلَ (عَقْلٌ) فلا اندفاع فيه ، ولا تهوّر ، ولا طيش وإنما تعوزه لحظة للتروى يتعرف فيها على حجم الانفعال وقوته ، ثم يقوم بترويض هياج الغضب الجامح ومراجعة خبرة صاحبه الدينية والأخلاقية واستحضار تبعات رد فعله ومدى تقبل المجتمع أو رفضه له وكلها أمور عقلية، فالعقل لا يعمل ابتداءً قبل أن يقوم بتحديد الغاية مما هو مُقَدِّم عليه ، وقبل تعيين الهدف منه ، وتجليه الرؤية عنه ، ورسم الطرق والسبل

الموصلة إليه ، وضبط الاندفاع العاطفي عنه ، وجميع هذه النوازع في حاجة ماسة للحظة من التروى والسكينة والهدوء ليتدبر فيها الأمر ويستجمع لها العزم قبل أن يتوجه للمجابهة الفعّالة.، ولحظة التروى هذه هي أهم معايير نجاح العقل ، وهي العلامة الناصعة على زكائه وصرافته ورُشدِهِ ، ولن يصل عقل إلى غاية ما لم يُوفِّي تلك اللحظة الحاسمة كل حقها.

وبالنظر لحالنا العاطفي الانفعالي كأفراد فالحق أن الغالبية العظمى من أبناء الأمة العربية يفتقرون للحظة التروى العقلية سائلة الذكر ، ذلك لأنهم قد استفحلت بهم عاطفة متفجرة بلا ضابط وكثيراً ما لا يستطيع العقل أن يسيطر عليها ، وأقل ما نوصف به أن معظمنا دون حالة الثبات الإنفعالي بقدر كبير ، وعاطفتنا جياشة ومتعاضمة وهائجة، وربما مأججة ، ومن فورها تنتصر على العقل الذي يهون أمره على الرغم من أنه هو صاحب السلطان الأول على مملكة النفس ، ولنا أن نتخيل كيف حال السلطان حينما يضعف ويترنح ويسقط عن عرشه!!!..وفعل تغلب العاطفة على العقل صار معظمنا غارقون (فرادًا - وشعوباً - ودولاً) في حالات من الارتباك والفوضى ، وأظلمت أمامنا الدنيا وغابت الرؤية فتحبطنا في المسير وتعثرنا عثرة قد طال أمددها.

وما نريد أن نبيّنه هو أنّ إجماع العاطفة، وعدم الاستسلام لجنوحها، والعمل على كبح جماحها هي من أهم الأعمال الواجبة على كل فرد في سبيل صلاح أمره

وأمر أمته معاً، بل هي فرضٌ دينيٌّ أشبه بالجهاد إن لم تفوقه! ، ذلك لأنها تُمكن العقل من عرشه فيتعاظم شأنه ويبلغ أوج سلطانه وأسمى درجات رُشده ، فيؤدى وظيفته كيفما يكون الأداء ، والحق أنه مع اشتداد عواصف الانفعالات يوهن العقل ومع انضباط العاطفة يتألق فتيل العقل وتلك قاعدة راسخة أشبه بقواعد العمليات الرياضية ، فأين نحن منها؟!.

وعودة للتصور الأفلاطوني للعقل ، والذي صُرب له مثال العربية ذات الحصانين ، وبالقياس على هذا التصور نستطيع أن نُشبه الإنسان - في عصرنا - بسيارة حديثة ذات موتور يعمل بالوقود ولها عجلة قيادة تتحكم في إتجاهها ، وكَبَاحَة (فرامل) تتحكم في ضبط سرعتها ، ولها بدّال وقود يسمح بدفع السيارة بالسرعة المناسبة ، فالعقل في الإنسان أشبه بسائق السيارة ، وبدّال الوقود يُمثّل العاطفة في الإنسان ، وجهاز الفرامل أشبه بالإرادة.. فالعقل كمثّل السائق من حيث استكشاف أحوال الطريق تباعاً والتنبؤ بالمفاجآت والاستعداد لها قبل حدوثها ، والتحكم التام في السيارة وفي سرعتها، وسلطة العقل على سائر غرائز النفس أشبه بسلطة السائق على جميع أجهزة السيارة ، فما يجب أن يسمح لضغط الوقود بأن يعمل بكامل طاقته لتنتقل في سرعة جنونية تفوق قدرة (الفرامل) وتفقد استطاعة السيطرة عليها قبل وقوع الكارثة ، مثلها في ذلك مثل العقل الإنسانى الذى ليس بإمكانه التدخل مع هوجة الدفعة العاطفية الجارحة. العقل منوط به استكشاف الطريق المؤدية إلى الغاية تباعاً، وبدءاً من أول

خطوة ، وعليه مسابقة أحوال الطريق بالفكر ، وعلى العقل فى كل الأحوال أن لا يفقد سلطانه وأن يتخذ مكانة الصدارة من النفس ، وعليه أيضا أن يكبح جماح العاطفة الزائدة دون أن يكبتها ، وعليه أن يدرأ الشهوات والنزوات غير المشروعة ويمهد السبيل لها لأن تنفعل فى حقها دون إفراط أو تفريط.

الذاكرة والوجدان

بداية تواصل الإنسان مع أحوال الدنيا - وكما ذكرنا - تبدأ من حيث تلك المنافذ التى يطل بها على هذا العالم، ألا وهى (الحواس)، فإنها هى تلك الأجهزة فائقة الحساسية التى تستقى بها النفس طبيعة الأشياء والمخلوقات والحالة المزاجية للناس الذين تتعامل معهم ، هذه الحواس مزودة بخلايا عصبية شديدة التعقيد متصلة جميعها بالمخ الذى تتجمع فيه الصورة المجملة للحدث بكل ما فيها من الشكل العام للصورة ومفرداتها والأصوات المصاحبة لها وما يتجمع من الحواس الأخرى كالرائحة والملمس والذوق والتى هى من صميم الحدث.. إلخ ، وتتوالى الأحوال والأحداث على النفس كشريط مجسم ينبض بكل ما فى الواقع من دلالات الصور والحركة والألوان والأصوات والروائح والملمس.. إلخ ، والتى تحاكي ما فى الواقع بصفة تامة ومكتملة.

وتلك الصور المتحصلة فى المخ تُدرج فى وعاء الذاكرة الذى يحتفظ بها على هيئتها ليستعيدها المرء وقت الحاجة - إن أراد ، أو تعود من ذاتها إذا ما مرَّ

على نفس المرء حدث مشابه أو مائل ، وبقدر عمق الشعور والانفعال الفؤادى بالحدث يُكتب استمراره فى الذاكرة مهما طال الزمن ، أما الأحداث والأحوال والوقائع والأشياء التى لا تعنى المرء ولا يأبه هو لها ولا تُحرك فيه ساكنا فلا تحتفظ بها الذاكرة وليس لها من موضع فيها إلا يسيرا وتنظر مع مرور الزمن.

وبالنسبة للمعانى الفؤادية التى تصاحب الحدث فتم تحصيلها فى الوجدان ، وبذلك ، فالوجدان هو طبعة الوجود فى الذات الإنسانية بيد أنها مُغلّفة بالخصوصية الفؤادية للفرد ومصطبغة بذاتية ومشاعره وأحاسيسه ، وقد اشتق للوجدان إسماً من الوجود ، إنه مزيج من تلك العلاقة الخاصة بين كل فرد وبيئته والأحوال العامة التى تحيطه والمشاعر التى يمتزج بها فى جماعته.. والوجدان يختلف عن الفؤاد فى أنه لا يغفل الماضى بما فيه من عصارة التجارب والخبرات على مر التاريخ سواء على المستوى الفردى أو على مستوى الجماعة أو الأمة، ذلك لأن حكمة الماضى لها تأثيراتها على واقع الحياة ، وعلى هذا النحو يمكن أن نعتبر الوجدان هو الامتداد الطبيعى للبيئة - بكل عناصرها - فى قلوب الناس ، وأن الأعمال التى يجترحها الإنسان فى واقع الحياة هى الامتداد الطبيعى لذاته فى البيئة المحيطة بما فيها ومن فيها ، إنها علاقة تبادلية « أخذاً ، وعطاءً » ، وهذا هو حال المحبين العاشقين (الأرض والإنسان) ، وليس ذلك من نافلة القول فالأرض بالنسبة للإنسان كالألم..وقد أجملت الآية الواحدة والستون من سورة هود تلك العلاقة الحميمة بين الإنسان والأرض فى صورة إبداعية

بلاغية رائعة فقال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ ففي لفظ (أَنشَأَكُم) كناية عن أن كل ما يجري في عروقنا ومشاعرنا وأحاسيسنا وكل بنائنا أتا من هذه الأرض ، والواجب أن نرد لها الجميل بأن نزيد من جمالها وأن نعملها بناءا وسلاما ، وهذا حقها علينا جميعا.

فالحالة التي عليها مفردات الطبيعة والبيئة تصبغ صبغتها على وجدان الناس وعلى نفوسهم ، فكما امتازت البيئة بالجمال والنظام والهدوء كلما أضفت تلك الصفات على وجدان من يحيا فيها ، وكلما توحشت كلما تركت نفس الأثر على النفس ، ولهذا فإن تجميل البيئة وتنظيمها وتنظيفها له أثره الكبير في تهذيب السلوكيات البشرية ، لذلك فهو واجب وفرض إنساني مثلما هو حق لكل إنسان.

وتتنوع أمزجة الناس وتصرفاتهم وانفعلاتهم بتنوع البيئة ، فمن يحيا في بيئة صحراوية يختلف مزاجه عن يحيا في بيئة ساحلية ، وأهل المدينة والحضر يختلفون كذلك عن أهل البدو وأهل الريف..وهكذا ، وبهذا الأثر الوجداني تأتي تصرفات المرء وانفعالاته مع الأحداث والوقائع التي تمر به ، وكل فرد له وجدانه الذاتي الذي يتفاوت ويختلف عن غيره ، ذلك لأن التأثير الذي تتركه البيئة في كل فرد ليس على نفس القدر ، ذلك لأن كل إنسان يستقي من البيئة ما يناسب ذاتيته وخصوصيته وتفردته وحالته المزاجية مثله في ذلك مثل

النبات ، فكل نوع منها وكل فرع وفصيل يستقى من التربه ما يناسبه فقط من الغذاء ، وبالمثل فعمق التأثير بالبيئة يختلف من فرد لآخر ، كما يختلف قَدْر هذا التأثير في الفرد الواحد من وقت لآخر.

فضائل العقل الرشيد

إن خير ما نختم به هذا الباب هو أن نذكر فضائل العقل الرشيد على الفرد وعلى الجماعة والأمة وأهمها :-

العقل الرشيد هو السلطان المتربع على عرش مملكة النفس الإنسانية وهو الحاكم المسيطر وصاحب السلطان المهيمن على سائر نوازعها وغرائزها وانفعالاتها. العقل الرشيد هو زمام النفس الضابط للدقة العاطفية الجامحه التي تصيب التصرفات والسلوكيات والانفعالات الفردية بالزلزل والتردى.

وإذا رشد العقل صار مستنيرا تتجلى له الحقائق بيّنة الرؤى واضحة المعالم ، وتنقشع أمامه سحابة الظن التي تغشى الفكر وتناى به عن حقائق الأمور وتصل بالمرء إلى جهالة يصعب التنبؤ بنتائجها.

وإحكام العقل ييسر للمرء ترتيب الأمور وتحليل النتائج ، ويهيئ الفرد للأخذ بمنطق العلم، فلا استباق للنتائج قبل تجلية الأسباب والعلل، وبذا تنتظم أمور الحياة، العقل الرشيد يُنقّي الواقع من تشويه الوهم والخرافة، ويقصى عن الذهن سحابة الضلالة، فتتجلى للمرء حقائق الواقع كما هي دون اهتراء أو تشويش أو اختلاط.

العقل المستنير يعالج الأمور بنظرة شاملة لا تبخس خبرات الماضي ولا تهمل تطلعات المستقبل فتتنبأ الخطى وتحقق الأهداف المرجوة. والأخذ بمبدأ العقلانية في المجتمعات يطفئ جذوات الغل في القلوب ويذيب الأحقاد في بواطن النفوس ، فيقل الاحتكاك والتشاحن والتباغض بين الناس ، وتزداد الروابط الإنسانية عمقا وتوثيقا فيما بينهم. الأخذ بمبدأ العقلانية يقوى سلطان العقل ، ويُقرب الفرد من الفطرة السليمة التي تزده ترابطا مع الأسرة الإنسانية ، وتزده انصهارا في جماعته ، وتعمق ولائه للوطن. وبالعقل المستنير يتحرر الفكر ، وينطلق من قواعده الراسخة ، وينشأ على أسس سليمة وبآليات عقلية صادقة. وأخيرا. فبالعقل الرشيد تتألق الفطرة ، وتتزكى غرسة الخلق والإبداع التي تجعل للنفس قدرة على التجديد والبراعة. العقل، إذن هو أهم الغرائس في النفس الإنسانية ، بيد أنه مجرد غرسة ، لن يثمر بالخير ما لم نداوم على تزكيته وما لم نحرص على المحافظة على ألقه ، ليظل دائما عقلا رشيدا ومستنيرا.

الباب الثالث

الفكر

«الفكر: نور عقلي كاشف يشع من الروح وينبض به العقل ، ويمتد
بوسع الكون جميعه, في انطلاقة غير محدودة, وفي حرية استثنائية, ليس
لها نظير ...»

- إطلالة على الفكر
- غرسة الفكر
- فضل المعرفة على الفكر
- قول ابن خلدون في الفكر
- بواعث الفكر ودوافعه
- قواعد الفكر
- آثار كبت الفكر
- تقليم أغصان الفكر
- الفكر الرشيد
- ما بين الفكر الغربي والفكر الشرقي

ما الفكر؟!

أنت عزيزى القارئ وأنا وكل الناس نستطيع أن نطلق العنان لأفكارنا حتى تلامس شُهب السماء ، وحتى تدور مع الكواكب السيارة فى أجواز الفضاء ، ونستطيع أن نغوص بها تحت أديم الأرض وفى أعماق البحار وخلف كل الحواجز والأستار..والفكر هو آلة الزمن التى تحملنا على جناح الخيال فتعود بنا إلى الماضى التليد ، أو تأخذنا إلى المستقبل البعيد ، أو تحملنا لأقصى الكون وآفاق السماء ، وبالفكر نَهِيمُ فى عوالم استثنائية من التخيلات والأحلام والأمنيات.

الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار ، وهو الشبكة التى نقتنص بها المعارف والمصيدة التى نتصيد بها العلوم ، ولا تطوله النواميس التى تحكم وتضبط أحوال الزمان والمكان ، وهو فى منأى عن القوانين والضوابط الوُضعية التى بإمكانها أن تطول كل أفعال الإنسان ، وليس بإمكان أحد أن يتدخل فى تفكير الغير مهما أوتى من قوة ومهما تسلح من سلطان.

وبإمكان المجتمعات أن تتخذ من الآليات والإجراءات والتدابير ما تُطَوِّر بها المعارف أو تجعلها فى متناول الجميع لتثمر فكراً مجتمعياً أجدى وأنفع ، أو أن تجعل من التعليم وسيلة لترشيد الفكر..والجدال والحراك الفكرى فى حلقات النقاش والندوات، بإمكانها هى الأخرى أن تؤثر فى فكر الأفراد وتستطيع أن

تَقْوَمُه أو تُصَحِّحُه أو أن تعمل على توجيهه لصالح المجتمع أو في غير مصالحه.. لكن كل ذلك يصب في خانة واحدة ينتصب لها الفكر ألا وهي الإقناع والاقتران، أى القبول به عقلاً مع اطمئنان القلب له.

ففكرى يظل على ثباته طالما اطمأن له قلبى وارتاح به عقلى ، ما لم يتدخل فكر آخر يُزعزع تلك القناعة ويُقلق مضجع هذه الطمأنينة ، قد أظل أنا على قناعتي التامة بفكرة أعتقدُها ، إلا أنها قد لا تصمد أمام فكرٍ آخر له من صدق الحال وقوة البنيان ما يجعله أعظم شأنًا وأعمق صدقًا وأكثر قناعة ، فيستصغر أمامه شأن فكرتى ويتكشف لى مدى ضعفها ، فتتزلزل فى موضعها ويتنحى العقل عنها وعن قناعته بها ، وتصير كأن ليس لها جذورا ، وبذا يطيح بها الفكر الواثق الجديد ويحتل موقعا آمنا من القلب ، ذلك لأنها لم تكن على صواب ، وكان بها خلل غير معلوم، وكل هذا لم يكن ظاهرا من قبل أن يأتينى هذا الفكر الجديد ، إلا أن وجوده على ساحة عقلى أظهر بجلاء ما كانت عليه الفكرة الأولى من ضعفٍ وهزال، فصارت لا تستحق ثقة القلب ولا طمأنينته فتهاوت وانزوت غير مأسوف عليها.. وثمة قاعدة راسخة كقواعد النظريات الرياضية تقول بأن : « الفكر الهزيل ينهار من تلقائه أمام الفكر الرصين » والفارق بين رصين الفكر وهزيله أن فحوى الأول بديهية ناصعة ومنطق سليم ، وأنه يدعو للحق أو للخير أو للجمال ، وأنه يبغي الإصلاح لا الإفساد ، وأنه يكون نبت الضمائر الحية والنوايا الصادقة بمعنى أنه لا يُبطن غير ما يُظهر وألا يكون مجرد كلمة

حق ويقصد بها باطل..أما الثانى الهزيل فإنه يفتقر إلى هذه الشروط جميعها أو بعضها أو إلى أى منها.

بذلك - فقط - يمكن التدخل فى فكر الآخرين ، ذلك لأن الفكر هو لغة القلب التى يتصل بها الإنسان مع العالم المادى بما فيه ومن فيه ، إنه ذلك الأثير الغيبى النابض فىنا باسم الروح الساكنة بالقلوب ، وبذلك،فالفكر نور عقلى كاشف يشع من الروح وينبض به العقل ، ويمتد فى انطلاقة غير محدودة وفى حرية استثنائية ليس لها نظير ، وإلى أقصى ما فى تصورات الخيال وإلى أغرب ما فى خَطَرَات البال ، بهذا النور العقلى يستطيع الإنسان أن يفعل ويتفاعل مع الكون الذى سخره الله له ، ومع الأرض التى حُلِق منها ، ومع الناس من بنى جنسه ، ومع كافة مخلوقات الله فى هذا العالم..وبهذا النور يهتدى كل ذى فِطْرة سليمة لنور الله تعالى.

وقد تذهب جماعة إلى التفكير فى موضوع مشترك بغية الوصول لأقصى منفعة عامة - مثلاً ، ولكن حتماً سيختلفون جميعاً فى البناء الفكرى لكل منهم ، وستتنوع هيئة هذه الأفكار بشكل غير محدود وبحسب تعداد الناس أنفسهم رغم وحدة الموضوع ورغم وحدة الغاية المرجوة ، فكل فرد يبني فكره على قدر معارفه ومدى بُعدها أو قُربها من الصحة واليقين ، ومن خزين الخبرات الشخصية لديه ، وطبقاً لحالته النفسية والمزاجية ، كما وأن أغراضه الشخصية الأخرى

ونواياه الدفينة لها دورها المؤثر فى أسلوب وطريقة وغاية تفكيره - وإن جاهد هو فى سبيل إخفاء هذه الحقيقة ، ثم أن كل فرد له نظريته وله آرائه الذاتية التى يسلك بها مسار حياته الدنيا ، بهذه النظرة الشخصية يضى كل إنسان تفردته وخصوصيته وصبغته على أفكاره ، ولذا، نختلف جميعا فى فكرنا.. فالفكر بصفة شخصية خاصة بكل إنسان.. ومن جهة أخرى فخصيلة المعرفة وتراكم الخبرات وتنوعها تضى هى الأخرى سماتها على الفكر ، فالأفكار تتوسع وتتطور وتنماى مع تطور الثقافة ومع ازدياد المعرفة.

ومبتدأ الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليُستثمر منهما معرفة ثالثة ، بمعنى أن عملية التفكير أقرب لأن تكون عملية إلقاء ، والأفكار الوليدة قد تبدو مختلفة عن الفكرتين الأصليتين ، لكن توجد صلة منطقية بين ثلاثتهم، والمعارف بصفة عامة تتلاقى وتتلاقح فى متوالية لا تنتهى لتثمر فكرا متجددا ولا ينقطع ما دامت الحياة.. وفى ذلك يقول العلامة التاريخى / أبو حامد الغزالى فى الجزء الخامس من سفره الخالد: « إحياء علوم الدين » : (أن المعارف كراس المال الذى يربح كثيرا بحسب التمسك بأصول التجارة ، فكذلك الفكر نتاج المعارف شريطة أن نحسن تأليف المعارف بعضها ببعض وإيقاع الازدواج المفضى إلى النتائج الفكرى ، فإن لم نحسن ذلك فقد صرنا كما التاجر الذى يملك رأسمالا كبيرا ولا يحسن التجارة ، فلا يربح شيئا ومع الوقت يفقد رأسماله).

والتفكير في نظر العالم الإسلامي الجليل / خالد محمد خالد. «هو عملية ذهنية نزاولها جميعا بأسلوب تلقائي حتمى لا نتكلفه ، ولسنا على دفعه بقادرينوكل فرد يعبر عن ذات نفسه بالطريقة التى يستطيعها». ويضيف بأنه :« يتعرق تفكيرنا وينافق تعبيرنا حين تُصينا بعض الضغوط الكابحة ، وهذه الضغوط التى تُرتكب بتفحُّمها حمى الفكر..هى جريمة إرهاب الضمير..كما يُضيف بأن: التفكير هو عملية مخبوءة ، غير منظورة ، وغير مسموعة .. وإنك فى - صمتٍ - تفكر فيما تشاء ، ولا يعلم أحد عن موضوع تفكيرك وخاطرات نفسك شيئاً ، إلا حين تفتح شفئك وتحرك لسانك..وليس على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تمنعك عن التفكير فيما تشاء».. أنظر كتابه الأثير / معاً على الطريق - الفصل الرابع...هذا، ولم يزد المفكر الإسلامى الكبير خالد محمد خالد عن ذلك كثيراً، نظراً لأنه قد عرج على موضوع الفكر فى إطار حديث أشمل عن تحرير الضمير البشرى، والمقام - لحظتُ - لم يكن يسمح بأكثر من هذه الإشارة المتعجلة والمقتضبة..ولذلك: فأضيف من جانبى بأن إرهاب الفكر لا يمكن أن يطول أسلوب التفكير لأنه شأنٌ من الشؤون التى تدور فى عالم القلب وفى خفايا النفس وخباياها، وفى منأى عن الغير، ولكن الإرهاب يتدخل فقط وقت نزوع الفكر، وفى طريقة وأسلوب التعبير عنه ، وحينما تتضح له معالم وبوادر تقع فى نطاق الإحساسات المادية التى يمكننا معاينتها أو رصدها .. كما وأنه يجب التفرقة بين نوعين من التفكير أحدهما تلقائى عفوى ويتداعى وحده عندما يستعيد ذهننا بعض الأحداث اليومية ذات الشأن ، وهذا النوع من التفكير

الانسيابي تتداخل فيه عواطفنا وتخيلاتنا وأحلامنا وأهوائنا تدخلاً عفوياً كذلك ، أما النوع الآخر فهو التفكير العقلاني العمدي ، والمقصود ، الذي نحرك به ساقية الفكر لمعالجة أمر من الأمور ، ونتعمد فيه تقليب الأمر على كل جوانبه وطرح كل الاحتمالات التي يمكن أن نتوقعها ، والبحث بروية في الأسباب والعِلل والنتائج للوصول لغاية مأمولة..وهذا النوع من التفكير هو الذي سنتناوله بشيء من التفصيل في هذا الباب ، وفي إطار الغاية المرجوة من طرح هذا الكتاب - ويرى بعض أهل الفلسفة أن الفكر هو تلك الحبال النورانية التي يلقي بها العاقل على المعقول لمتزج جميعها بالعقل ويصير ثلاثتهم (العقل والعاقل والمعقول) في شراك واحد وبوتقة واحدة ما يجعل في الحياة الإنسانية حرارة التفاعل وطاقة الإيجابية.

وبعد..فإن الناظر من منظار التاريخ يتجلى له أمران واضحان جليان ، فأما الأول منهما فهو : أنه على مر الزمن قد تعاقبت الأحقاب والحضارات وكان بينها فترات ظلام وركود ، تلك هي الفترات التي قُعت فيها حرية الفكر ، وأما الأمر الثاني : فهو أن حرية الفكر والحضارة وجهان لعملة واحدة ، إن وُجدت إحداها وُجدت الأخرى وإن امتنعت الأولى امتنعت معها الثانية.. تلك هي العبرة المقصودة.

فَرْسَةُ الْفِكْرِ

الإنسان لا يُولَدُ مفكِّراً منذ لحظة ميلاده الأولى ، بل ينبثق تفكيره بعد ذلك ، ثم ينمو فكره ويتوسَّع مع الزمن ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى غرس في فطرته بذرة الفكر حيث ينزل بها إلى الدنيا ، هي مجرد بذرة قابلة للإنبات ، فتُروى تباعا بالمعرفة وتنبُت بإدريتها رويدا رويدا حتى تصير فكرا باسقا مع مرور الزمن..ومثلها في ذلك كمثل بادرة النبات التي نغرس بذرتها في الأرض ونرويها بالماء ، فتتغذى ابتداءً على ما يتوافر في البذرة من غذاء إلى أن يتكوَّن لها جُذُرٌا وَسُوَيْقًا وُورِيْقَاتٌ قليلة وتصير نبتة وليدة صغيرة تحمل نفس خصائص الشجرة الكبيرة ، وحينئذٍ تستطيع الإعتماد على نفسها في تحصيل الغذاء وفي النماء ، فعن طريق الجذر تمتص عصارة الغذاء (وهي الأملاح المعدنية وغير المعدنية الذائبة في التربة) ، وعن طريق الوريقات تتحصل على الطاقة الشمسية والهواء ، ثم يشاء الله أن تختلط جميعا (العصارة وضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون) فيما يسمى بعملية التمثيل الضوئي ، فتتحول العصارة إلى غذاء ، ويكبر النبات شيئا فشيئا حتى يصير شجرة وارفة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وتقفيض علينا بثمرها اليانع وظلّها الوارف...تلك هي قصة النبات وقصة الفكر على السواء:

• فالفكر غرسَةٌ من غرسات الفطرة الإنسانية ، ونأتى بها جمعاً إلى ساحة الدنيا مع مؤلدا لكن في هيئة بادرة كبذرة النبات ، وقد زوّدها الخالق سبحانه وتعالى بغذاءٍ تعتمد عليه في البدء ، وما غذاؤها هذا إلا

المعارف البديهية العفوية.(وقد سبق الحديث عن البديهية بشيء من التفصيل في باب العقل).

- وبمثل الجذور التي تُثَبَّتْ النباتات في التربة وتُمدّه بالغذاء الذائب فيها ، فالفكر كذلك يَتَثَبَّتْ في تربة المجتمع ليتزود بالعقائد وبالأعراف والقيم والأخلاق السائدة فيه ، وكلما امتدت الجذور الفكرية في الأعماق القِيَمِيَّة والعقائدية للمجتمع كلما زادت أواصر الفكر استمساكا به (ونرى ذلك بوضوح في الحياة القبلية البدوية وفي القبائل الأفريقية) ، وإن لم يعتمد الفكر على قيم المجتمع وعقائده انفكت تلك الأواصر ولن يتقبله المجتمع ما لم يكن هذا الفكر «دينا» مرسلا من الله ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فيظل مؤيدا من الله سبحانه وتعالى حتى ينصره على قوَى البغى ويُظهره على شرور وعناد الباطل.
- و الفكر مثل الشجرة الباسقة التي تتجدد أغصانها وأوراقها دَوْرِيَا مع مضى الزمن كلما شاخت الأوراق والفروع أو أصابها الذبول ، كذلك الفكر يتجدد أيضاً مع مضى الزمن وتسقط عنه الأفكار التي تَشِيخ ولم تعد صالحة والتي لم تراعى عامل الزمن ، وإن لم تَسْقُط من تلقائها فيجب التدخل بتقليمها وإزالتها حتى تفسح مجالا لأغصان الفكر المتجددة لكي تُزهر وتثمر من جديد وإلا أصابت المجموع كله بالعطب.
- وأغلب الأشجار تتعرض في موسم الخريف من كل عام لسقوط أوراقها وذبول أغصانها ، وخلال هذه الفترة تكاد تتوقف عن النمو المعتاد

حتى يأتي الربيع ، فتتجدد الأوراق والأغصان وتعود لها نضارتها وتستهل نموها الطبيعي من جديد ، بما يترك علامة دائرية داخل جذعها على قدر فترة هذا البياض الخريفى ، وكل خريف يأتي يترك معه علامة ماثلة حتى يتكون بالجذع العديد من هذه العلامات الحلقية المتداخلة ، والعارفون بعلم النبات يُقَدِّرونَ عُمر هذه الأشجار بعدد هذه الدوائر التى يمكن رؤيتها فى المقطع المستدير لجذعها ، وهى حلقات تبدأ صغيرة عند المركز وتتسع تدريجياً ، وأحدثها هو أكبرها الملاصق للحافة ، وكل حلقة أو دائرة تعادل سنة من عُمر الشجرة... كذلك الفكر... يجب إن يتجدد كل فترة من الزمان ، حتى أن الفكر الإسلامى يبعث الله من يجدده كل مائة عام ، وتلك سنة الحياة كلها بما فيها الفكر الإنسانى.

• قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا.. » الجامع الكبير للسيوطى عن حديث أبى هريرة.

وفى إطار حديثنا عن هذه الغرسة الفطرية يجب أن نقف قصة الفكر منذ بادرته الأولى فى عقل الطفل.. حيث تبدأ قصته مع بزوغ الوعى لدى الطفل ومع بدء معرفته لبعض مفردات حياته الصغيرة ، وإلى أن تصير هذه البادرة مع مرور الزمن ومع تعاقب السنين ومع تنامى الوعى ومع ازدياد المعارف ، فكراً مستقلاً ، أو فكراً مؤثراً فى جماعته أو مجتمعه ، أو فكراً راشداً لأمتة ، أو إبداعاً

فكريا إنسانيا خالداً..فدراك الطفل الوليدة وحصيلته معرفته المحدودة للغاية تجعل أفكاره صغيرة جداً مثله ، لا تتجاوز ما يدركه من معلومات في دنياه الصغيرة ، ثم ما تلبث أن تنمو أفكاره معه بتنامي المعلومات، فإن تصورنا طفلاً لم يتجاوز العام الأول من عمره ولا يعي من حياته سوى اللعب ، وأنه لم يتعلم بعدُ الوقوف أو المشي ، هذا الطفل يلعب الآن بِكرته الصغيرة في نطاق حجرته بالمنزل ، وقد اختفت الكرة أثناء اللعب ويريد أن يبحث عنها ، وبدأ عقله يفكر فيما أين ذهبت تلك الكرة ، سرى أن تفكيره الصغير وقتها ينحصر فيما عنده من المعرفة التي لا تتجاوز إدراكاته البصرية والسمعية وفي حدود مساحة دنياه الصغيرة التي لم تتجاوز مساحة حجرته ، لذا سنجد أنه يلتفت إلى الجهة التي سمع فيها آخر صوت ارتطام للكرة ، وتلك هي خطوة تفكير بديهية أولى ، ثم يرمى ببصره في المجال المنظور حوله من الحجرة وفي اتجاه مصدر الصوت ، وبالقرب منه ، فإن لم يعثر على ضالته نجده ينتظر برهة ليراجع الأمر ، وبعد تلك اللحظة الخاطفة المتلهفة ينظر أمامه ثم يستدير وهو جالس لينظر يمينا ثم يسارا فإن لم يجد الكرة حينئذ يتوقف نطاق تفكيره تماما ، وزاها وقد تغيرت ملامح وجهه الهادئ قاطباً جبينه زاماً شفثيه مغرورة عيناه بالدموع ، وهنا يتوقف فكره وتضيق به الدنيا ، وما يبقى له إلا أن يبكي إستنجاداً بالأُم..ومع تقدمه في العمر عاما آخر فإن فكره سيتجاوز ساحة النظر ونطاق الحجرة لأن معرفته قد زادت بازدياد إدراكاته ، فقد عرف أماكن أخرى بالمنزل وعلم بأن الأشياء الكبيرة تطوى تحتها علماً آخر وإن كان غير منظور له ، مما يزيد مجال البحث

عن الكرة ، فيفتش عنها أسفل الأريكة والكرسى والمنضدة وتحت الأغطية..وفى عامه الثالث ومع تنامى معارفه التى تفتحت معها مداركه العقلية ، حيث علم مؤخراً أن هناك من الأشياء الكبيرة لو حركناها لكشفت عن أشياءه الصغيرة التى يفقدها بين حين وآخر ، وبذلك سيتجاوز فكره مجال البصر وأسفل الأثاثات والأشياء الكبيرة ليبحت عنها خلف الأستار وداخل الصناديق وفيما وراء باب الحجرة أو باب الدولاب ، وقد تزيد إلى الظن بأن أحداً قد استحوذ على الكرة إذا ما كان فى البيت آخرون غيره..وعليه أن يعتمد على نفسه فى البدء علّه يعثر عليها ، وعليه أن يفكر قبل أن يستنجد بأمه ويزعجها فكثيرا ما تنهره خاصة وقت انشغالها فى أعمال البيت.

فطفلنا فى عامه الأول كانت أبجديات أفكاره بديهيات أولية..جانب من تلك البديهيات غريس فطرته ، وجانب آخر إستقاه من عالمه المحدود الذى لايتعدى ما يدركه ببصره وحواسه ، ومن تلك البديهيات: أن عالمه يقع جزء منه أمامه وآخر خلفه والثالث بجانب والرابع بالجانب الآخر ، ومنها - أيضاً - استحالة تواجد شخص واحد (أمه أو أبيه مثلا) فى مكانين فى ذات الوقت ، وأن الإثنين أكثر من الواحد ، وأن الأشياء تسقط من أعلى لأسفل ، ومنها - كذلك - الإحساس والشعور بأن الأجسام لها ثقل ، وأن الأصوات هى إما صوت حنون كصوت أمه أو صوت صارخ يثير الرعب كسقوط شئ ثقيل ، وأن من الروائح ما هو محبوب لديه أو كرهه له ، ثم تزداد أبجديات أفكاره مع مرور

الزمن، فيكتشف أن عالمه ليس أمامه وخلفه وعلى جانبيه فقط ، وإنما هناك ما هو أعلى وهناك ما هو أسفل وما هو بعيد مستور عنه ، وأن الأصوات ليست هادئة ناعمة وصاخبة فقط بل تتعدد درجات الأصوات لأكثر من ذلك وتتنوع ، وأن الروائح تتعدد هي الأخرى ، وأن طعم الطعام ليس واحداً بطعم لبن الأم وإنما يتعدد بتعدد ما يتناوله من أطعمة ، وأن الدنيا ليست المنزل فقط فهناك شوارع وأشجار وطيور وسماء.. إلخ، وهكذا تزداد حصيلة الإدراكات وتزداد المعرفة وتكتمل أبجديات وبدييات أفكاره شيئاً فشيئاً ، ومع تنامي المعرفة يستقى القيم والأعراف والعقائد السائدة في مجتمعه جنباً إلى جنب ، وتتكون لديه لغته الفكرية التي تتزايد وتنمو مع الأيام والسنين ، ويأتي بفكره الذي يبينه من حصيلة معارفه وعلومه ، والذي ينبئ عن شخصيته وتفرد.

فالبدييات التي نولد بها هي بادرة الفكر وهي أحرفه وأبجدياته ؛ بل هي أساسه وقاعدته ، وكل الناس اشتركوا فيها ، ولكن الأفضلية تأتي بعد ذلك بتطور المعارف والثقافة ، ذلك لأن الفكر مثله مثل الكائن الحي فيتقوى ويتنامى ويورف ويثمر وتتسع آفاقه طالما يتغذى بمزيد من المعارف والعلوم والحكمة ، وطالما يتنفس من نسائم الحرية ..لهذا ففكر الطفل لا يصلح لمرحلة الشباب ، وفكر الشاب لا يصلح لمرحلة الكهولة ، وقياساً على ذلك؛ فإن فكر الأمة في حقبها السابقة لا يصلح وحده لمسيرة الزمن المعاصر ، والعبرة من ذلك : أن التزود المستمر بالمعارف والقيم أهم عناصر صحة الفكر.

فضل المعرفة على الفكر

الفكر يظل هزياً ، هشا ، وعلى غير رُشدٍ ما لم يتغذى على الدوام بالمعرفة اليقينية وبالعلم الحق ، ذلك لأن التحصيل العلمى والمعرفى المستمرين يزيد من فرص تلاقي الأفكار فيما تزداد فرص النتائج الفكرى الفعال ، وكلما كانت المعرفة على درجة أقرب للحقيقة كلما تقوى نتائج الفكر وازداد صلاحاً ، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى عناء بحث ، وكيفينا فقط أن نذكر مثالا واحدا لنبين هذا الفضل الكبير، فلو أن رجلين، أحدهما كان له حظ وافر من علوم اللغة العربية ، وأصبح لديه تذوقا فى استيعابها وفهما عميقا لمعاني ألفاظها ، ورجلا آخر من هؤلاء الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون وليس له مثل هذا الحظ الوافر من العلم ، وأن هذين الرجلين استمعا معاً لقول الله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ 28 المطففين. التى يصف فيها المولى عز وجل جانباً من حال أهل الجنة..فسنرى أن انفعالهما فكريا مع الآية ليس على سواء ، بل يكون على تفاوت بَيِّن ، فأما الأول (العالم بأصول وقواعد اللغة) سيدهشه فى البدء، أن الصياغة القرآنية قد وردت بشكل مختلف عما يعلمه ، ذلك لأنها جاءت بحرف الجر (ب) فى التعبير: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ على خلاف خصائص اللغة التى تقضى بأن يلحق هذا الحرف بأداة الشرب فى حين أنها تخصص حرف الجر (مِنْ) لعين الماء..بمثل قولنا : (نشرب بالإناء من عين الماء) ، فالمعتاد أننا نشرب من عين الماء ولا نشرب بها! ، وسرعان ما يتكشف له أن الإعجاز اللغوى للقرآن

الكريم ما كان ليقتبل أن تأتي الآية بغير هذا الأسلوب البديع الذي جاءت به ،
وإلا اختلَّت معها المعاني خاصة وأنها تصف مشهداً من مشاهد الجنة ، حيث
فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنها لو جاءت
بحرف الجر (من) - الذي يعنى التبويض - فقد يوحى في تفكير البعض بأن
معين الماء قد يتناقص مع دوام الشرب وقد تنضب العين مع توالى العطاء منها
، في حين أن الحرف (ب) الذي يقترن بأداة (الشرب) فالأنسب والأجدر أن
تذكره الآية حتى لا يتسرب المعنى السابق لعقل المستمع أو القارئ..هذا،فضلا
عما يضفيه هذا الأسلوب القرآنى الفذ من معانٍ أخرى ترسم صورة أعمق وأوضح
عن مدى النعيم الذى يتفضل به الله تعالى على أهل الجنة ، حيث لا يسهم
فيها من نَصَب ولا ظمأ ، فبمجرد أن يتشوق أحدهم للشرب تأتيه عين الماء
طائعة لتسقيه هى بنفسها دون أن يقوم من مقامه ودون أن يبذل ثمة جهد
للترحال إليها ، وبذلك فقد سخَّرت العينُ نفسها أداة كريمة للشرب إلى جانب
كونها معين الماء العذب الزلال، ومعنى آخر يوحىه الإعجاز اللفظى للآية وهو
أن العين تظل تمد أهل الجنة بروائها بعطاء خالد غير مقطوع ولا ممنوع..
وهكذا،تترأى لهذا العالم مشاهد من الجنة كأنما يراها رأى العين بمجرد التفكير
في آيات القرآن الكريم على هذا النحو العلمى ، فيتعمق لديه الإيمان وترسخ
في قلبه العقيدة..هذا مثال أردت أن أوردته هنا كنموذج لفضل العلوم والمعارف
على رشادة الفكر وعلى رحابة مجاله واتساع أفقه ، وفضله الكبير على رسوخ
الاعتقاد.

والحق أن الرجل الثاني الذى لم ينل مثل حظ الأول من العلم والمعرفة سيعجز فكره عن الوصول لبعض ما وصل له الأول من معانٍ... ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آية 9 سورة الزمر.

فى هذا المثال نرى أن الفكر - سواء على المستوى الفردى أو على مستوى الجماعة - يرشد ويتقوى بالمعارف وبالعلوم الحقّة ، بالأحرى..هما رواؤه ، وبدونهما يذبل الفكر وتهمين عليه الأوهام والخرافات والخرعبلات ، ويصير فكراً مختلاً من شأنه أن يصيب الفرد والمجتمع بأفدح الشرور.

قول ابن خلدون فى الفكر

فى كتابه الأشهر « المقدمة » للعالم العربى الفذ / ابن خلدون، فصل فى الفكر الإنسانى فى سياق الباب السادس حيث يقول : « الله سبحانه وتعالى ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذى جعله مبدأ كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه ، وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك فى ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوانات فقط من بين سائر الكائنات والموجودات ، فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج

عن ذاته بالفكر الذى وراء حسه ، وذلك بقوى جعلت له فى بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات ، ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صوراً أخرى . والفكر هو التصرف فى تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالإنتزاع والتركيب ، وهو معنى الأفتدة فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (78) سورة النحل..والأفتدة جمع فؤاد وهو هنا الفكر وهو على مراتب . (الأولى) : تعقل الأمور المرتبة فى الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً ليقصد إيقاعها بقدرته ، وهذا الفكر أكثره تصورات ، وهو العقل التمييزى الذى يحصل منفعه ومعاشه ويدفع مضاره ، (الثانية) : الفكر الذى يفيد الآراء والآداب فى معاملة أبناء جنسه وسياستهم ، وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً إلى أن تتم الفائدة منها ، وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي . (الثالثة) : الفكر الذى يفيد العلم أو الظن بملوب وراء الحس لايتعلق به عمل ، فهذا هو العقل النظرى ، وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة ، فتفيد معلومات أخر كذلك ، وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله وأسبابه وعِلله ، فيكمل الفكر بذلك فى حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركه ، وهو معنى الحقيقة الإنسانية .

ويضيف العالم الكبير فى موضع آخر ..» أن الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع ، فإذا قصد إيجاد شىء من الأشياء فلأجل الترتيب

بين الحوادث لابد من التفتن بسببه أو علته أو شرطه وهى على الجملة مبادئه،
إذ لا يوجد إلا ثانياً عنها. « وهنا ينتهى قول العالم الخالد عن الفكر.

والأفكار تتتابع وترتقى فى مراتب تعلق بعضها بعضاً ، يربط بينها جميعاً
تلك الفطنة التى ذكرها ابن خلدون والتى يتجلى معها ما بين تلك الأفكار من
أسباب ومسببات وعلل وشروط ونتائج منطقيه وبدييات ، وإذا ما تحولت
تلك الأفكار المرتبة إلى عمل فيكون أول العمل هو آخر الفكر ، وأول الفكرة
هو آخر العمل ، وقد ضرب ابن خلدون لذلك مثلاً حيث أشار إلى إنسان
يفكر فى إيجاد سقف يكته فإنه ينتقل بذهنه إلى الحائط الذى يدعمه ، ثم إلى
الأساس الذى يقف عليه الحائط فهو آخر الفكر ثم يبدأ فى العمل بالأساس ثم
الحائط ثم بالسقف وهو آخر العمل.

بَوَائِثُ الْفِكْرِ

الفكر له من الخصائص ما يجعله يُخلّق فى الآفاق طبقاً لمسارات التى
يُحدّدها كل مفكر حسب ما يعن له وحسب ما ينشغل به ، ومثله فى ذلك
كمثل الطائرة التى لا يمكنها أن تحلّق فى السماء ما لم يوجد بها محركات ميكانيكية
تدفعها إلى أفق الفضاء وتذهب بها إلى ما يشاء قائدها، فى مسارات محددة سلفاً.

ولكى نتعرف على محركات الفكر وبواعثه يجب أن نقص قصة الإنسان منذ بدأ مسيرته على الأرض ، فإذا ما طوينا الزمن إلى أول خطوة خطاها الإنسان على وجه الأرض سنرى أنه وجد نفسه بين طرفي الزمان والمكان ، فالزمان يتعاقب، ليل ونهار ويوم بعد آخر ، والمكان يطوى الجبال والصحارى والسهول ومنابع المياه والأنهار، ووحوش شرسة تجوب الأمكنة في حالة من التحفز والشراسة ، وأول ما بحث عنه هذا الإنسان الأول هو الأمن من سعار تلك الوحوش الضارية ومن عوامل الجو القاسية جنبا إلى جنب مع البحث عن الطعام كلما ضربه الجوع ، وهنا بدأ يعمل فكره لضمان أمنه وسد جوعه ، فكانت الحاجة الضرورية إلى أعمال تلك الغريزتين هي أول ما حرك الفكر في الإنسان.

• نوازع الغرائز - إذن - هي أول الدوافع التي أدارت ساقية الفكر الإنساني.

ثم هداه فكره إلى أن يلجأ إلى كهوف الجبال ليأوى إليها ويحتمى فيها ويتخذها سكناً له ولذويه ، فقد رأى أنها تصلح لأن تقيه من غدر الوحوش الضارية ومن نوبات الطبيعة القاسية، وتضمن له أمنه ، وتتيح له الفرصة في أن يُخزّن فيها ما يستطيع توفيره من غذاء قد تحصل عليه بشق الأنفس - دون أن يكون هذا الغذاء عرضة لهمة السباع ، لكنه اكتشف بعد ذلك أنه لم يحظ بالأمان الكافي لأن فوهة الكهف كانت تشكل ثغرة يهاجم منها الوحوش الكهف

بمن فيه وما فيه، ووجد نفسه يفكر من جديد في الكيفية التي يستطيع بها أن يسد فتحة هذا الكهف، ففكر أولاً في أن يقيم جداراً من الحجارة، إلا أنه رأى صعوبة بالغة في الحصول على الحجارة وفي إقامة الجدار، فضلاً عن أنه يضطر إلى أن يهدمه ثم يقيمه في كل مرة يستخدم فيها الفتحة، فتخلى عن هذه الفكرة وراح يفكر بعمق في البديل المناسب، حتى وجد نفسه يسترجع ما كان يشاهده من أحوال الحيوانات والطيور سواء من باب الملاحظة العابرة أو من باب الفضول، وتذكر بعد هنيهة أن الطيور في موسم التزاوج كانت تحمل في مناقيرها بعض الأغصان اليابسة وتذهب بها إلى أعلى الأشجار حيث تغزل منها عششاً وأوكاراً، وكيف أن هذا العشش صارت فيما بعد مأوى للكبار وللصغار من الطير، فهداه فكره إلى أن يقلد هذه الطيور، ورأى أنه يستطيع عمل نسيج قوى من الأغصان الكبيرة على قدر فتحة الكهف فيسهل له الخروج والدخول دون عناء، ويأمن على طعامه المخزن به وقت غيابه عن الكهف، فسعى نهائياً إلى الوادى حيث تتوافر أشجار متنوعة كثيرة وتحصل على أفرع كبيرة منها، وعاد إلى كهفه لينسج منها باباً يسد به فتحة الكهف مع قدرٍ من التحكم فيه بالغلق والفتح، وبمرور الوقت رأى أن يجعل له مزلاجاً ليحكم به غلقه وهكذا بدأ التطور في صنعه كلما كان هناك داعياً للتطور.

- « الحاجة الضرورية المُلِحّة » هي الدافع الثانى للفكر..وقديما قالوا « أن الحاجة أم الاختراع »..وما زلنا نقولها.

ومع شعوره بالأمان في رحاب الكهف ، إلا أنه عانى من أجهاد مضني لبُعده عن منابع ومجاري المياه ولوجوده بأمكنة جبلية صعبة الوصول عسرة الدروب ، حيث ظل يعاني من مشقة ترحاله يوميا بين الجبل والوادي ، ليتحصل على حاجته من المياه ومن ثمار الأشجار التي أبت هي الأخرى إلا أن تتواجد هناك في الوادي ، عدا البعض القريب من الكهف لكنه نادر ، شحيح ، بخيل ، وظل يفكر قسماً من الوقت في الوسيلة التي يرفع بها عن كاهله هذا العناء المُضني ، وبعد لأيٍ هداه فكره إلى أن الإقامة في الوادي وحول منابع المياه ومجاريها أمر بالغ الأهمية والضرورة حيث سيوفر له الراحة والأمان ، ولكن.. كيف؟.. كيف له من سبيلٍ للإقامة في هذا الوادي الذي يفتقر للكهوف؟ وراح يفكر في البحث عن بدائل سكنية يمكن أن تغنيه عن الكهف لكنه لم يعثر على أماكن جاهزة مثل الكهف ، ورأى آخر الأمر أنه إذا كانت الطبيعة قد تخلت عنه وأبت أن تمنحه السكن فليدبر هو الأمر بنفسه.. وبدأ يفكر في عمل شيء شبيه بالكهف ، وأخيراً عاد إلى الحِبرة التي اكتسبها من فكرة ذلك الباب المُعَرَّش الذي صنعه من أفرع الأشجار ، وفكر في أن يصنع من مثل هذا النسيج المعرَّش أربعة جُدرٍ كبيرة بعض الشيء ، وعلى هيئة صندوق ضخم يتسع لإقامته هو وأسرته ، ويحقق له قدراً مناسباً من الأمن ، ولم يغفل فكره في أن يجعل له باباً مثل الباب الذي صنعه للكهف سابقاً ، وتعاون مع أسرته في جمع كميات كبيرة من أفرع الأشجار وذهب بها حيث المكان الذي اختاره بعناية للإقامة في رحاب النهر ، وعلى ضفافه، بدأ يبني ذلك الكوخ الصغير ، وهو أول منزل إبداعى صنعه الإنسان

ليأوى فيه مع أسرته ويرفع عن كاهله ما كان يعانيه من نصب وتعب حينما اتخذ كهف الجبل البعيد مأوى له ، ومع الأيام جعل له سقفا ليستظل به وبقى نفسه وأسرته من رمضان الصيف وتقلبات الجو طوال العام..وهكذا توالى التطور الإبداعي على ذلك الكوخ إلى أن صار أبنية شاهقة ومنازلا وقصورا بمثل ما نعرفه في هذا الزمان..وهنا، كان المحرك الثالث للفكر الإنسانى وهو «النزوع إلى الخلق والإبداع» وإعمال تلك الموهبة الفذة التى منحها الله له ولكل إنسان.

فالحاجة الشديدة التى عانى منها قد أشعلت فى أعماق قلبه جذوة الموهبة ، ثم هدته تلك الموهبة الإبداعية بعد ذلك إلى أن يصنع كل ما ييسر أمور حياته ويطورها تباعا ، كالأوانى التى يحفظ فيها الطعام ، والأوانى التى يُخزّن فيها المياه ، وأدوات الصيد البدائية ، ثم أدوات الزراعة البسيطة..وهكذا سلسلة من الاختراعات والابتكارات التى قادت إلى ما نحن فيه اليوم من حضارة وتقدم ومدنية.

• غرسة الخلق والإبداع - إذن - هى من أهم بواعث الفكر الإنسانى.

أما رابع بواعث ومحركات الفكر الإنسانى فهو تلك الغريزة التى اُختصّ بها الخالق سبحانه وتعالى « الإنسان » دون غيره من سائر المخلوقات ، وذلك هو « الحسد...! ** ، بيد أن الحسد المقصود هنا هو حسد الخير لا حسد الشر ، فالإنسان يمكن أن نطلق عليه « مخلوق حاسد » ، لذا قال الله تعالى فى سورة العلق : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (5) حيث لم تنتهى الآية عند: ﴿ مِنْ

شَرَّ حَاسِدٍ ، بل أضافت: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ أى إذا توجه الحاسد بحسده إلى الشر ، فشر الحسد مذموم ومكروه.. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « كُلُّ بَنِي آدَمَ حَسُودٌ ، وَبَعْضُ النَّاسِ فِي الْحَسَدِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ ، وَلَا يَضُرُّ حَاسِداً حَسَدُهُ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِاللِّسَانِ أَوْ يَعْمَلْ بِالْيَدِ » الجامع الكبير للسيوطي / أبو نعيم عن أنس... فالحسد - إذن - فطرة إنسانية ، وإذا ما توجه الإنسان بحسده للخير فذلك واجب وفرض إنسانى ، ولهذا يرشدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتوجيه الحسد إلى الخير.. فقد أخرج البخارى الحديث الشريف : (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَسِطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ).. فالعلم والحكمة وإنفاق المال فيما يرضى الله سبحانه وتعالى تلك أمور يجب أن نحسد عليها القاعون بها ، وإذا شاعت بين الناس تلك الفضيلة فإنها تحيل المجتمع إلى مضمار لاستباق الخيرات وصالح الأعمال ، فبذلك الحسد وبتوجيهه إلى صالح الأعمال وخير الأمور يتوَلَّد في إرادتنا روح التنافس الشريف مع الآخرين ، هذا التنافس يجعل في النفس حرارة وحمية وديناميكية توقظ معها غرائز الفطرة جميعها ومنها : غريزة التفكير التى تدفع النفس للترود من العلم والمعرفة لتدور ساقيتها بأقصى طاقاتها.

• حَسَدُ الْخَيْرِ : ذلك هو رابع المحركات التى تدفع بفكرنا إلى التحلق.

وتلك هى محركات الفكر الذاتية التى مصدرها ذات الشخص المُفكر ، وتنبع جميعها من الأصول الفطرية فى النفس ، إلا أن بواعث أخرى للفكر

تأتى من الأحداث الخارجة عن الذات والتي يمكن أن يتأثر بها الإنسان فتؤلّد في عقله طاقة الفكر ، ومنها :

الحدث الذى له وَقْعُ المُفاجأة، أو الحدث الذى يكسر جمود العادة والألفة ، ذلك لأن العادة ثباتٌ واستقرارٌ وجمودٌ صَمَدٌ ، والعقل ديدنه الحركة الدؤوبة والنشاط الذى لا يَفْتَأُ والبحث الدائب والتنقيب المستمر ، وهو فى انفعال وتفاعل مستمرين ما دامت حركة الواقع الذى يحيطه وما دام وعى الإنسان قائماً ، فأما الجُمود فلا طائل منه إلا خمول العقل وعطبه ، ولا فائدة فيه للفكر إلا الجمود والركود..لذا،فالعقل يأبى الجمود والرتابة والركود ، وواجبنا نحو العقل أن نُحرك له ثوابت الواقع ونغيّر في مواجهته إيقاع الحياة الرتيبة ، وإنها لخطوة بالغة التأثير لدفع العقل على العمل ولبث روح النشاط فيه ، فديناميكية الحياة تخلُق في صفحة العقل دوامات الفكر المتتابعات المتلاحقات مثما يحدث لصفحة الماء الراكد حينما نلقى فيه حجراً..ونحن جميعا يمكننا أن نلاحظ ذلك في أنفسنا حينما نقوم بتحريك الواقع الممل بمحيطنا بأن نُغيّر وضع ومواقع الأثاثات - مثلاً - في بيوتنا أو في مواقع عملنا ، أو حينما نُغيّر واقع الحياة اليومي الرتيب بالارتحال إلى أماكن أخرى في رحلة لبعض أيام أو ساعات فتدب فينا روح جديدة تستروح فيها النفس وتفتح على رحابة الحياة وينشط معها العقل ويتجدد بها الفكر..فالركود آفة من آفات العقل وعلة من علل الفكر ، أما ديناميكية الحياة فهي رُوح العقل وباعثة النشاط في الفكر..وما الفكر إلا أهم

نتاج العقل ، فيعتل ويطيّب بحسب صحة العقل أو علة.

ومن محركات الفكر أيضا : الاستنتاج ..وهو توالد معرفة جديدة من تزاج معرفتين سابقتين ومنها كذلك، الاعتبار..وهو العبور إلى معرفة جديدة من بين معرفتين سابقتين .

وحتى يتضح الفارق بين هذه الأمور الثلاث يجب أن نحلل الأحداث التي نمر بها..فلو أن تلميذا عاد لبيته قبل الموعد المعتاد لانتهاى اليوم الدراسى بوقت غير قصير (فهذا حدثٌ وقع على غير إلفِ العادة وله وقع المفاجأة) ، فيكون ذلك داعياً لأن يفكر ولى الأمر فيما دعا إبنه للعودة فى مثل هذا الوقت على غير المعتاد..فإذا ما تفحص حال إبنه ووُجد آثار خدوش بوجهه وتمزّقا بسترته ، فتلك معرفة جديدة تضاف إلى المعرفة السابقة ، وبتألف المعرفتين (تُسَنَّتَج) معرفة ثالثة مفادها أن ولده قد تشاجر مع زميل له ، ويبدو أن إدارة المدرسة قد عاقبته بعدم استكمال اليوم الدراسى..وإن اختلفت المعرفة الوليدة عن المعرفتين السابقتين إلا أن لها صلة وطيدة وارتباط بكل منهما ، فهى وليدتهما.. فإذا ما قام الوالد بمعاقبة إبنه وتعنيفه بقسوة جراء فعله الشنيع، خاصة أنها ليست المرة الأولى له ، فتتحصل فى نفس تلميذنا،هذا معرفة جديدة وهى: أن انتهاك النظام وقواعد السلوك مدعاة للأذى والعقاب الشديد ، (ويُعتَبَر) لذلك ويعقد العزم على أن لا يكرر ذلك مستقبلا (فذلك هو الاعتبار)..تلك هى بواعث خارجة عن ذات الشخص تثير فى العقل الانفعال وتبعث فيه طاقة

الفكر للتفاعل مع الأحداث.

والوسائل التي يتخذها الفكر لتحصيل معارف من نتاج معارف أخرى هي: النظر ، والتأمل ، والتذكر ، والتدبر.. فولى أمر تلميذنا هذا، نظر أولاً في حال إبنه لدى عودته للبيت ووجد فيه كدرا على غير عادته ، وتأمله هنيهة ووجد آثار عنف عليه ، وتذكر أن له وقائع مماثلة لم يرتدع منها ما دعته إلى أن يقسو في العقاب معه ، متدبرا في ذلك مستقبل إبنه الذي أصبح في خطر ، ما لم يتمتع مطلقا عن اقتراف مثل هذه الأفعال التي كثيرا ما تُعطله عن دروسه وتعوق جاحه وتفوقه.. وتلك هي نماذج لحالات فكرية لها بواعثها وأدواتها.

أُسُسُ وَقَوَاعِدُ الْفِكْرِ

لا شك في أن أحد أهم أنشطة العقل هو الفكر الذي يأخذ من المدلولات العقلية مبادئ يتخذها أساساً له ثم يقوم بعمل بنائه الفكري عليها ، والفكر - كما ذكرنا - بناء يعلو تباعا مع ازدياد المعرفة ومع دوام الحرية ، وكأى بناء لا ينشأ إلا على أساس، فالفكر كذلك يُبنى على أُسُسٍ من البديهة والمنطق ، وكل فكرة لم تُبنى على هذا الأساس فلا بد وأن تهوى من تلقائها لافتقادها القناعة والصدق والأثر ، والأفكار بعد ذلك إما تُدرج جنبا بجنب في بناء أفقى ، فتؤثر كل فكرة في التي تجاورها وتلتحم بها وتتصافر وتتعاشق معها لتشكّل جملة فكرية متماسكة ، كأن تكون الفكرة الثانية متممة للأولى أو مكملة لها ، أو

أن تأتي الثانية لتُبين وتوضح وتجلى ما قد يخفى من الأولى إن وجدت وحيدة بدونها.. هذا أمرٌ أول ، وأما الأمر الثاني : فهو أن تثبت فكرة على فكرة أخرى في بناء رأسى ، وهنا تكون إحداها تعلو الأخرى وتتخذها قاعدة وأساساً لها ، وحينئذ يكون وجود الفكرة الثانية مرتبط بوجود الأولى ولا يمكن إيجادها منفردة دون اعتمادها على الفكرة التى سبقتها ، كأن تكون الفكرة الأولى سبب أو علة أو شرط للثانية ، أو أن يكون وجود الفكرة الثانية أحد نتائج وجود الأولى ، وهذان الأمران من جهة تركيب الفكر ، الذى قد يكون تركيباً أفقياً أو يكون رأسياً أو يكون مختلطاً منهما معاً ، وهذا هو الأغلب الأعم.

وبحسب قدرة العقل على بناء الأفكار فله القدرة أيضاً على تفكيك الفكرة الواحدة وإحالتها إلى عناصرها الأولى ، فالفكر يتدخل فى الأمور المركبة وبمستطاعه أن يقوم بتحليلها وتنسيقها وأن يعيد تركيبها من جديد فى صورة إجمالية مغايرة ، وهناك علاقات بين الأفكار حتى وإن كانت تبدو أفكاراً مضادة أو عكسية ، هذه العلاقات التى تترابط بها الأفكار تعتمد على البديهية والمنطق ويقبلها العقل الراشد ويطمئن لها القلب السليم ولا تأبأها النفس السوية .

تلك هى أسُس وقواعد الفكر ، إلا أن هناك من الأفكار ما يأتى بناؤها بغير تلك الأسس وقد يظل وجودها مؤثراً لبعض الوقت - خاصة فى المجتمعات العشوائية أو المتخلفة ، لكنها تظل حاملة لعوامل فنائها ، وهى مهياة للسقوط

فى أى لحظة، ذلك لأنها ليست فكرا سليم البناء بل هى شطحات عقلية بلا قواعد ، ولا تصمد مع الزمن كالخرافات والخزعبلات والأوهام وسرعان ما تهوى من تلقائها..والفكر كذلك مكوّن من اللبّات التى يُبنى منها ، فإن فسدت اللبنة فسد كله ، وإن صلحت صلح كله ، فإن جاءت اللبّات على غير قواعدِها السليمة أو أسسها المنطقية ، ولم يراعى فيها تلك الروابط التى تربط الأفكار بعضها البعض ، يصير فكرا آيلا ، فإما يسقط من تلقائه ، أو أن يصمد قليلا ثم يهوى مع أى رياح فكرية سليمة قد تعترضه.

وكما ذكرنا سابقا،الفكر كالكائن الحى يبدأ صغيرا ثم ينمو ويتطور ، ومثل كل كائن حى فإنه يصاب بالعلل والأمراض إذا ما منعنا عنه بعض غذائه أو كتمنا عنه بعض أنفاسه ، فقد يكون الفكر معاشيا لزمّنه وعصره ويتغذى بكل ما يستجد من المعارف فيظل مزدهراً وارفا ويؤتى ثماراً يانعة نافعة ، تُغذى - بدورها - العقول وتنمى بها المعارف التى تؤثر فى الأخرى فى الفكر من جديد فيزداد بها نُموً ورُشداً ، وتدوم تلك الدورة الفكرية العقلية بلا انقطاع .

والحكم بمدى صلاح الفكر أو فساده إنما يكون بمدى تأثير المجتمعات به وكونه فى صالحها أو فى غير صالحها ، فكم من الأفكار العظيمة أتت بالنفع على الإنسانية وأسهمت على التقدم والحضارة ، وكم من الأفكار الفاسدة التى جلبت على الإنسانية الخراب والدمار وسفك الدماء مهما تجمّلت وقت استهالتها

الأولى، ومهما اغتَرَّ الناس بها ، ومهما حُسِّنَ ظنهم بها، ولكنها سقطت من تلقائها مع التجربة لأنها جلبت معها الشر الوبيل ، والمسيرة الإنسانية ذائرة بمثل هذه التجارب الفكرية البائسة .

ومن الفكر ما يبدو أن لا نفع منه ولاضرر ، كالخزعبلات والأباطيل والخرافات والتخيلات البعيدة عن المنطق ، إنها تبدو - من ظاهرها - وكأن لاضرر من ورائها ، ولكنها فى الحقيقة أفكار فاسدة ، نبتت من أوهام ولاستند إلى منطق ، وتأتى من أفراد فاسدى التكوين ، قلوبهم خاوية أو خربة ، وكان من الخير أن تُشغل بفكر نافع ، وقد يشيع مثل هذا الفكر بين أفراد المجتمع لسبب أو لآخر فيستحيل إلى عقائد باطلة وخرافات تُعطل مسيرتهم نحو التقدم والرقى.

والفكر قد يكون راكداً مثل مياه البركة الآسنة ذلك لأن مفرداته وقواعده فى غفلة عن الزمن الحاضر فيما يكون قد استقى زواؤه من الماضى وحده ، فالزمن يمضى والأحقاب تتوالى والحضارات تتتابع بينما يظل هو فكراً عطنا طالما أنه يهمل المفردات المستجدة فى واقع الحياة ويعتمد فقط على ركام من الأفكار العتيقة التى حتماً يعتريها غبار الزمن ، ولم تأخذ حظها من التنقية والتجديد ، فالتقدم ليس إلا حصيلة تراكم للأفكار الصالحة ، وأى تقدم جديد يجب أن يبنى من نتاج الفكر الحاضر المُتَنَبَّه على خبرة الماضى (وليس فكر الماضى) فما

نفكر فيه اليوم يخضع للتجربة غدا ، فإن أثمر وبدأ أنه في صالح المجتمع صار خبرة تضاف للخبرات السابقة.

والفارق بين الخبرة والفكرة أن الأخيرة ذات قوام وحصيلة نظرية ، وتبدو في بناء سليم وتدعو للثقة والاطمئنان بحسب الاعتقاد ، إلا أنها قد تحمل في باطنها عوامل أخرى خافية لها من الضرر أكثر من النفع ، ولكنها غير معلومة ، ولن نستطيع أن نؤكد حتمية صلاحها إلا بعد التطبيق على الواقع ، أو تأتى فكرة أخرى أشد صوابا منها فتطيح بها ، فإن مضى الزمن وخضعت الفكرة إلى التجربة الحية وأظهرت التجارب مدى قوتها ومتانتها ومدى صلاحها للمجتمع ، فتنحول من فكرة إلى خبرة مجتمعية تثمر للأجيال المتابعة ثمارها ، لكن لا نستطيع أن نستخدمها كفكرة مستقلة يمكن البناء عليها ، ذلك لأنها نتاج الوقت الذى جاءت منه وفيه ، ومع مُضَى الزمن يحدث لها تطور متلاحق ، وإن جىء بفكرة قد مضى عليها زمن طويل فلن تجدها هى نفس الفكرة التى بدأت ، وستجد أنها قد حدثت لها تطورات وتغييرات وأدخلت عليها العديد من التعديلات وصارت فى حالتها الأولى لا تناسب العصر الحاضر ، كما وأنها فى حالتها الحالية لا تناسب عصرها الأول الذى نبتت منه وفيه ، مثل ذلك الباب المعرّش الذى صنعه الإنسان الأول من أغصان الشجر ليسد به فتحة الكهف ، والذى صار فى زمننا بالشكل الذى نعرفه ، فتبدلت هيئته لهيئة أخرى وتحولت الأفرع الخشبية المتشابكة إلى ألواح متماسكة ودُسر

وزخارف وفنون ، أو صار بابا معدنيا مكتملا ، وأدخلت في صنعته المفصلات المعدنية والكوالين الأليكترونية والمزاليج والشراعة والزجاج والدهانات والعين السحرية وجهاز الإنذار وأشعة الليزر وكاميرات الفيديو.. إلخ ، والسؤال المُلِح الآن هو : هل فكرة الباب المعرش التي كانت في رأس الإنسان الأول نستطيع استخدامها اليوم بذاتها دون النظر للتطور الذي حدث لها مع الزمن ؟!! المؤكد أننى سأخذ نفس الفكرة + الخبرات التي تراكمت عليها حتى اليوم ، أما إن كنتُ قد حوصرت وحدى في جزيرة نائية وصار من المحتم أننى لن يُكتب لى الخروج منها أبدا ، فساعتها، فقط يمكن لى أن آخذ الفكرة الأولى لأننى بمعزل عن العالم بما يذخر من فنون حديثة وأفكار تكنولوجية وصناعات متطورة وما يُستكشف من خامات وما يُستحدث من أدوات ، وأصبحتُ فى وضع أشبه بالزمن الذى عاش فيه صاحب الباب المعرش ، هنا فقط أستطيع استخدام ذلك الباب المعرّش.. وبالمثل، فكل من يغفل الفكر المعاصر، سواء عن قصد أو جهل، ويريد أن يعتمد على فكر الماضى وحده فعليه إن يذهب هنالك إلى هذا الماضى البعيد ويدعنا نحن نساير عصرنا بفكرنا المتجدد الذى لا يغفل مفردات الفكر الحاضر ويتخذ خبرة وحكمة الماضى (وليس فكرهُ) أساسا للتجديد!!! فالفكر المعاصر لا يكون صالحا إلا من تزواج حكمة الأجداد وخبرتهم مع مفردات وروح العصر.

والفكر يجب أن يُطلق له العنان ويُمنح الحرية المطلقة للتزود بالمعرفة والخبرات ، والأديان جميعها توصى بذلك بل جعلته فرضاً على الجميع ، وبصفة

خاصة دين الإسلام الذى لم يفرض ثمة قيوداً على الفكر ، فالإسلام يُفَضِّل أن نستثمر الوقت فى التفكير على تسخيره فى أداء فروض العبادة « تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامٍ لَيْلَةٍ » حديث شريف..ذلك لأن التفكير قبل أن يكون فرضاً فهو درجة سامية من درجات العبادة..والحالة الإستثنائية الوحيدة التى نهى الإسلام عن التفكير فيها جاءت حرصاً على العقل الإنسانى المحدود الذى لا يقدر عليها ، فقد فرض الإسلام الحرية الكاملة للفكر الإنسانى حتى فيما يوصل إلى الله تعالى ، على أن يقف الفكر عند ذلك فلا يتعداه إلى التَفَكُّر فى ذات الله ، فلا طاقة لعقل الإنسان أن يتفكر فى ذات الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر منطقي ، فالإنسان مخلوق ، وليس من قدرة المخلوق ولا من استطاعته أن يفكر فى ذات خالقه سبحانه وتعالى ، وفى هذا قال أحد الحكماء قديماً : إذا ما استطاعت الدودة التى تحيا فى أحشاء الإنسان أن تتعرف على ذات الإنسان وأحواله وقسماته لاستطاع الإنسان أن يتعرف على ذات الخالق سبحانه وتعالى..فالدودة والإنسان يعيشان معاً فى عالم واحد (عالم الشهادة) فما بألنا بالعقل الإنسانى المحدود..هل يستطيع أن يتعرف على ذات الخالق المهيمن العزيز سبحانه وتعالى؟! قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (تَفَكَّرُوا فى خَلْقِ الله وَلَا تَفَكَّرُوا فى الله فَمَهْلِكُوا) الجامع الكبير للسيوطى / الجزء الأول .

لحرية الفكر ليست فرضاً إنسانياً فقط ولكنها واجبة دينياً أيضاً..إنها فَوْح إنسانى كمثّل فَوْح شَدَى الورد ، فمن ذا الذى يستطيع أن يقيد الورد عن شذاها وعبيرها..فمن يحاول قيد الفكر أو أن يحد له حدوداً فقد ارتكب إثماً كبيراً فى حق

الإنسانية جميعها، وللكتاب والمفكر العربي الكبير / عباس العقاد قول رائع عن حرية الفكر أورده في كتابه «التفكير فريضة إسلامية» «نقله هنا بنصه حيث يقول : « شر الناس في الإسلام من يُحَرِّم على خلق الله أن يفكروا ويتدبروا بعد أن أمرهم الله بالتفكير والتدبر وأنبأهم بعاقبة الذين لا يفكرون ولا يتدبرون ..» ويضيف العقاد : « ومن أباح لنفسه أن يُحَرِّم على الناس نعمة العقل والعلم إلى آخر الزمان ، فقد أجتهد برأيه إجتهداً أبعد في الدعوى من كل ما يدعيه المجتهدون أن يبتغوا الوسيلة إليها ، فهو ينهى الناس برأيه عما أمرهم به الله وأجتهدوا قادرين أو عاجزين أن يطيعوه».. كما ويقول في موضع آخر من الكتاب : « فالدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأخبار بين المخلوق والخالق ، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة ..» ويضيف: « لاهيكل في الإسلام ولا كهانة حيث لاهيكل فكل أرض مسجد وكل من في المسجد واقف بين يدي الله ، ودين بلا هيكل أو كهانة لن يتجه فيه الخطاب - برهة - إلى غير الإنسان العاقل حراً طليقاً يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم.»

* * *

آثار كبت الفكر

الملفت للنظر أنه وُجد في مسيرة الإنسانية من قيّد الفكر ومن حمل أصفاده بغياً وعدواناً أو بدعوى حماية الدين ، فعلوا ذلك وهم متحصنون بسلطان ديني مُفترى أو سلطان سياسي ظالم.. وإنهم لكثُر!، ولم تكالبوا على كل من آمن أو اعتقد في حرية الفكر ، وأرهبوهم وهددوهم بالويل والثبور ، وفتكوا ببعض ، ونجا منهم من نجا بالحيلة أو بالرجوع عن طلاقه فكره..أو قل ساخرًا: عن جُرمه الشنيع هذا! فداءً لنفسه من المقصلة أو الموت حرقاً أو شنقاً ، ولعل أبرز من نجا من كيدهم هو واحد من أعظم وأشهر العلماء في تاريخ الإنسانية : ” جاليليو جاليلي ” حيث أعلن اكتشافاً علمياً مذهلاً كان من شأنه أن يقلب موازين الفكر والعقيدة رأساً على عقب -يومئذٍ ، حيث يثبت باليقين العلمي أن الشمس هي المركز الذي يدور حوله الكواكب ، على غير المعتقد الديني السائد لدى العامة والراسخ في أذهان الكهنة والرهبان - وقتها - بأن الأرض هي مركز الكون جميعه وأن كل الأجرام والنجوم التي يراها الناس ليلاً ما هي إلا تابع لها وتدور حولها في استسلام وخضوع!!، فكيف بأى فرد مهما كانت مكانته العلمية الذائعة أن ينتهك هذا المعتقد الديني الراسخ رسوخ الجبال ، فأرسلوا في طلبه على عجلٍ وعُقدت هيئة صارمة للنظر في أمر هذا المختل ومحاكمته بتهمة الزندقة والمروق عن الدين ، وعقوبتها المنتظرة هي الإعدام لا مفر!!، فكيف بهذا الشيخ

الوقور أن ينجو من هذا الاتهام الباغى الذى هو منه براء؟!، يَبْدُ أن القَدْر قد ساق له الفرصة التى تُنْجِيهِ من المقصلة ، فقد وجدوا أن إعدامه لن يفيد شيئاً ، بل قد يرسخ الفكر الجديد الذى أتى به فى أذهان العامة..والأفضل أن يعلن هو بنفسه خطأ هذه الفكرة العلمية التى أذاعها مقابل نجاته من تنفيذ العقوبة ، وقد أذعن لهم ، ونجا من المقصلة بعدما أعلن على الملأ أن ما ذكره عن دوران الأرض حول الشمس لم يكن إلا هرطقة عقلية لا أساس لها!!..هكذا كان الفكر يقيد فى العصور المظلمة!!، وتلك هى آفة كل عصور الظلام التى يقيد فيها الفكر باسم الدين والدين منه براء.

هؤلاء الذين قَيَّدُوا الفكر - بمثل هذه الدعاوى الزائفة أو بأى دعاٍ أخرى - إنما هم خفافيش الظلام وأعداء الفطرة الإنسانية وأعداء التقدم والحضارة ودعاة التخلف والرجعية ، ولقد عانت منهم الإنسانية كثيراً ، كما اقترنت عهود الظلام والتخلف دائماً بهم، هذا ما كان فى الزمن الغابر ، أما عن أمتنا التى خلت بقاعها من تلك السلطة الزمنية لكهنة ورهبان عصور الظلام، وانطلقت فى مسيرة حضارية بالغة الذرى مع بزوغ دين الفطرة، دين العقل والعلم والمدنية ، وصارت هى الأمة الرشيدة التى دستورها : قرآناً مجيداً تنزيلاً من رب العالمين ، وهُداها : هُدياً نبوياً شريفاً ، وأسوتها : نبي الرحمة وسيد الخلق (صلى الله عليه وسلم) ، وصارت هى الأمة الوسطا والأسوة الحسنة ، واستفاض دين الفطرة فى قلوب الناس فى مختلف بقاع الأرض من أقاصى الشرق لأقاصى الغرب طواعية دون

كره ، وتقبلته القلوب المنتظرة على شوق ، وتهللت به الأُم لأنه الدين الذى يفرض الحق ويقيم العدل ويصون الفطرة ولا يُكَلِّف نفساً إلا وُسْعها ، واستقرت نفوس الناس وهدأت واطمأنت وأخرجت من مكانها روائع الفكر الإنسانى والإبداع والنبوغ والعبقريّة .

ومن المثير للعجب وللدهشة ! أن علماء الدنيا فى الإسلام كانوا هم أنفسهم علماء الدين فى معظم الأحوال ، رغم التباعد الظاهرى بين هذه العلوم، خاصة بين علوم الفقه والشرعية والحديث من جهة والعلوم الكونية من جهة أخرى ، ولقد كانوا متميزين فى جميعها نبوغاً وإبداعاً وريادة بما يؤكد على أن الإسلام ليس ديناً للعبادة فقط بل هو دين ودنيا معاً..ومن أبلغ ما قيل فى ذلك ما ذكره المفكر الإسلامى الكبير/ خالد محمد خالد ، فى كتابه القِيم : « رجال حول الرسول » ضمن حديثه عن الصحابى الجليل / سلمان الفارسى الوافد على الإسلام من بلاد فارس، حيث يقول الكاتب الكبير : (وإنها لإحدى روائع الإسلام وعظائمه ، ألا يدخل بلداً من بلاد الله إلا ويثير فى إعجاز باهر كل نبوغها ، ويحرك كل طاقتها ، ويخرج خبء العبقريّة المستكنة فى أهلها وذويها ، فإذا الفلاسفة المسلمون..والأطباء المسلمون..والفقهاء المسلمون..والفلكيون المسلمون.. والمخترعون المسلمون..وعلماء الرياضة المسلمون..يبزغون من كل أفق ويطلعون من كل بلد حتى تزدهم عصور الإسلام الأولى بعبقريات هائلة فى كل مجالات العقل والإرادة والضمير..أوطانهم شتى ودينهم واحد..).

وبعد أكثر من ثمانية قرون من الإنطلاقة الحضارية الإسلامية وانتشارها في أرجاء الدنيا من أقصى شرقها لأقصى غربها ، بفضل تمسك المسلمين بعلوم الدين وعلوم الدنيا معاً، إلا أنه قد حدث ما لم يكن يحدث لولا انشغال الأمة بأمور النزاعات السياسية ونشوب الشقاق والصراعات التي أدت إلى التمزق والفرقة والضعف العام وخاصة ضعف العقل ، وأتت الفرصة المواتية التي ينتظرها المتربصون من أهل البغي ، وتسلت الأفكار المناوئة، سواء من زمن الجاهلية أو من خبائث الأمم والطوائف الأخرى المتربصة بالإسلام، واختلطت تلك الأفكار بالفكر الراشد للأمة الذي سارت على دربه في مضمار الحضارة الإنسانية قرونا عدة وبلغت فيه شأوا عظيماً. وأشد ما يحزن أن بعض هذه الأفكار المناهضة للدين وللحضارة قد استمكنت من العقل العربي وتجذرت فيه تجذراً مستعصياً ، وتشعبت في الفكر واختلطت بالثقافة العامة لعدة قرون أخرى من الزمان ، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الشيخين الجليلين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده في نهاية القرن التاسع عشر حاملين أبواق الصحو ونواقيس الإفاقة ، وبذل هذين العالمين الجليلين جهداً عظيماً لاجتثاث تلك الأفكار من العقول وتنقية الفكر والثقافة منها ، وإن حالهم قدر من النجاح في تجديد الفكر للأمة منذ الوهلة الأولى باستجابة مخلصه من بعض رجال الدين ورجال الفكر على السواء ، إلا أنه - وبعد مائة عام من هذا التجديد الفكرى - مازالت تلك الأفكار المناهضة تطل برأسها من جديد بين حين وآخر، لتعلن عن نفسها بوجه سافر وبجراً فاحشة وبلا مواربة أو نخيل

، ولقد أهاجت تلك الأفكار النخرة عقول بعض الشباب الذين عصوا الأمة وتجاؤوا عن مجتمعاتهم وأهلهم ، وحملوا السلاح وأشاعوا الفوضى والخراب والدمار والقتل هنا وهناك لدرجة التمثيل بجثامين قتلاهم أبشع التمثيل ، ومن عجب أن كل هذه الشناعات قد اقترفوها باسم الدين الحنيف..ويا للأسى والأسف!!

أقول - وبعد أكثر من مائة عام من بث روح التجديد في الفكر العربي - أن جهد هذين الشيخين الجليلين لم يجهز تماما على تلك الأفكار السارية في العقول ، وأن الدلائل تؤكد أنه مازال في العقل وفي الثقافة العامة للأمة آثارها الباقية ، ويبدو أن اجتثاثها لم يكن على الوجه الأكمل ، وبقيت منها جذور دفينية لم تُقتلع قلعاً ، كما وأن بذورا منها ظلت سارية ومستخفية في تربة العقل ، وكما واتها الفرصة اهتزت وربت من جديد ، وأخشى ما أخشاه هو أن يتكاثر ويتشعب النبت العطن ويطنى ما لم نزرعه من ثقافتنا نزعا ، ونعيد تقليب العقول القاحلة ونُنقيها من تلك البذور الشيطانية ، فهي آثار من عهود التخلف والظلام انطلقت في حُفْيَةٍ تحت أعطاف الدين لتتحين الفرصة عند انشغال الأمة بصراعاتها أو كلما فترت فيها العزائم ، وقد واتها الفرصة تلو الأخرى ، وكان من آثارها أن ضيقنا على أنفسنا من متسع الفكر ومن رحابته ، وضاق بنا حال الفكر وحال العقل معاً ، وتنحينا عن رحابة الدين وعن كرائم نوره وعطاياه الزاخرة وفضائله الزاهرة ، وضاق فهم الكثيرين له حتى صار في نظر البعض مجرد

جلباب وذقن وخُف وسواك ونقاب..، وبذلك، قد أطبقت علينا أحوالنا البائسة ، وحاصرنا الفقر والجهل والمرض والعوز ، وضائق بنا الدنيا على رحابتها.. مثلنا في ذلك، مثل من تفضل الله عليه بقَصْرِ رَحْبٍ منيف ، ويغمر كل جنباته ضوء الشمس وعلى مدار النهار بأسره، ويتخلله الهواء في كل حين ومن كل جانب ، وقاعاته وغُرْفه الفسيحة تشرف على حدائق وبساتين غناء زاهرة ، فترك كل هذا النعيم ونزل إلى البدروم وتخيَّر منه جانبا رطباً مظماً وقع فيه راضياً ، وظل على حاله المزرى هذا غير عابئ بما هو فيه من أظمار البؤس والأسى.

وهكذا، تَوَطَّنت في نفوسنا السكينة والدعة ورضينا بمحدودنا الضيقة وبحالنا ووضعنا الرث الهزيل ، وطال علينا الأمد حتى صرنا في غفوة أشبه بنومة أهل الكهف، وصرنا في منأى عن النهوض والمضى قدماً أثراً للدعة وللسلامة ، وهكذا اختلطت تلك الأفكار في الفكر العربي عامةً وامتزجت مع الزمن ببواطن النفوس ، وعلى مدار الأزمان ظهر من بيننا رجال أغرار في لباس الدين وأدخلوا على الثقافة العربية الإسلامية ما ليس منها ، منهم الذين طَوَّعوا الدين للتقاليد البالية ، ومنهم من تجرأ أكثر بأن اتخذ من بعض التقاليد ومن بعض العادات قوالباً، ليصب فيها التوجيهات الدينية لتتشكل بها ، ومنهم هؤلاء الذين رضوا أن يقفوا حائلاً بين أمتهم ومستودعات العلم الدينى ، وأشاعوا الخوف في قلوب الناس وحذروهم من الاقتراب منها بدعوى أنها والدين كل في طريق.. وإني لأتساءل في دهشة: كيف دَوَّت هذه الأصوات الناشزة مثل هذا الدوى

مع الزمن وما زال نشازها يدوى فى الآفاق؟!، ومن العجب أن ينظر البعض إلى فكر هؤلاء نظرة تقديس كأنهم قد أصابوا القول فى كل الأحوال!، لكنهم ليسوا بشرا يصيب ويخطئ!، والغريب أن يظهر البعض نبوغه بحفظ مقالاتهم عن ظهر قلب أو ينقل عنهم نقلا ديناميكيا - بحسب التعبير الدارج (بالمسطرة) - دون إعمال الفكر، والأشد غرابة ودهشة أننا لم نترج بعد من دوى صوتهم ولا من نشازهم.. فهل وصلنا إلى هذا الحد من البلادة؟!

والمقام هنا يدعونا إلى أن نذكر واقعة حدثت فى غضون عام 1305 هجرية / 1887 ميلادية.. عندما حاولت الحكومة المصرية إصلاح حال البلاد فى عدة محاور إصلاحية من بينها إصلاح التعليم فى الأزهر الشريف بإدخال بعض العلوم التى يجوز تدريسها بالأزهر إضافة إلى ما يدرس من العلوم الشرعية وقتها، حيث قام ولّى الأمر بتدبير حيلة مع المخلصين من طلاب الإصلاح للبدء فى الإصلاح المطلوب، وقد ذكر المفكر العربى الكبير / عباس محمود العقاد هذه الواقعة فى كتابه عن سيرة الإمام / محمد عبده .. ونقل هنا مقتظفا ما ذكره المفكر الكبير فى الفصل الذى وضع له عنوان « فى الأزهر » ونرى منه مدى العناية الذى يواجهه الإصلاحيون فى سعيهم للإصلاح.. حيث قال : (ومع هذه الضرورة الملحة « ويعنى ضرورة الإصلاح » على ولى الأمر لم يجرؤ على اقتحام العقبة بغير تمهيد يعفيه من تهمة التهجم على حرمة المسجد وتقاليد الدين، فدبر مع المخلصين من طلاب الإصلاح (حيلة شرعية) للبدء بالإصلاح المطلوب

، واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية فى مسألة العلوم التى يجوز تدريسها بالجامع ولا تعتبر العناية بها فى أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الإسلامية ، وكلفوا عالما تونسيا فاضلا - هو الأستاذ / محمد بيرم ، أشهر علماء جامع الزيتونة فى عصره - أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ / محمد الإنابى شيخ الجامع يومذاك فكتب إليه بعد تمهيد وجيز : (...ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسامین للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبیعیات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكیمياء وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما ینبنى علیه منها من زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرين لها فى كل ما یشمله الأمر بالاستعداد ؟، بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا كفائيا..وهل يجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة والقرویین..أفیدوا الجواب لازلت مقصدا لأولى الأبواب).

وجاء فى رد شيخ الجامع الأزهر وقتها : (...يجوز تعلم العلوم الرياضية والجغرافيا والطب ، ويجب منها ما تتوقف علیه مصلحة دينية أو دنیوية وجوبا كفائيا ، وأن ما زاد عن الواجب فتعلمه فضيلة ، وتضمن الرد تحريم علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالتشکیلات الفلكية على الحوادث السلفية ، أما عن علوم الطبیعیات فقد قرر بأن البحث فيها إذا جاء عن طريق أهل الشرع فلا مانع منها وإن كان على طريقة الفلاسفة

فالاشتغال بها حرام ..)

وقد وصف العقاد هذه الفتوى بأنها عقيمة ، وفي تعليقه عليها يقول : (ويستطيع الناظر في تضاعيف هذه الفتوى أن يلمح منها انها تفتح الباب فيما أباحته للتفرقة بين طريقة وطريقة وغاية وغاية ، ولا سيما في المنطق والطبيعات فلا يشق على المعارض في تدريس علم منها أن يؤجل تدريسه على الأقل إلى أن يثبت خلوص الكتاب المقرر من الشوائب الممنوعة..وتلك كانت النية منذ صدرت الفتوى اضطرارا بهذا التحفظ والتقييد ، فإن الشيخ قد أصدرها وهو ينوى تعطيل برنامج الإصلاح بأمثال هذه الحجج التي لا تعي أحدا يريد لها بعد السير في خطوات التنفيذ العملية). راجع كتاب : « سيرة الإمام محمد عبده » للمفكر العربي الكبير عباس محمود العقاد.

ولهذا..ظلت الفتوى حبرا على ورق لعدم قدرة تيار التجديد الناهض وقتها على مجابهة شيعة الجمود والتقليد ولم يتسنى لها أن توضع في حيز التنفيذ - وإن كان حثيثا - إلا بعد أن تبدلت الظروف وتولى بعض المناصب في الأزهر أركان المدرسة الجديدة من بين العلماء المجددين..وهكذا بدأ يتوالى التجديد في الأمة حقبة بعد أخرى وإن اتسم بالبطء الشديد من وطء الأعباء الثقيلة التي ما زالت جاثمة في سبيل النهضة الشاملة ، ولعل أبرزها ما يتجذر في ثقافتنا من أفكار تغلغلت في النفوس ، رغم أنها تشذ عن روح الدين وعن متطلبات الفطرة حتى صارت لها سطوة غالبية وسلطان قاهر.

ومن فرط تفاؤلى أرى أنه سيأتى اليوم القريب الذى يكتمل فيه صفو ثقافتنا من هذه الأفكار الغربية عن الدين وعن الفطرة استمرارا للجهود الحثيث لعلمائنا ومفكرينا منذ مطلع القرن الماضى وليومنا هذا ، ومبعث ثقتى هو أن عالمنا - ومنذ عصوره الأولى وليومنا - ذاخر بموجات متتابعات من علمائنا الأجلاء ومفكرينا وفقهائنا المخلصين ذوى العقول الرشيدة والقلوب الصادقة والنفوس السوية ، ولقد تركوا للأمة ميراثا غنيا وثروة من النفائس الفكرية والعلمية والفقهية ، ومازالت علومهم وأفكارهم الزاخرة تضخ فى قلوبنا وعقولنا ونفوسنا وتربى فينا النشء وتقوم فينا ما اعوج ، ومعاصرنا منهم مازالوا فى جهدهم وصبرهم الجميل ، يصونون ويحمون أشعة الدين والحلق والعلم لسفينتنا التى تلاطمها الأمواج وتعصف بها الأنواء ، إنتظاراً لساعة الصحو وإنحسار الموج وإنزواء الأنواء ، وسيأتى موعدها قريب بإذن الله وأمره .. وربما قد آن موعدها.

أما عن هؤلاء الذين ساهموا فيما وصلت إليه ثقافتنا من تراجع.. وهم القلة الذين يمثلون صدى صوتا ساربا من زمن الركود الآسن ومن عهود الإنحلال والإنحراف.. فعنهم يقول فضيلة العالم الجليل الشيخ / محمد الغزالي فى كتابه : (سر تأخر العرب والمسلمين) : «إن لدينا مواريث نفيسة فى تاريخنا الثقافى والسياسى لا يجوز إنكارها ، بيد أن هذه النفائس إختفت فى ركام من عهود الإنحلال والإنحراف ، وما أطولها فى ماضينا ! ، والمأساة التى نواجهها الآن

أن كاتبين وموجهين يذهبون إلى هذا الماضي ويعودون منه بما يضر ولاينفع ، وربما نقلوا منه أسانيد الإستعمار الداخلى والخلخلة الإجتماعية التى نعانى منها.. وقد أفزعنا أن يظهر فى صحتنا الإسلامية المعاصرة رجالٌ أغرار ، لهم قدرة غريبة على نقل الأخطاء وتبنيها وبعثتها فى طريق نهضتنا..»، وفى موضع آخر من الكتاب يقول المفكر الإسلامى الكبير : « وآخرين لايعرفون ذرة من ضغط التقاليد البشرية على التعاليم السماوية ، فهم ينطلقون دعاة إلى الإسلام ، والحقيقة المرة أنهم يدعون إلى معالم مجتمعمهم البالى ومواريتهم الهشة.. » .. ويضيف : « كما أعرف أن بعض البيئات غلبت تقاليدها على تعاليم الدين ، كما حدث فى بعض الشؤون النسائية ..وأقف عند هذا الحد من قول شيخنا ومفكرنا وعالمنا الجليل .

ومن قبل ذكرهم العالم الجليل الإمام /محمد عبده فى كتابه (الإسلام دين العلم والمدنية) الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ضمن سلسلة مهرجان القراءة للجميع عام 1998 ما نصّه : (.. أما المسلمون فبعد أن نالوا فى نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربى حظا ، وضربوا فى كل فخار عسكرى بسهم ، بل تقدموا سائر الملل فى فنون المقارعة وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخططوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت فى الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال ، هذا إلى ما أدخله الزنادقة فيما بين

القرن الثالث والرابع الهجرى ، وما أحدثه السوفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع (صلى الله عليه وسلم) ، ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ، وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم وفتورا في العزائم)..وحسبنا ما ذكرناه من قول الإمام الجليل.

ونقف عند هذا الحد من كلام العالمين الجليلين ولن نضيف من قولهم أكثر من ذلك ، حتى لا ننكى جروحنا العميقة ولا نستنفز بقايا الروح من قلوبنا.. بيد أن ما نريد قوله هو أن عالمنا الجليلين قد شخّصا الداء ، وكشفا لنا أهم هذه البذور الفكرية الضالة والساربة في العقل العربى ، وما بقى إلا أن تتكاتف جهود العلماء والمفكرين والفقهاء لتنقية العقل منها..ولعل أهمها :-

• ضغط التقاليد البشرية على التعاليم السماوية.

• غلبة بعض التقاليد على تعاليم الدين .

• الخلط بأصول الدين ما ليس منها .

• ما أحدثه السوفسطائيون .

• ما أدخله الزنادقة .

• ما وضعه كذبة النقل من الأحاديث.

هذا ما أرشدنا إليه أبرز علماء الدين ، فأما أهل الفكر والأدب فلم يذهبوا

بعيدا بل اتفقوا معهم فيما ذهبوا إليه من أسباب تقدمنا سابقا ومن أسباب

التخلف الذى صرنا عليه ، ومنهم المفكر والأديب الكبير / توفيق الحكيم الذى ذكر فى كتابه (تحت شمس الفكر) فى سياق الفصل الثالث من الباب الأول ما نصّه: (ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ، فإن مستقبله ولا ريب يسير بازدهار يعم الأرض ، لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ، ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء !.. وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول فإن الدين المثالى هو الدين البسيط ، وهل أبسط من الإسلام شريعة..)

ورغم هذا العبء الثقيل.. ما زالت ثقافتنا شامخة رغم أنها تواجه رياحا فكرية عاتية وتتصدى لأعاصير ثقافية هائجة ، تميل بها تارة هنا وتارة هناك ، بيد أن أصلها راسخ رسوخ النخيل العربى الشامخ رغم ما قد يكون مُحَمَّلًا بأفرع نخرة كثيرة.. لكنها ما زالت فى انتظار من يزيل عنها هذا العبء الثقيل لتفيض علينا بخيرها من جديد ، فهل من راعٍ؟!..

* * * * *

تَقْلِيمُ أَغْصَانِ الْفِكْرِ

لا يتسع المجال هنا للبحث باستفاضة فى تلك الأفكار المناوئة للدين وللعقل والفطرة التى شوّهت واحتنا الثقافية أيما تشوّه !، فهذا أمر قد يحتاج إلى مجلدات

، ولكن بإمكاننا أن ننقب عن أحد أغصانها النخرة لنبدأ به التقليم ، حتى تعود لها نضارتها ويعود لها بهاؤها الزاهي ورونتها المعهود ، ولعل ما نبدأ به هو أكبرها الذى أضفى تشوهاً بارزاً ولعب دوراً مؤثراً فى عرقلة مسيرتنا الحضارية لأكثر من ثمانية قرون ، هذا الغصن النخر ليس إلا فكرة جائفة فى شأن العلوم الطبيعية والدينية وصلتها بالدين.. وفحوى هذه الفكرة هي: أن للعقل شطحات علمية وفكرية مناهضة للدين ، ولحماية الدين منهما فيلزم العمل على إجماع الناس عن الفكر وعن التطلع لمستودعات العلم ، فكلاهما لا يثمر إلا البدع ، وفى كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار! ، وهكذا زُيِّنَتْ لنا هذه الفكرة الجائفة رغم ما فيها من تشوه وضلال وإضلال!، وبدا للناس - بهذه الحيلة الزائفة - وكأنها تعتمد على مرجعية شرعية ، واعتقد الجميع فى أن الرضوخ لمضمونها هو إرضاء لله ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم! رغم ما أحدثته من عثرات ومن نكبات ورغم ما أوصلتنا إليه من حال بائس..، وتلك الفكرة الشائبة التى نُسجت من الوهم والخرافة وتجذرت فى العقل العربى واستمكنت منه - رغم مجافاتها للعقل واللفظة والدين معاً - قد أضفت صبغتها على الثقافة العامة للمجتمع وعلى البعض من رواد الفكر والرأى ، ومع توالى السنين والعقود، وعلى مر الزمن صارت ضمن نسيج الثقافة العامة وجزءاً لا يتجزأ من الفكر الإسلامى ، ولم تثمر إلا ضعفاً فى المهتم وفتوراً فى العزائم وتشوهاً فى الفكر ، حتى صار حال الأمة من الضعف على ما نراه اليوم.

وعلى غرار: (ولا تقربا هذه الشجرة) تحوّلت العلوم الطبيعية والدينية إلى إثم ما يجب أن ننزلق إليه ، باعتبارها شطحات عقلية لا فائدة فيها ولا رجاء منها ، بل ويخشى على الدين منها ، وصار لها الغلبة على كل ما عداها من أفكار ، ونسينا أن الإسلام هو دين العلم والمدنية يمثل ما هو دين التقوى والإيمان ، وأن القرآن الكريم زاخر بآيات كثيرة تدعو للنظر فى الكون وفى النفس وتُعلّى من شأن العلوم والعلماء وترفع من قدرهم ، وأن أول الآيات التى تنزلت على رسول الله تدعو للتزود بالمعرفة والأخذ بنهج العلم فضلا عن انها قد أعلّت شأن العقل بصريح القول ، والتوجيهات النبوية الشريفة كذلك تُعلّى من فضل العالم على العابد ، وتدعو للتزود بالعلم لنفاسته ، وتحض على بذل أقصى ما يمكن من جهد فى طلبه ، ومهما قطعنا له من المسافات أو عانينا فى سبيله من مشاق. وأن نمتثل لما أوصانا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأن نُجند حياتنا من المهد إلى اللحد فى سبيل طلب العلم (كل العلم) وأن نطلبه حتى وإن كان فى الصين..وهلّا تساءلنا عما هى تلك العلوم التى يتوجب علينا أن نأق بها من الصين؟!، هل هى علوم الفقه والشريعة وعلوم الحديث والعلوم الشرعية الأخرى؟! أم أنها علوم الدنيا!!!.

وكان من نتائج استسلامنا لتلك الأفكار النخرة أن توقّف فكرنا ونام عقلنا وراح فى سبات الغفلة قرونا عديدة ، وفى هذا البيات الفكرى العقلى ظل صدّى هذه الأفكار السارية ينخر فى العقول على مر الزمن ، وبرز فىنا دائما

هؤلاء المتطوعون والمتنطعون الذين يَحُولُونَ بيننا وبين خزائن العلم ، وأطلُّوا علينا من كل منفذ وعلى كل منبر يستصرخوا فينا من هَوَل هذا الذى ينجذب البعض إليه انجذاب الفراش للنور وما يدرى - بحسب ظنهم - أنه نار!! ، وأخذوا بِحُجُزٍ وبناصية كل من يحاول أن يقترب منها ، وألقوا بهم بعيداً حتى لايقعوا فى هذا الأخدود المضر، لكأنما مضمار العلم الديوى هذا، واديا من أودية جهنم الحمراء!! ، وأشاروا إلى آيات من القرآن الكريم وبعض أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - برغم ما يبدو من ظاهرها وفى باطنها وكل جانب من جوانبها أنها تحض على العلم (كل علم) وتُكبر من شأن العلماء (كل العلماء) وتُعزِّزُ فيهم غاياتهم ، وتُبين فضل العلم والعلماء على الدنيا والدين على سواء ، إلا أنهم صَعَّروا لنا الحَدَّ وقالوا بأنها تعنى - فقط - العلماء المهتمين بعلوم الشرع كعلم الفقه وعلم الحديث وعلم التفسير وعلوم الشريعة الأخرى.. إلخ ، ومع الزمن صار هذا النهج قاعدة راسخة من قواعد الفكر العربى وأساسا من أُسُسِ الثقافة الإسلامية بوجه عام ، وأصبح العمل بمقتضاه يأتى طوعا وآليا حتى أضنى هذا النهج - على ما فيه من مناقضة للدين وللفطرة - هو المِثَال الذى يجب أن يحتذيه الجميع ، ومن فرط شيوعه، صار هو الحِكمة التى يرضخ لها الكل ، وعلى كل من يريد أن يقول مقالة دون هذا السياق فثله مثل من يأتى فعلا شائنا عليه أن يُرسل نظرات الحَذَرِ الخاطفة يميناً فيسارا قبل أن يبدى بها ، وعليه أن يبدىها على استحياء ، أو لا يبدىها أبداً..فذلك أسلم! ، أو أن يُغَلِّفها بصياغة لا تدعو للجرُم وإنما تورب بابا يتيح له فرصة التنصل منها إذا ما هاجت عليه الدنيا!

، وبذلك فقدنا - طواعية - مع الزمن أهم أدواتنا الحضارية ، وصار حالنا على ما نحن فيه ، ولم نعد في نظر الأمم الأخرى « خير أمة أخرجت للناس »..ولا أدري من أين جىء بهذا السوط الذى ألبس ظهر الأمة هذا اللهب الذى زالت تئن من وطأته.

حسبنا أن نذكر مثالا واحدا لنرى كم تأثرت الأمة بهذا النهج الغريب على الدين وعلى الفطرة ، وحتى يتجلى لنا الأمر سنتعرض للعلم من زواياه الثلاث : زاوية العالم ، وزاوية طالب العلم ، وزاوية حال العلم ، وسنلقى بالضوء على الكيفية التى ترى منها ثقافتنا العلم من جوانبه جميعها ، وهل تنظر إلى فضل وأهمية العلم المادى الدنيوى على الأمة وعلى مسيرتها وعلى حضارتها بمثل نظرتها لعلوم الدين ، أو قريبا منها!؟ ، أم أن هذا الأمر ليس له وجود فى حقيقة العقل إلا على الهامش فلا يلوح إلا فى النذر اليسير..وباعتبار أن الثقافة الدينية هى المحور الذى تدور حوله أفلاك مختلف ألوان وصنوف الثقافات فى مجتمعاتنا، فليكن حديثنا من خلالها.

ولنبداً من حيث زاوية العالم ..فقد اتفق معظم أهل التفسير وأغلب رجال الدين - الأقدمين - على اعتبار كل لفظ يرد فى كتاب الله أو فى السنة النبوية المطهرة من شأنه أن يشير بالتصريح أو بالتاميح إلى العلماء فيجب أن يصب فى خانة علماء الدين فقط وفى كافة الأحوال ، ثم سار على دربهم هذا كل

من والاهم..وعلى سبيل المثال: فلفظ ﴿الْعُلَمَاءُ﴾ الذى ورد فى الآية الشريفة رقم 28 من سورة فاطر فى قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، كاد يتفق الجميع من أئمة التفسير وغيرهم على أن المعنى المقصود منه هو علماء الدين فقط دون غيرهم من علماء الحياة والكون والمادة والطبيعة ، وغيرهم من علماء الدنيا ، رغم أن اللفظ جاء متسعا على إطلاقه ، ومن قال بغير ذلك فإنما قاله على استحياء مقرناً بمقولته بالفاظ تضى عليها الاحتمال والظن لا التأكيد ، وبإطلالة سريعة على ما قاله أئمة التفسير فى تفسيرهم لهذه الآية وللآيات القرآنية الأخرى التى ذكرت لفظ العلماء أو أشارت إليه يتبين جليا أن فكرهم لم يرى من اللفظ سوى علماء الفقه والشرعية وعلماء الدين فقط.

والحق أن المتدبر للقرآن الكريم يجد أن هذه الآية بالذات أقرب لأن تعنى علماء الحياة وعلماء الدنيا وعلماء الكون والطبيعة والإنسانيات ، فقد تقدمتها آيات كثيرة ذكرت وعددت أمور الحياة الدنيا ومنها : السماء - والمطر - ومختلف ألوان الثمار - والجبال - والدواب - والأنعام ، وفيها إشارات واضحة لعلوم الفلك - وطبقات الأرض - وعلم الزراعة - وعلم النبات - والعلوم الإنسانية - وعلم الحيوان بكافة فروعه ..إلى آخر هذه العلوم التى أهملناها قرونا عديدة ، ولننصت لتلك الإشارات اللطيفة للعلم والعلماء التى ورد ذكرها فى الآية السابقة رقم 27 من والآية التى نحن بصدها رقم 28 سورة فاطر.

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿28﴾.

وإني لأتساءل في دهشة : لماذا نستبعد علماء الكون وعلماء الفلك وعلماء الطبيعة والكيمياء وعلماء الحيوان والنبات وكافة علماء الحياة من هؤلاء الذين يخشون الله !!؟ فالعالم الذي يقضى حياته كلها في محراب العلم ويطلع على أسرار الكون وعلى عجائب الدنيا ، لا شك أنه يلمس عن قرب إبداع الخالق سبحانه وتعالى في خلقه ، ذلك، لأنه يتلاقى بعقله وجوارحه وكافة مداركه مع عظمة الله ومع معجزاته ، ويشعر بهذا الإبداع الإلهي فائق العظمة والقدرة والحكمة ، ويدرك بأنه إلهابديع خبير وكل شيء عنده بقدر وحساب دقيق ، وينعقد في قلبه الإيمان بوجود الله ، وتخضع نفسه ، ويتضرع فؤاده ، ويقشعر بدنه من خشية هذا الإله البديع الحكيم ، لذلك فمثل هذا العالم هو أَوْلى بالخشية من الله عن غيره ، فأما من لم يدرك منهم بعد ذلك أن للكون خالق بديع وأنه إله عظيم وعلى كل شيء قدير ، ولم تقع في قلبه الخشية ، فذلك لأن في قلبه كبر ومرض ، وعلمه ناقص ومقطوع ، وهو ليس بعالم وإنما يمثل الاستثناء الهامشي لكل قاعدة ، ثم أن لفظ العالم على إطلاقه يعني ذلك العالم المحيط بعلمه من كافة جوانبه..بمدارك العقل، وبمشاعر الفؤاد، وبالبصيرة القلبية ، بتلك

الحلقات الثلاث يكتمل تحصيل العالم لعلمه ، ذلكم هو معنى لفظ «العلماء»
في الآية الشريفة .

ولنتذكر سوياً بعض التوجيهات النبوية عن العلم والفكر..

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

- « فَضِّلُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُمْ » .
- ولفظ العالم هنا قد جاء على إطلاقه ولا مجال لأن نستثنى أحدا ،
ولهذا كان التفكير في خلق الله فرضا دينيا وتوجيها نبويا.
- « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله. » ، وفي هذا الحديث توجيه
صريح بالسعي في سُبُل العلوم الدنيوية ، والحق أن علماء الدنيا هم أول
من يتفكر في خلق الله قبل غيرهم وذلك حسب طبيعة تخصصاتهم..
- « تفكّر ساعة خير من قيام ليلة » ..

أما عن زاوية طالب العلم - وفي نفس هذا السياق الذي نتحدث فيه - نذكر
مثالا واحداً يبين مدى إجماع ثقافتنا عن اقتحام هذا المجال الإنساني الحيوى
بدعوى حماية الدين ، فقد جاء الإتفاق بين أهل التفسير وأهل العلم الدينى
على توضيق معنى لفظ « السائل » في قول الله تعالى من سورة الضحى: ﴿
فَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ (10) ﴾ ، على أنه يعنى فقط السائل المسكين والمحروم دون
التطرق لأى من المعانى الأخرى التى يمكن أن يفيض بها اللفظ ومنها بالطبع :
(سائل العلم) حتى وقف هذا المعنى الضيق حائلا بيننا وبين طرائق العلوم
المادية ، فلم نرتادها على حقها.. والمعنى واضح ملء اللفظ القرآنى وعلى متسع ،

فالسائل الذى ذكرته الآية الشريفة هو كل من كان يحمل مسألة أى (سائل) أو ملتزم لحاجة ما : سواء جاءت هذه المسألة من مسكين أو محروم ، أو من طالب علم ، أو كانت ممن ضلَّ الطريق أو الهدى ..ولماذا لا يكون أولهم هو سائل العلم ؟! ..» فالعلم خزائن ومفتاحها السؤال « كما أرشدنا الهدى النبوى ، وإنى لأتساءل فى دهشٍ بالغ :لماذا نلجأ دائماً لهذا التضييق الشديد فى ألفاظ القرآن الكريم وفى معانى أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم - خاصة فى شأن العلوم المادية - دون أن يكون هناك دليل أو برهان أو علة أو سبب منطقي!!...الحق أن بداخلنا شيءٌ أو قوة نافرة قد أُقيمت فى بواطن عقولنا حتى استمكنت من حُمة وسداة ثقافتنا الدينية وصارت أمراً يجرى فى ثقافتنا مجرى الدم ، وهى التى تحرف بنا عن مسارات العلوم الدنيوية بدعوى أنها والدين على نقيض وما يجب أن نتيح لهما الفرصة لأن يجتمعا معاً!..وإلا صرنا آثمين فى حق الله وفى حق رسوله وفى حق الدين!..وهكذا صار امتثالنا لهذا الأمر الجائف كأنه استجابة لأوامر الدين.

والحق أن الدين يحرص على التمسك عن نهر السائل « أياً كان » لأنه يترك أثراً غائراً فى قلب هذا السائل ، ويشير فيه إحباطاً ومرارة وعلة نفسية يصعب مداواتها ، بيد أن طالب العلم - خاصة - يدوم تأثره لفترة غير قصيرة ، فإن عُدنا إلى ذاكرتنا قليلاً أو كثيراً ونحن نتلقى العلم صغاراً ، قد نجد كم كرهنا مُعلماً أثار فينا مثل هذا الأسى لمجرد أن سألناه عوناً من علمه فلم يينخل به علينا فحسب

بل عَنَّفْنَا أو نَهَرْنَا، فكرهناه وكرهنا المدرسة وكرهنا الدراسة وكل ما جاء من لفظ (دَرَسَ)..ولو إلى حين!، وتعطلت بذلك قدرتنا على التحصيل للفترة التي كنا نعالج فيها جرحنا الغائر، ذلك، لأنه وُضِعَ نفسه قبالتنا موضع المتصدِّق ، وكأننا - حين سألناه - كنا في حالٍ من الذلَّة والاستجداء..فما أَجَزَّ تلك اللحظة! التي يصير فيها طالبُ العِلْمِ كُمُتَسَوِّلٍ يستجدي في الطرقات، فكل من كان حاله سائلاً، سواء المسكين سائل المال، أو الطالب سائل العِلْمِ أو الضال سائل الهدى..إلخ فإنهم جميعاً يكونون - ساعَتئذٍ - في حالة من الضعف الإنساني البالغ، ويكونون في موقف نفسى شديد الحساسية والتعقيد ، ولا يجب أن نأخذهم إلا بغاية الرفق والمودة والرحمة.

أما عن زاوية حال العِلْمِ الواجب الأخذ به - وفي نفس سياقنا - فمثال ذلك أننا ضيقنا على أنفسنا المعنى المتسع من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « المؤمن القوى خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .»، وقد جاء فيه لفظ (القَوِي) على متسعه ، فلم نلتمس منه سوى أن القوة التي عنها الحديث هي فقط قوة الإيمان!، ونسينا أنه إن كان ذلك كذلك لوجبت الرهينة في دين الإسلام وظللنا عاكفين في المساجد قياماً ، ركوعاً ، سجدواً في تسابق عبادةٍ مستمر إنتظاراً للموت الذى يأخذنا إلى جنة الله! ، والحق أن الإسلام أبعد من هذا وأعظم من ذلك، إنه دين الفطرة المأمورة بإعمار الأرض بالبناء والرقى والحضارة ، وإعمار القلوب بالإيمان والسلام والرحمة.

نسينا في غمرة ذلك أن الإسلام يطلب منا أن نعمل لديانا وكأننا نعيش أبداً ، وأن نعمل لآخرتنا وكأننا نموت غدا ، ونسينا أن الإسلام نفسه يفرض علينا أن لاننسى نصيبنا من الدنيا ، وأنه دين لا يُحَرِّم زينة الحياة.. فلماذا لا يتسع ذهننا لأن تكون القوة التي عناها الحديث الشريف: هي قوة البنيان - وقوة العقل - وقوة الصبر - وقوة العزيمة والإرادة - وقوة العلم .. مع قوة الإيمان ، فاللفظ جاء على رحابته ، ولم يأت معه ثمة دليل أو سبب أو برهان أو علة تُضَيِّق من هذه الرحابة.

وما ذكرناه ليس إلا أمثلة عابرة تكشف بجلاء أن العلم الديوى ومن كافة زواياه ما زال في غيبة عن روح الثقافة العامة وعن فكر الأمة بالتبعية ، وكان من أثر ذلك غيبة العلوم المادية عن أمتنا طيلة ثمانية قرون حتى أضنى حالنا اليوم على ما نحن فيه الآن من بؤس وأسى.. ذلك رغم أن ديننا هو دين العلم والمدنية، ولنتذكر سوياً توجيهات الإسلام لكل مسلم ولكل إنسان بالحياة في الدنيا كما ينبغي أن تكون الحياة.. وإليكم قطوف يسيرة منها :

قال تعالى :-

- ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ آية ٣١ سورة الأعراف .
- ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ سورة القصص .

• ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آية ١٠ سورة الجمعة .

• وقال صلى الله عليه وسلم : “ خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَثْرُكْ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ وَلَا دُنْيَاهُ
لِآخِرَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ كَالأَعْمَى عَلَى النَّاسِ ” .

• وقال صلى الله عليه وسلم لَمَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ : « ثُمَّ وَنَمِ
وَأَفْطِرْ فَإِنْ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ » .

وما ذكرناه عن محنة العلم الدنيوى وعلمائه وطالبيه فى الثقافة
الإسلامية العربية نذكره . وبالمثل . عن محنة الفنون ، بيد أن محنة
الفنون أفدح ، ويصل الأمر أن البعض يُحَرِّمُهَا جميعها تحريما
قطعياً . وقد تحدثنا عن ذلك باستفاضة فى إطار الباب الأول من
الكتاب ، وآثرنا فيه ألا ننكأ جراحا هى بالفعل غائرة ، خاصة
وأن موضوع الفن قد تناوله العديد من أهل الدين وأهل الفكر
واختلفوا واشتجروا كثيرا فيما بينهم ، وما زال الشجار جارى! ،
فكيف لأمة تبغى النهوض من عثرتها وتتطلع لأن تعيد مجدها
الحضارى التليد أن تنظر للعلوم وللـفنون مثل هذه النظرة الجائفة
؟!.. بَيِّدْ أن لى كلمة قصيرة لا أستطيع أن أُفَوِّتَ هذه الفرصة دون
أن أدلو بها.. أقول : أن لاشيء حرام إلا ما يرد فيه نص تشريعى
قاطع ، وكل شيء عدا ذلك إما حلال أو مباح أو مندوب أو ربما
مكروه بحسب ما يتفق عليه العلماء وأهل الفكر على أن لا يتم
تحريم شيء سواءً بالقياس أو الاستحسان أو غيرهما إلا بإجماع

العلماء وأهل الفكر المختصين وفي إطار تحقيق المصالح العامة للأمة أو درء المفاسد عنها ، شريطة ألا يجترح القاعدة القرآنية الراسخة التي رسمت أطر السلوكيات البشرية القويمة ، والتي ينبغي أن نسترشد بها دائماً قبل أن نأتى بأفعالنا ، وقبل أن نحكم على أى من الأمور التي هي محل خلاف ، هذا الدستور القرآني . عن أوامر الله ونواهيه . قد أجملته الآية التسعون من سورة النحل .. في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فهي أجمع آية في القرآن الكريم لخير يمثل ولشر يجتنب ، وهي الآية التي تتجمع فيها مكارم الأخلاق ومساوئها .

وما العلوم والفنون والآداب إلا أدوات تستخدمها الإنسانية في نشاطاتها مثلها مثل السكاكين أو أعواد الثقاب ، ففيها من الخير بمثل ما فيها من الشر ، والعبرة في الكيفية التي نستخدم فيها أيا منها وفي آثارها على المجتمع .

وأكتفى بهذه الإشارة السريعة كمثال لتلك الأفكار المناوئة للدين وللفطرة وللعقل معا ، أما عن آثار خلط تلك الأفكار في الثقافة العامة للأمة ، فإنها لم تثمر إلا كسلاً في العقل وخوراً في العزائم وتشبيطاً للهمم ، وغاض معها نبع الفكر ، وصار لدينا قناعة مستديمة بما هو قائم على أرض الواقع مهما كان وضعياً ، ونؤثر له الدعة والسلامة والاستكانة ، وأطفأنا شعلة الفكر طائعين ، فنعطلت فينا طاقة العقل ، وصارت عقولنا حبيسة في كهفها المظلم لا تستطيع أن تدرك منه إلا الملمس القريب ، وفيما تتحسس فقط في هذا الظلام ، وصرنا نتحسس الحقيقة لا أن نتبصرها ببصر حاد وبصيرة نافذة ، فلم نستطع النيل من الفكر إلا قشوراً ، وكلما أردنا معالجة لأمر من أمور زماننا عدنا لزمان ولى ومضى لنطلب

منه العون والمدد ، كأننا رضىنا بأن ندع زمننا يمضى وحده ونفصل عنه انسحاقاً للماضى البعيد.. وإننى لأتعجب . ونحن فى عصرنا المتسارع هذا ، الذى يعج بالصواريخ وسفن الفضاء والكمبيوتر وشبكة المعلومات الدولية العملاقة والفمتوثانية وما سيتوالى من معجزات عقلية متسارعة ، أقول كيف لنا . فى مثل هذا العصر . أن نستدعى من غياهب الزمن مَنْ لَنْ يأتينا إلا على دابة متمهلة تمشى الهويىنا ، ليطل علينا من غابر الزمان بملايس فضفاضة وعمامة ضخمة متأبطاً جراباً يحمل فيه أدواته العتيقة (سراج زيتى أعمش ، وريشة ، ومحبرة ، ورقعة جلد أو قرطاس) ، فىأتينا، على هيئته الكاريكاتيرية تلك لكى يعيننا فى أمور دنيانا اليوم!!، هذا.. إذا ما تصورنا أن لن تحدث له صدمة حضارية تجهز على عقله!.

وعُدرا عزيزى القارئ إن كان قد تجاوز قلمى حدود اللياقة مع حال الأجداد .. وهذا ليس من خُلقي .. أعلم أنه لقول يدعو للأسف ، وقد شرعت فى التراجع عنه إلا أننى لم أشأ أن أقيد قلمى فى مثل هذا الوقت الذى أتحدث فيه عن حرية الفكر ، وإن كان من شىء أجدد بأن يتعرض له قلمى فليس إلا حاضرننا البائس رغم الحراك الإنسانى الجارى حولنا فى كل بقعة من بقاع الأرض ورغم قعقعة السيل الجارف الجارى شطرننا.. والسيل لن يصيب إلا الغافلين فى الأراضى الواطئة !! ..وعذرى أنها مجرد صرخة قلم ! ..وقد يشفع لى أن أغلف أسفى هذا برأى لبق حكيم قاله الأديب والمفكر الكبير / توفيق الحكيم فى رائعة من روائعه وهو كتاب (تحت شمس الفكر) وقد أبداه من الزاوية الثقافية فى فصل عنوانه « إحياء الثقافة العربية القديمة».. حيث قال :» فالحضارات إنما تقوم على الحضارات ، وهيكل الحضارة القائمة إنما ينهض عى طبقات متعددة من حضارات سابقة : فلو فرضنا المستحيل وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها

وحالتها وكميتها الغابرة فماذا نجد فيها غير شيء أولى إلى جانب ثقافة العصر الحاضر».

ولا شك أن هؤلاء المبدعين السابقين الذين أظهروا في زمنهم الماضى تفوقا وإبداعا وبراعة فكرية وعبقرية لا نظير لها ، وكانوا النجوم الزاهرة والرواد والقادة والأسوة الطيبة ، لنا أن نستنير باجتهاداتهم . وما أعظمها وما أكثرها، وقد نقبل بعضها إذا ما سايرت عصرنا ، وحتما سنرفض منها البعض مما يناقض العقل ومما يعارض الفكر ، وكل ما لا موضع له فى زمننا.. أما فى أمور العقيدة فإننا سنظل نستنير بفكر هؤلاء السابقين الكبار وفكر المجتهدين من علمائنا ومفكرينا وفقهائنا وشيوخنا ، ولنتمس العون من علمهم لأنها ثوابت تنبع من أصل واحد ، ولقد تركوا لنا نفائس ستظل دوما نبراسا نستهدى بها ، أما الأمور الاجتهادية الأخرى (دون العقيدة الدينية) ولهم فيها السبق فى النبوغ والريادة لا ينكرها إلا جاحد ، إلا أنهم بشر يخطئ ويصيب ، وقد لا يناسبنا اليوم بعض ثمراتهم الاجتهادية التى تعتمد على أدوات القياس والاستحسان والمصالح المرسلة ، وجميعها تنظر فى العوارض المتغيرة كالمصالح التى تتغير بتغير الأزمان والأحوال ، ولم تنقيد بحكم يلزمها فى كل حال وكل زمان.. (فبالقياس يرى المجتهد رأيا فيما لم يرد فيه نص صريح فيقيس على ما ورد من النصوص المشابهة سواء فى العلة أو المقصد ، وبلااستحسان يفاضل بين حكمين لكل منهما أساس شرعى مع ترجيح أحدهما على الآخر

لعلة وسبب يراه ، أما المصالح المرسله فهى المصالح التى لم يتطرق لها الشرع وتستجد أمورها مع مرور الأزمان وتنطوى على تحقيق مصلحة عامة أو درء ضرر للأمة)**..وقد يأتى اجتهادهم فى بعض الأمور وفق ما يقتضيه أحوال زمانهم..إلا أن ما تغير من أحوال العصر يدعونا لإعادة النظر فى اجتهادهم . خاصة فيما يأباه العقل الآن..لذا، فإن من الواجب أن نعرض مثل هذه الآراء الاجتهادية على العقل ، فإما أن يقبلها أو يرفضها أو يجعلها أساسا للبناء عليه بمتجدد الفكر ومعطيات العصر ، فليس من العيب أن نجتهد فى زمننا بمثل ما اجتهدوا هم فى زمنهم ، وليس خروجا عن الأدب ولا انتهاكاً لأواصر الرحم أن يكون لنا فكرا يغير أو ينقذ بعض أفكارهم أو ينقضها. ١

الفكر الرشـد

يقول كاتبنا الكبير/ عباس محمود العقاد فى كتابه القيم (التفكير فريضة إسلامية) : «..أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى والرؤية ، فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك فى المعنى أحيانا وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق فى أحيان أخرى ، فهو الفكر والنظر

١ راجع كتاب التفكير فريضة إسلامية / للمفكر العربى عباس محمود العقاد / باب الاجتهاد فى الدين .

والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحياناً في المدلول ، ولكنها لا تُستفاد من كلمة واحدة تغنى عن سائر الكلمات الأخرى»، واستخرج لنا العقاد من القرآن الكريم بعض من الآيات الدالة على كل من هذه الملكات :-

- الفكر: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ آية 50 سورة الأنعام.
- الفقه: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ آية 65 سورة الأنعام.
- النظر: كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ آية رقم 6 سورة "ق".
- التدبر: كما في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آية 29 سورة "ص".
- التذكر: كما في قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ آية 221 سورة البقرة.
- العلم: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آية 9 سورة الزمر.

فالتفكر ، والتفقه ، والنظر ، والبصر ، والتدبر ، والتذكر ، والتعلم وسائر الملكات الذهنية جميعها تُستقى من القوى الإنسانية الكامنة في أعماق الفطرة الإنسانية ، لذا فإن الفكر فطرة إنسانية وفريضة دينية ترقى لدرجة العبادة.

ولأن الفكر فطرة إنسانية فإنه غالب على أمره ، وله النصرة الأخيرة ، لهذا فإن تحجيم الفكر عوار ومدممة ، وترهيب أهل الفكر لا يجدى مهما بلغت درجة ووسيلة هذا الإرهاب.. الفكر لا يقاوم إلا بالفكر ، وليس من المعقول ولا من المقبول مجابهته بأى شئ سواه ، ليس هناك من وسيلة أخرى إلا القول اللين والجدال الحسن.. وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته لذلك :

قال تعالى لنبي الله موسى عليه السلام وأخيه هارون حينما أمرهما أن يبلغا رسالته إلى فرعون - ونحن نعرف من هو فرعون في بطشه وكبريائه وعليائه .. قال تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ آية ٤٣ ، ٤٤ سورة طه

وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ آية ١٢٥ سورة النحل .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ آية ٤٦ سورة العنكبوت .

ولمزيد من الإفاضة في موضوع الفكر الإنساني الرشيد نعود إلى كتابنا ” الإنسان كما فطره الله ” حيث ذكرنا في باب ” الفطرة بين عالمي الشهادة والغيب ” أن الحقيقة الكاملة في عالم الشهادة ليس لها وجود ، وحتى في العلوم المادية فإزال العلماء ينتقلون بالنظرية إلى مراحل ارتقائية أو تصحيحية أخرى ، وسيظل التعديل في مسار العلم قائماً مادامت الحياة ، وكل ما يناله الإنسان من مستودعات العلوم - وإلى أن يقضى الله الأمر - فليس إلا حفنة من محيط .. ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ آية ٨٥ الأسراء.

ما زالت الحقيقة ناقصة في عالم الشهادة ، ذلك لأن اليقين في الدنيا يعتمد على الحواس - وخاصة السمع والبصر - وهي محدودة القدرة ، وما كان يعتمد على السمع أدنى فيه يقيناً عما يعتمد على البصر ، وأوثقه هو اليقين الذي يستند إليهما معاً (عين اليقين) ، أما ما يعتمد على المدارك العقلية الأخرى وليس بإمكانك أن تحيطه ببصرك وسمعتك وإنما قد وصلت أخباره وأنباؤه المؤكدة إلى علمك فهو (علم اليقين) وهو أدنى درجة من عين اليقين لأن الحقيقة في حاجة إلى التأكيد الحسي بالمعينة ، وقد جاء ذكر علم اليقين بدرجة الأدنى من درجة عين اليقين في سورة التكاثر:

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنُ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ سورة التكاثر.

وعلم اليقين مثله ما نعلم من مصادر صحفية أو إعلامية كثيرة عن الحوادث والأنباء التي تحدث في مختلف أرجاء العالم (حروب أو زلازل أو كوارث... إلخ) ، وأما عين اليقين هو ما أدركه هؤلاء الذين تعرضوا لوقوع الحدث ذاته ، والإنسانية جميعها لا تدرك من الحقيقة سوى ما يمكن أن تدركه منها من زاوية واحدة أو زاويتين فقط (علماً و معائنةً) ، وأما الحق اليقيني فلا وجود له في عالمنا المادى الذى تنقصه دائماً درجة الوثوق الكبرى ، فى حين أن حق اليقين ليس رؤية البصر المحدود ولا علم العقل القاصر وإنما هو رؤية البصيرة القلبية النافذة ، ولن يشهده الإنسان إلا فى عالم الآخرة . قال تعالى فى أهل الجنة الذين خلق الله لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وكذا أهل النار الذين يخلدون فيها :

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْدُوبِينَ الصَّالِّيْنَ (٩٢) فَتَرْجُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ بِحَمِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ سورة الواقعة .

فَنَصِيبُ الْإِنْسَانِيَةِ مِنَ الْيَقِينِ الْحَقِّ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ لَا يَكْتَمِلُ أَبَداً -
مهما بذلت من جهد للوصول إليه ، إلا أن قلب الإنسان ليس بمنأى عنه -
ذلك لأن القلب جَوْهَرٌ غَيْبِيٌّ خَالِدٌ ، وقد شاء الله أن تحفظ فِطْرَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ

بقبس الحق المتمثل فى ذلك الأثر الباقي من الفترة التى قضاها آدم فى رحاب عالم الغيب قبل أن يهبطه الله الأرض ، بيد أنه أثر ضامر ومستخفى فى أغوار النفس وفى طيَّات الزمن وفى لفائف من أحوال الدنيا ، فلا نشعر به إلا طائفاً يأتينا فى لحظات جلاء الفطرة وصفاء النفس ، وهو المثل الذى يحفزنا للسعى نحو استشراف الحقيقة الكاملة ويجعل للنفس تشوقاً للوصول إليها ، لذا فإن فكرى ليس إلا مجرد رأى فى سبيل الحقيقة الكاملة ، وفكرك أنت أيضاً هو رأى آخر فى سبيلها ، وأى فكر آخر ليس إلا مجرد رأى ، تلك الأفكار ليس فيها من اليقين إلا علم يقين أو عين يقين أو كلاهما ، والمؤكد أنها لم تعرف بعدُ اليقين الحق ، وكل منا ليس بمستطاعه أن يحيط الحقيقة بنظره ومداركه ، ولكن فقط يستطيع مع غاية جهده واجتهاده وثاقب رؤيته أن يرى وجهاً واحداً من وجوهها المتعددة أو أن يلم بزاوية أو زاويتان من زواياها ، ثم بعد ذلك هو وشأنه ، فإن كان ذا عقلٍ واهنٍ وفكرٍ خاملٍ فسيكتفى برؤيته القاصرة وسيتحجر عقله عليها ، وسيتعصَّب لها أيما تعصَّب ، وإن كان ذا عقلٍ رشيدٍ وفكرٍ مستنيرٍ فسيكون أكثر تشوقاً لحق اليقين ، وسيظل على قناعة تامة برأيه لكن فى ذات الوقت فإنه يتشوق لتأمس وجوه الحقيقة الأخرى ، وسيجتهد فى البحث عنها فى أفكار الآخرين ، ولن يألو جهداً فى أن يطرق كافة السبل على مدرج الحقيقة ، وهو يفعل ذلك لأهداف يبتغيها كأن تزداد ثقته فى أفكاره أو أن يصحح منها أو يعدل من قوامها أو ينقضها راضياً .

وبتجادل الآراء ينتج لنا فكراً أعمق أثراً وأنصح حجة وأصلح شأنًا.. إنه فكر مُتَجَوِّد يحمل خصائص فكر أحدنا ولون فكر الثاني وروح فكر الثالث ، وهكذا يرشد الفكر بالتجادل الحسن.. ولنرى الصيغة القرآنية التي أشارت لذلك في الآية الشريفة ١٢٥ من سورة النحل في قول الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .. ومعنى " الجِدال " هنا أن تلقى أنت من فكرك طرفاً وألقى أنا طرفاً وثالث يلتقى طرفاً وهكذا.. وبالتقاء الأفكار تحدث حالات من الشد والجذب ومن اللين أو التشبث المقنع بالرأى ، فتتداخل الرؤى وتنصهر في سبيكة واحدة أشد وأمتن وأقوى ، وهكذا تتجادل أطراف الفكر حلقة بعد أخرى ليصبح أكثر قوة وأشد متانة كمثال الجبل المجدول ، فكما قلبته يَمْنَةً وَيُسْرَةً ترى فيه : صبغة فكرك - وروح فكر الآخرين في مزيج واحد.

وإلى جانب الجدال الحسن فإن أمراً آخر له أثره البالغ في ترشيد الفكر ألا وهو الشُّورَى ، فالشورى فريضة إنسانية ودينية وفطرية على السواء ، ذلك لأن الحركة الإنسانية المتشابكة المصالح والمتعارضة الأهداف والغايات يغلب عليها الظن ، وقد أكد القرآن الكريم تلك الحالة الإنسانية بما لا يدعو أى مجال للشك فيها، ولهذا لم يحرم الإسلام كل الظن بل جاء بعضه مكروهاً وبعضه يرتقى إلى درجة الإثْم.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ آية ١٢ سورة الحجرات.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ آية ١١٦ سورة الأنعام.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ آية ٣٦ سورة يونس.

وقد نهى رسول الله عن الخضوع للظن فقال (صلى الله عليه وسلم) : « في الإنسان ثلاثة.. الطيرة - والظن - والحسد ، فخرجه من الطيرة ألا يرجع ، ومخرجه من الظن ألا يحقق ومخرجه من الحسد ألا يتبغى » . (الجامع الكبير للسيوطي) .

فهما بلغ الفكر أعلى الدرجات ، ونال غاية الاستحسان وطال به العمر ودارت عليه السنين ، فهو بعد كل هذا ليس إلا مجرد رأى وليس إلا مجرد ظن ، فكم من الأفكار الكبيرة المؤثرة سقطت بعد دهور وكان يُظن وقت استهلاكها أن فيها كل الخير..ومع هذا الظن الذى يغلب على التعاملات الإنسانية ومع قصور المدارك والحواس الإنسانية فى الوصول للحقيقة المكتملة فلا استكبار فى الفكر ، ومن يكابر برأيه فهو غير عاقل وغير رشيد ، ولعل من أسباب ذلك أن الإسلام فرض مبدأ الشورى ، وجعله من أهم المبادئ الواجبة لضمان سلامة المجتمعات .

ما بين الفكر الشرقي والفكر الغربي

كى نستطيع أن نمايز بين الفكر الشرقى والفكر الغربى علينا أن نقف وقفة ممعنة فى بعض منعطفات التاريخ ، لتتضح لنا معالم الرؤية وينكشف لنا مدى ما بين الفكرين من فارق ، وليكن اختيارنا للمنعطفين من بين أهم هذه المنعطفات وهما المنعطف الذى ظهرت فيه آلة الطباعة والمنعطف الذى استخدمت فيه البوصلة البحرية ، ولقد آثرت اختيارهما تحديداً لأشارك بالرأى والنقاش أحد المفكرين العرب ، وهو المفكر العربى / أحمد سليم سعيدان من خلال نظريته لهذين المنعطفين التاريخيين الذين تناولهما فى إطار كتابه : « مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام. ».

فى المنعطف الأول : يرى المفكر العربى الكبير الدكتور/ أحمد سليم سعيدان - ونحن نتفق معه فى الرأى - « أنه يمكن أن نجمل تاريخ الفكر الإنسانى فى عهدين ، أولهما عهد ما قبل الطباعة ويمتد حتى القرن السادس عشر الميلادى ، وعهد ما بعد الطباعة ، وهو عهد المنهج العلمى والعلوم الحديثة ، وما بين العهدين من فروق عميقة ، فالطباعة قفزت بالإنسانية قفزة عملاقة نحو التقدم والحضارة والرقى. ».

ولقد عرف العرب بدايات الطباعة في القرن الثامن الميلادي ، قبل معرفة الغرب لها بقرون عدة ، وذلك عندما فتحوا سمرقند واقتربوا من الصين ، واتصلوا بحضارتهم وتعلموا منهم فنون الطباعة وصناعة الورق ، وكانت الطباعة -يومئذٍ- تتم بحفر النص المطلوب طباعته على قالب من الخشب ، ثم يتم تحويله إلى حروف بارزة ، وظلت الطباعة على هذا النحو لدى العرب لم يعتريها أى تطوير طيلة سبعة قرون أو يزيد ، إلا أن الأوربيون ما أن عرفوا الطباعة حتى عاهدوها بالتطوير ، وأول تطوير أضافوه إليها أنهم حوّلوا قالب الخشب إلى قالب معدنى تُسكب عليه الحروف المعكوسة البارزة فأضحت بذلك صناعة متقنة ورائجة ، ثم توالى التطوير عليها بمعرفتهم وحتى اليوم ، والذى أصبح متسارعاً لا يكاد نلاحقه ، ولم يكن للعرب ثمة جهد أو مشاركة فى أى من مراحل هذا التطوير.

وإن كان العرب قد عرفوا آلة الطباعة قبل الغرب بسبعمئة عام فمن المؤسف أن أول مطابع متطورة قامت فى ديار الإسلام كانت هدية فرنسية أتى بها نابليون إلى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ، فى حين ظلت أمام أعين العرب والمسلمين على حالتها البدائية ولم يضيفوا لها شيئاً ، ولم تساهم فى تسارع تقدمهم بمثل ما ساهمت فى تقدّم الغرب الذين تعهّدوها بالتطوير المتلاحق ، حتى كان لها فضل كبير فى بناء حضارتهم.

وفى المنعطف الثانى : يرى المفكر العربى / أحمد سليم سعيدان - ونرى معه أيضا - أن العقل العربى أنتج البوصلة البحرية قبل أن يعرفها الأوربيون بمئات السنين ، مما ساهم فى تملك الأمة الإسلامية أسطولاً بحرياً ضخماً خاضت به أغوار البحار والمحيطات أهتداءً بتلك البوصلة ، وكان لهذا الأسطول البحرى فضلٌ كبير فى انتشار رقعة الدولة الإسلامية ، فى الوقت الذى كان فيه العقل الغربى فى سباتٍ عميق وفى غطيط نوم ، لكن ما إن عرف الأوربيون تلك البوصلة البحرية نهاية القرن الخامس عشر - فى بدايات عصر النهضة الأوروبية ، حتى جابوا بها عباب البحار والمحيطات فى حماسة غير معهودة ، ثم قادتهم هذه الحماسة المتوقدة إلى المغامرة برحلات استثنائية وبدعم من حكوماتهم لاستكشاف أقطار الدنيا ، وقد نجحوا فى الوصول إلى العالم الجديد ، واكتشفوا جزراً عديدة فى المحيط رفعوا عليها أعلام بلادهم ، ومن هؤلاء الرحالة المغامرون برتمودياز / كريستوفر كولومبوس / فاسكوداجاما / وماجلان .. ولقد كان لهذه الرحلات والاستكشافات أثر بالغ فى فى أهل الغرب جميعاً حيث ساهمت بقدر كبير فى تعميق الثقة بأنفسهم والأعتزاز بقدراتهم وفى اشتداد حماسهم وشحن عزائمهم.

والسؤال الذى يتبادر للأذهان الآن هو : ما الفارق بين عقل الأوربى وتفكيره وعقل العربى وفكره ؟ ولماذا توقّف العقل العربى عند هذا الحدّ فى الوقت الذى إندفع فيه الفكر الأوروبى نحو التطور السريع المتلاحق ؟! .. وللإجابة عن

هذا التساؤل أشير هنا - فى البدء - إلى ما ذكره الدكتور/ أحمد سليم سعيدان فى كتابه « مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام » حيث يقول : « أن المجتمعات كالأفراد منها ما يفتح للجديد والتجديد فيجدّ فى طلبه ، وإذا عثر عليه تقبله ، ولاسيا إذا أتى منه فائدة للمجتمع ، ومنها ما يؤثر السلامة والدعة فيقنع بما هو قائم ويستكين له ، ويغفل كل جديد غير آبه بفائدة المجتمع إلى أن يفرض عليه الجديد فرضاً ، وأكثر المجتمعات قبولاً للتجديد هى المجتمعات الفتية التى لم تكبلها تجارب سابقة بعقد نفسية وقيود إجتماعية ، فهى لاثزال طلعة يحمل كل فرد فيها هموم مجتمعه على كتفه ويقدم صالح المجتمع على صالحه..»

هذا ماقاله المفكر العربى، ولكننى أقول : أنه لافرق بين العقل الأوروبى والعقل العربى ، فالعقل فى الإنسان - كل إنسان - هو العقل الذى غرسه الله فى الفطرة ، وإذا كان هناك من فروق بين عقل وآخر فإنما نجدها فى الدوافع والحوافز التى تحرك العقل ، وإن كنت أتفق مع رأى المفكر العربى بأن المجتمعات الفتية هى المجتمعات الأكثر قبولاً للتجديد ، باعتبار أن المجتمعات الغربية - حالياً - فتية عن المجتمعات العربية والشرقية ، ولكنى أختلف من حيث دوافع وحوافز هذه الفتوة العقلية ، فالأوروبى حينما خطى خطواته الأولى نحو الحضارة - وخاصة مع بدايات القرن الخامس عشر - إندفع بكل قوته متطلعا لهدف واحد دون سواه هو التزود من زينة الحياة الدنيا بأقصى ما يمكن والنهل منها بنهم شديد ، وتعويض ما فاتته من نعيم الحياة فى عصور الظلام

الممتدة والتي عانى فيها الكثير، فامتطى قارب شهوته وانطلق بمجاديف الغرائز في مغامرة محمومة لا تألو جهداً ، تقوده غريزة الشهوة بأقصى ما أوتي من طاقة ، غير مكترث بما قد يخفى وراءها ، وفي سبيله ذلك - قد أزاح عن كاهله كل ما قد يعيقه عن الاغتراف من ملذات الحياة ومن زينتها ، وأول ما أزاح هو الدين بأعتبره يمثل قيداً على حريته ، وعلى ظنٍ بأنه سيعوقه عن اغتنام وقنص تلك الفرص الثمينة ، وهرع يلهث وراء كل تطور يجلب له تلك السعادة المنشودة ، حتى أنه لم يعر أى اهتمام لأوْحال الرذائل وذميم الأخلاق التي علقت به في مسيرته طالما لم يكن لها دوراً يحد من انطلاقه.. فى حين أن العربى المسلم أو الشرقى المتدين قد انتهج فى مسيرته الحضارية نهجاً غير هذا الذى انتهجه الأوروبي ، فأمسك بزمام الشهوة واستمسك بحبل الدين المتين والتزم صراط الله المستقيم فى نفس الوقت الذى كان يبني فيه حضارته ، وهو على قناعة تامة ويقين لا يتزعزع بأن التكالب على زينة الحياة الدنيا والتسارع عليها - دون الأخذ بحقها - هو مهلكة وشراً أئيم ، فكانت مسيرته الحضارية فى بدء تكوين العقيدة كوثبة عملاقة من الظلام إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ، ثم انتهج الخطى المتمهلة والتحرك الواثق الحثيث نحو كسب نعيم الدنيا على مكثٍ وعدم خسران الآخرة فى ذات الوقت.

ومازلنا فى رحلتنا للبحث عن إجابة لتساؤلنا الهام : هل العقل والفكر الشرقى قاصر عن إستيعاب المنهج العلمى بالقدر الذى يسمح له بالخوض فى غماره وبناء نهضة علمية حضارية بمثل الحضارة الغربية أو تفوقها ؟!

وللإستطراد فى الإجابة نلقى الضوء - أولاً - على السمات النفسية للإنسان الشرقى وهل تختلف عن تلك السمات النفسية للأوروبى أو الغربى؟ .. فأول ما نعرفه عن الشرقى أنه جياش العاطفة لأقصى حدودها ويزيد ، بمعنى أن العاطفة تغلب جانب العقل منه ، فإذا أحب يحب بالدرجة التى يكتمل فيها إشباع العاطفة ويصيبه الوله والجنون أحيانا ، والأدب والشعر العربى القديم ذاخر بقصص وحكايات يتجلى منها ذلك بوضوح.. وإذا كره يستشيط كرهاً ، وحزنه انفطار معتصر ، ويجن فى فرجه أو يكاد يطير ، والأسى يتملكه ويكاد يفتك به ، وبكاؤه انفطار ونحيبه نشيج حار ، ومن جانب آخر فإنه يسعى لحلقات السمر والفكاهة فإن غلبه الضحك أمسك بطنه وانقلب على ظهره ويظل فى قهقهة متواصلة حتى يفيض منه الدمع ، وله فى السمر وفى الضحك والفكاهة تاريخ وفلسفة وثقافة.

وقد يرجع كل ذلك إلى أن وجدان الإنسان الشرقى يتشكل من روابط شديدة مع البيئة ومع الناس ، ولا معنى لحياته إلا بتوثيق تلك الروابط المغلطة بينه وبين الناس من حوله وبينه وبين البيئة التى نشأ وتربى وعاش فيها .

فالعواطف التى تموج فى قلب الشرقى كالعواصف حينما تهب ، وقد تقتلعه من عمره أحيانا ، وتلك علة من العلل التى تصيب الفطرة فى الإنسان الشرقى ، فالعقل يتأثر بها والفكر أيضاً ، وقد نهى الإسلام عن الإفراط العاطفى لهذا

السبب ، حتى تظل الفطرة على ألقها.

قال تعالى : ﴿لَيْكِي لَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ آية ٢٣ سورة الحديد.

تلك، هي كانت أولى سمات النفسية الشرقية - وأما ثانيتهما، فهي أن الشرقي في أصله ابن أودية الصحراء والحياة البدوية البسيطة والسهلة في آن واحد ، فنوع بحياته الخالية من التعقيد أو التقيد ، ذلك أن حياته في وديان الصحارى وحول عيون الماء أو بالقرب من مجارى المياه هي الحياة الأقرب للفطرة الإنسانية ، وبمجهود خالى من النصب والإرهاق تجلب له الطبيعة من الخيرات مايكفى حاجاته الضرورية دون أن تؤده مشقة أو أن يضطر للمغامرة في سبيل الحصول عليها ، ولقد أضفت عليه تلك الحياة البسيطة كرائم الفضائل والقيم ، كالكرم والجود والشجاعة والصدق .. لكن ليس من بينها الحماسة والميل إلى المغامرة ، اللتين اكتفى بأن يجنّدهما في توثيق العصبية القبلية وأن يستنفذهما - فقط - في النزاعات القبلية وفي الخصومات الثأرية دون سواهما.

أما ثالث تلك السمات النفسية للإنسان الشرقي فهي أن الله سبحانه وتعالى هياً له بيئة رحبة للغاية ومتسعة لمد البصر، معظمها صحراء رحبية وسما صافية وأفق متسع وفضاء ممتد ، وأنه أعتاد السمر ليلاً مطلعاً على سماء زينها الله بمصابيح الكواكب والنجوم ، واعتاد الحياة على أرض رحبية يغمرها القمر

بأنواره الفضية الساحرة ، فلم ينسى الأرض التي خلقه الله منها ولم يغيب عنه ذلك الكون الفسيح الذى أسكنه الله فيه ، وقد استوثقت فى أعماقه تلك الصلة بينه وبين الأرض وبينه وبين الكون وبينه وبين أهله وعشيرته وقبيلته ، وتلك أمور تجلو معها الفطر وتصفو لها القلوب ، وبصره الحاد وبصيرته النافذة وفؤاده الزكى ظل يتطلع إلى معرفة خالق هذا الكون البديع ، وهدته فطرته منذ قديم الأزل وقبل أن تصله رسالات السماء أن لهذا الكون البديع خالق قدير حكيم ، لهذا كانت فطرة الإنسان الشرقى ونفسيته مهيأة لاستقبال رسالات الله ودينه ، فأصطفى الله منهم أنبياءه ورسله لحمل رسالته إلى الناس تبعاً .

تلك السمات جعلت للشرق نظرة شمولية ، فالحياة الدنيا ليست نهاية المطاف بل بعدها حياة أخرى ونعيم مقيم وجنة أو نار ، وأنه قد تهتأ منذ القدم على أن لا تشغله الحياة الدنيا عن الآخرة ، وقد تجلّى ذلك قبل معرفته بالأديان فى مصر القديمة وفى بابل والصين والهند وغيرها من بلاد الشرق .

ومازلنا فى محاولة الإجابة عن السؤال الذى طرحناه عن العقل والفكر الشرقى وهل هما قاصران عن استيعاب المنهج العلمى والخوض فى غماره إلى الحد الذى يتيح له بناء حضارة ونهضة علمية تضاهى ما وصل إليه الغربيون ؟.. فما ذكرناه من السمات النفسية للإنسان الشرقى قد لا تكفى للإجابة ، لذا فيجب أن نتعرف على الطاقة الإبداعية فى الإنسان عامة وخاصة الإنسان

الشرق، فالإنسان الشرقى يفعل بوجدانه وقلبه قبل انفعاله برأسه وعقله ، وينظر إلى الوجود ببصيرة نافذة إلى حيث الجوهر الباطن ، فيدركه بمحدسه المباشر وبلمسته الذاتية التي قد لا تحتاج إلى تعليم أو مقدمات أو نتائج ، وباختصار: فإنه يتذوق الحقائق كما يتذوقها المتصوف والمتدين الخاشع ، وهو في هذا على نقيض الغربى الذى ينظر إلى الأمور والحقائق نظرة عقلانية منطقية محضنة ، ويتعقبها مرحلة بعد أخرى ، تحليل ، وتعليل ، وأستدلال ، ونتائج دون الانشغال بما هو فى الباطن المستور فليس لديه هذا الحدس النافذ فى الأعماق.

ومن بلاد الشرق فى مصر القديمة كان أول إنسان أدرك وحدانية الوجود بوجدانه وببصيرته وبحسه وشعوره وروحه ، وأيضاً بعقله ولكنه أستخدم عقله أستخداماً جامعاً ليساير نظرتة الثاقبة وبصيرته النافذة ، ويمكن تصوير تلك النظرة الثاقبة كمثل الموجات فوق الصوتية حينما تعبر الأشياء وتمزق فيها - دون أن تؤثر فيها أو تتأثر بها أو تشعر بوجودها - لتستقر عند الأمر المقصود بذاته ، وبالمثل عقل الشرقى يتفاعل مع الوجود بمثل تلك الخطى الوجدانية الواسعة وبمثل تلك النظرة البصيرية الثاقبة.

وهذا لا ينفى الإنفعال العقلى بل يؤكد تضافره مع الانفعال البصرى الحدثنى ، وساهم هذا التضافر العقلى الوجدانى فى فاعلية الحضارات الشرقية والإسلامية وكلها وقدرتها على الصمود للمدى الطويل ، ففى مصر بُنيت أول

حضارة إنسانية على أصول علمية بالغة الدقة ، حيث برعت في الهندسة المعمارية وبلغت فيها شأنًا عظيمًا ، ومازالت صروحها الشامخة ومعجزاتها من أهرامات ومعابد تثير الدهشة والعجب ، كما برعوا في التحنيط وحفظ الأجساد إنطلاقاً من إيمانهم بخلود الحياة بعد الموت ، وبرعوا كذلك في مختلف مجالات وأنشطة الحياة بصفة عامة ، وكذا الحضارات الشرقية القديمة في بلاد العراق واليمن والصين وغيرها لم تفقد مسارها العلمى إلى جانب مسيرتها الروحية ، والحقيقة الثابتة والمؤكدة هي أن لا أحد يستطيع القول بأن الحضارات الشرقية جميعها، ومنذ قديم الأزل لم تأخذ بالمنهج العلمى في مسيرتها.

والفارق في السمات النفسية والوجدانية بين أهل الشرق وأهل الغرب يتضح بجلاء في أقصى الشرق ، ويخفو حثيثاً كلما أتبجها من أقصى الشرق إلى وسطه وغربه ، لكن طرفيه (الشرقى والغربى) قد اجتمعا في هذا الشرق الأوسط كما يرى مفكرنا العربى الدكتور/ زكى نجيب محمود ، وأشار بذلك في كتابه (الشرق الفنان) بقوله : « لكن الطرفين قد اجتمعا في هذا الشرق الأوسط العبقري العجيب ، ففي شخصه اجتمع تأمل المتصوف وتحليل العالم وصناعة العامل..حتى لقد قال (وايتهد) : إن حضارة الغرب كلها ترد إلى أصول ثلاثة . اليونان وفلسطين ومصر ، فمن اليونان فلسفة ومن فلسطين دين ومن مصر علم وصناعة ..» وفي موضع آخر يقول : « وهل بنا حاجة إلى القول بأن هذا الشرق الأوسط في روحانيته منذ أقدم عصوره، هو الذى اختاره الله ليكون

مهبط وُخيه إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .» ويضيف: «...»
أن الفارق بين الشرق الأوسط وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى هو في
أن الشرقيين الأقصى والأوسط يتشابهان في النظرة الحدسية - نظرة الفنان.. ثم
يختلفان في أن الشرق الأوسط يضيف إليها نظرة علمية عملية والفرق الثاني هو
في أنهما يتشابهان في النظرة العقلية العلمية العملية ، ثم يختلفان في أن الشرق
الأوسط يضيف إليها النظرة الحدسية.».

والمعنى الذى يتجلى لنا من قول المفكر العربى الكبير / زكى نجيب محمود
هو أن أصلح موضع في البسيطة للحضارة الإنسانية الرشيدة هو تلك المنطقة
المسماه بالشرق الأوسط ، لأن حضارتها تقف في ثبات على قدمين (عقل وقلب
(ولا تفقد الروح والإحساس والشعور والحدس والخلق والدين في الوقت الذى
تُعمل عقلها ، فالعقل يلزم القلب أينما ذهب ولا يفارقه فتتحصن الحضارة من
أى انحراف وتظل على الدوام في صالح الإنسانية جميعها ، ولذا نجد دائماً أن
الحضارات الشرقية تمتد عصوراً طويلة قبل أن يصيبها الأفول ، كما وأنها تأخذ
على عاتقها مصالح الآخرين.

وإذا مانظرنا للقفزة العقلية للغرب منذ القرن الرابع عشر على وجه
التقريب نجد أنها قد سبقتها ظروف هيأت ومهدت لها ، وظروف أخرى
صاحبها وساهمت في دفع تلك القفزة العملاقة ، فقد سبقتها فترة ظلام حالك

سيطرت فيها الكنيسة ورهبانها على كافة أمور الحياة ، ووقفوا حائلاً بين حرية الفكر وحرية العقل من جهة ومبادئ عقائدية - افترضوها زيفاً - لا تفتأ أن تتدخل بصرامة في كل شأن من شؤون حياتهم - صغيراً كان هذا الشأن أم كبيراً ، وأرهبوا كل من يتجرأ على البوح بأى فكرٍ جديد قد ينتهك تلك المعتقدات ، مهما انطوى ذلك الفكر على يقين علمى أو قناعة عقلية أو منطق الصديق ، فدام الأوروبيون في هذا الظلام الحالك الذى تقيد فيه الفكر النظرى وتبلدت معه الحواس ، وظلّوا في حالة متردية من القهر المُذل والكبت الشديد والظلمة الحالكة زُهاء ستمائة عام ، وكان لابد من وقت يتحرر فيه ذلك العقل المقهور ويتحرر من قيده ، ولما حان وقت التحرر انطلق الأوربي إلى رحابة الدنيا وانهمك في اقتناص كل فرصة تعوض له ما فاتته من نعيم الدنيا ، وكانت البداية ببزوغ الفن التشكيلي من رسم ونحت وتصوير زيتي ، وحظّه أنه لم يجد أدنى معارضة من رجال الدين وقتها ، حيث نقل هذا النوع من الفن مفاتيح الطبيعة (من السماء والنجوم والكواكب والصخور والأنهار والأشجار والتفاصيل المعمارية ومناظر البحر والزوارق والفرسان والوجوه بشتى تعبيراتها...) وانتشرت لوحات وإبداعات المبدعين وتمثالهم في الميادين والكنائس ، وساهمت بقدر عظيم في شحذ الحاسة البصرية وتوجيهها نحو مفاتيح الطبيعة للنظر فيها واستكشاف أسرارها ، واستنفر هذا التحدى خصلة الإبداع الإنسانى في كل شئ (في الفن والعلم والمهارات التقنية والتجويد في مختلف الأعمال) ، وأطلقت القدرات الذهنية من مكانها وما كان بمقدور العلم الحديث أن يخطو خطوته الأولى ما

لم يكن هذا التدريب البصرى الشامل - الذى أدّت دورَه الفنون بكفاءة - قد فتح له مغاليق العالم الواقعى أمام العين البشرية بمرونة بصرية فائقة ولأكثر من قرن من الزمان.

والمتتبع لوُقع التاريخ سيلفت نظره أن الحضارات دائماً ما تبدأ بالفنون البصرية ثم يليها باقى الفنون الأخرى وقبل بزوغ العلوم النظرية والتقنيات العلمية ، ذلك لأن الفنون تُمهّد لها بسبب تأثيرها الإيجابى فى شحذ الحواس وفى تعميق الإحساس وفى تجميل الحياة بوجه عام وتهيئة النفوس للإقبال عليها بحب وبشغف ، ولذلك،فليس من سبيل الصدفة أن تكون نقطة التلاقى بين الفن والعلم - فى الحضارة الغربية - فى شخص الفنانين والعالمين المبدعين ليوناردو دافنشى ومايكل أنجلو ، فقد كان للأول ولع شديد بالدراسات التشريحية للجسم البشرى وأنجز منها الكثير الذى صار تحت يديه أُسس علم التشريح ، والثانى بصفته من أعظم النحاتين قد ساهم فى وضع أُسس العلوم التشريحية فضلاً عما أنجزه من منجزات معمارية فائقة التقنية ..**

وتلك هى الخطوة العقلية الأولى لإعمال الفكر العلمى ، وها قد آن الأوان ليتحرر هذا الغربى من قيده ومن قهره ، وراح مندفعاً فى انطلاقة عاجلة ومتعازمة ، وكلما أراح ستراً عن العلم تذوّق متعة وسعادة ونشوى لا حدود لها وتزداد حماسه توقداً ، فاندفع فى سبيله هذا منتعشاً بقدر هائل

من الثقة بالذات، بل والخيلاء والغرو، أما الظروف التي صاحبت تلك القفزة العقلية ففي التحول الاجتماعي لأوروبا من التوجه الإقطاعي الظالم إلى التوجه الرأسمالي المنصف، إلى حد ما! ، والذي كان له أثر عظيم في انتشار ثمار التقدم العلمى وإسهامه فى نقل المجتمعات الأوروبية من عُسْر الحياة وضيقها إلى المتعة والرفاهية ، فما إن يخرج أحد المخترعين من معمله بفكرة أو اختراع أو اكتشاف حتى يتلقفه واحد من أصحاب المال الرأسماليين ليحتكر هذا الإختراع الجديد ، ويسعى لاستثماره وكسب أقصى عائد منه ، وذلك بتصنيعه ودفعه إلى الأسواق لينفذ منها سريعا نظرا للإفادة البالغة منه ولأهميته غير المحدودة فى تسهيل وتيسير حياة الناس ، وفى إضفاء المتعة والرفاهية على مجمل الحياة العامة والخاصة ، وقد ساهم ذلك فى رواج اقتصادى وعلمى وتقنى بالغ الذرى كان بمثابة قوة الدفع الفائقة لهذه القفزة العقلية العلمية غير المسبوقة.

هذا ما نراه من فارق بين فكر أهل الشرق وفكر أهل الغرب ، والفارق بينهما يكمن فى الدوافع التى ساقى الفكر الغربى - المتلهف للحرية - بعد عصور الظلام التى طال مداها ، والتى صُقِدَ فيها العقل وعانى فيها الفكر من الحجر والقيد ، وحينما جاءتهم الفرصة انطلق الفكر الغربى جامحا بلا ضابط من عقيدة أو دين أو ضمير ولم يكن أمامهم إلا غاية واحدة، هى النهل من ملذات الحياة الدنيا وبأقصى طاقة ممكنة.. هكذا، اندفع الغربيون من قفصهم المظلم على جناحى الغرائز والشهوات وفى استباق محموم صوب أوثان المصالح الدنيوية

ليتحلقوا حولها - عابدين غير عابئين، وثمة فارق آخر يكمن في طبيعة الفكر: فالأمر بين الفكرين (الشرق والغربي) ليس على سواء، ذلك لأن الفكر الشرقى يسترشد فى مسيرته بالوجدان وبالعاطفة وبالحدث القلبى النافذ لحقائق الأمور، وهى طبائع فطرية تضبط الفكر وتدرأ عنه الجنوح والشطط، أما الفكر الغربى فإنه اختار أن يتحرر - دونما اكتراث - من أنوار الإيمان ومن صيحات الخير ونداءات الحق التى هى روح الفطرة..ولا يغرنك ما حازوه من تقدم سريع وما حققوه من انطلاقة فائقة فهى حضارة جامحة وغير مكتملة، وإنها خطوة غير محسوبة وغير مأمونة، وتحمل فى باطنها بذور التقويض والهلاك، وسرعان ما ستتكفى مسيرتهم، فالنظرة المتفحصة على تاريخ الحضارة تنبئ بأن مثل هذه الانطلاقات عمرها قصير فى حسابات الزمن ولا يكتب لها الدوام.

الباب الرابع

”الحرية ليست غاية في ذاتها ، بل هي مَطِيَّةٌ مُطَهَّمَةٌ قد منحها الله للإنسانية لتنطلق بها شَطْرَ غايتها المنشودة ، ومسئوليتنا أن نرُوضها على الدوام ، وأن نضع لها من الشكائم الضابطة ما يجعلها تتخذ لمسيرتها صراطاً مستقيماً ومأموناً، على أن لا تجمَح بنا وينفلت مِنَّا زمامها ...“

- معنى الحرية
- (نحو مفهوم جديد عن الحرية)
- غريزة الحرية
- لا قيود مع الحرية
- نطاق الحرية
- أركان الحرية
- مجال الحرية
- روافد الحرية
- معايير الحرية
- العامل الذاتي في الحرية
- الحضارة والحرية

الحرية

لم يتفق الفلاسفة ولا أهل الفكر ولا العلماء الأكاديميون على وضع تعريف مُحَدَّد وواضح وجليّ عن الحرية ، فكل منهم يدلى فيها بدلو من عنده ، وينظر فيها بعين الثقافة التي ينتمى إليها ، ويبغى منها مصالح يؤمن بها ويعتقدها ، ولقد اختلفوا اختلافاً بيّناً في ذلك ، فمنهم من أطلق لها عنايتها ، ومنهم من صفّدها في القيود والأغلال ، ولم تنكشف حقيقتها على مر التاريخ إلا سيرا ، بينما اتفقوا على أن الحرية ما يجب أن تكون مطلقة من كل القيود ، فالحرية المطلقة افتراض فيه استحالة عقلية ، فضلاً عن عدم إمكان وجودها في الحقيقة ، وإن وُجدت رغم هذا، فهي الفوضى بعينها ، واتفقوا كذلك على أن الحرية لن تكون في صالح المجتمعات ما لم تُقيد أو أن يوضع لها حدود وتدابير صارمة لتقهر كل من يريد أن يتعدها ، وإلا استحالت إلى فوضى وينجم عنها الشر والويل ، بيد أنهم اختلفوا حول طبيعة هذه القيود وحول نطاق هذه الحدود ، واختلفوا كذلك حول التدابير الواجب اتباعها لشل حركة الحرية وقيدها ، وصارت الحرية بذلك أحد الألغاز التي لم تنفك شفرتها بعد ، شأنها شأن معظم الانفعالات الفطرية الأخرى التي ستظل تفتش الإنسانية وتنقب عن حقيقتها، دون كلل أو عناء.

ولأن الحرية الإنسانية غرسة فطرية ، فلن يُجدى البحث عن حقيقتها ومعناها ومغزاها بعيدا عن هذا الإطار، ودون النظر في باطن النفس ، وما علينا إلا أن نجوب هذا العُباب الصاخب (النفس الإنسانية) ، فإذا ما صرنا قُباله غرستها فيجب أن ننظر إليها من كافة الزوايا بدءًا من مرجعيتها في الفطرة ، وأصولها ، وقواعدها ، وأركانها ، والأطر والضوابط المتطلبة لكبح كباح انفلاتها ، والمجال الذى يجب أن تتفعل فى إطاره ، وأركانها ، والمعايير التى تُقَيَّم بها كل عمل لينال شرف الانتماء لها ويستحق أن يوضع على مضارها ، كما يجب أن نتعرف على فضلها فى تقدم الشعوب والأمم وفى بناء الحضارات.. فجميع هذه الزوايا تتصل بأصول الفطرة وتنبع من حنايا النفس الإنسانية.. وسنبداً بالبحث عن معنى الحرية ومفهومها.

مَعْنَى الْحَرِيَّةِ

(نحو مفهوم جديد عن الحرية)

أذكرُكَ عزيزى القارئ بأن إطار موضوعنا الشامل الذى نتحدث عنه هو البحث عن أثر الينابيع الفطرية فى دفع الإنسان نحو التقدم والحضارة، ومنها ينبوع الحرية ، وليس بوسعنا أن نتحدث عن أثر هذا الينبوع الفياض فى التقدم والرقى وفى بناء الحضارات قبل أن نتعرف على معنى الحرية ، وما هو مفهومها

، وما نطاقها ، وما هي آفاقها..؟ تلك هي التساؤلات التي يجب أن نتعرف على إجاباتها في البدء ، وقبل أن نجيب عليها نرى أنه من الضروري الإشارة إلى قول أحد أهم وأشهر المفكرين العرب في العصر الحديث عن معنى الحرية ، ذكلم هو مفكرنا الكبير: عباس محمود العقاد ، حيث ذكر في كتابه الأثير : « الإنسان في القرآن » في باب «التكليف والحرية » مانصه : (فكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كل احتمال ؟..إنه لايتصورها أرادة مطلقة من جميع القيود ، لأن إرادة إنسان واحد تنطلق بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواه ، وكيف يأتي هذا الإنسان الواحد بإرادته المطلقة منفرداً بها بين أمثاله المقيدين ؟. أما أن يوجد الناس جميعاً بإرادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هي الإحالة العقلية في الفرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الإيجاد والتحقيق)..وفي موضع آخر من الكتاب يستطرد الكاتب والمفكر الكبير: (أن خلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول..وليس في العقل شيء يُسمى حرية مطبوعة تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من جميع القيود ..لأن الإنطلاق من جميع القيود غير معقول وغير موجود)..وفي موضع آخر يقول : (أن الحرية لاتكون سواء في كل إنسان لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر ولاخلاف المكان والجسد ولاخلاف الصغر والكبر ، ولاخلاف الحركة والجمود ..).

هذا ما ذكره المفكر العربي الكبير/ عباس محمود العقاد عن مفهوم ومعنى الحرية ، فهو يرى أن الحرية المطلقة لكل الناس على سواء هي استحالة عقلية

على الإطلاق ، وأن الانطلاق من غير قيود (أى الحرية المطلقة) فهو غير معقول ، فضلا عن أنه غير موجود فى الحقيقة ، وأن الحرية لا تكون سواء فى كل إنسان.. وإن كان لنا فى قوله من ملاحظة فليس بوسعنا أمام مفكر كبير كالعقاد إلا أن نشير إليها على أستحياء.. فقد مزج بين الإرادة والحرية مزجاً يكاد معه أن يُستعصى علينا أن نلتمس إحداها دون الأخرى ، فضلا عن أنه يرى بحتمية قيد الحرية حينما قال: « الإنطلاق من جميع القيود غير معقول وغير موجود » لكانما يريد أن يقول أن الحرية الرشيدة ليست مطلقة على الإطلاق ، وهذا أمر بديهي ومنطقي وأتفق معه فى ذلك ، ويرى كذلك أن الحرية لا تعنى الانطلاق من جميع القيود ، بل لا توجد الحرية إلا مع وضع بعض القيود عليها.. وهنا أختلف مع مفكرنا الكبير اختلافا جذريا مع بالغ المعةرة!!.. حيث أرى أن الحرية لا توجد إلا بالانطلاق من جميع القيود ، وهذا هو المعقول وهو واجب الوجود ، فلا قيد مع الحرية ولا معنى لحرية مقيدة ، فالقيد شلل والحرية انطلاق.. فكيف يجتمعان؟!، ثم إن لفظ الحرية ذاته يتأبى على أى قيود ، فبأى معنى يكون الفعل حُرّاً وتكون الإرادة متحررة حينما تُصَفَّد بالأغلال والقيود!!، أليست هذه الحرية المزعومة أجدر بأن تسمى عبودية؟! وكيف يتسنى أن نسميها حرية وهى فى أغلالها مُصَفَّدَةٌ؟!.. قد يبدو من قولى هذا أنه يجافى الحقيقة والعقل معا ، فكيف يدعو أحد مثلى إلى الحرية المطلقة التى يتفق الجميع على أنها الخراب بعينه ، بيد أنى آمل فيمن يستبق الأحداث ويتصور أنى أصدم مشاعره أن يترث قليلا قبل أن يفضى برأيه عن قولى ، فليس معنى

رأى هذا أن ندع كل إنسان يفعل ما يشاء وقتما يشاء وكيفما يشاء ، فهذه جهالة أبرئ نفسى منها، وما أظن أننى موضع اتهام بها ، وإنما أريد القول بأن الحرية تنطلق فى أطر وضوابط دون قيود ، والفارق بين القيود من جهة وبين الأطر والضوابط من جهة أخرى كالفارق بين قيد الفرس من أرجله لمنعه من الحركة أى (تقييد وشل حريته الحركية تماما) وبين اللجام الذى لا يمنع الحرية الحركية ولا يقيدها بل يضبطها ويحكمها ويرشدها ويدراً جنوحها وانفلاتها.. هذا ما أقصده تحديداً ، كما وأنى لا أستسيغ اقتران الحرية بالقيود والأصفاة والرواسف ، ذلك، لأنها من أسمى طاقات الفطرة الإنسانية ، وهى الأجدر بأن ننظر إليها نظرة تقديس وإجلال وإعجاب لا نظرة تحقير وإصغار وإذلال ، فهى أعلى ما يملكه أى إنسان.

فالحرية تتأبى على القيود ، ذاك لأنها انفعال نفسى وليست ذات أرجل ليتسنى لنا أن نشد عليها قيوداً بالحبال ، كما وأنها بلا أذرع حتى نُصقدها بالرواسف ولأغلال ، وإنما هى انفعالات متبينة فطريا لأن تُرشد وتُضبط ، وأن تُعقل بشكائهم العقل وحده لا أن تُقيد بقيود العقل (العقل : هو الحبل الذى يقيده به أرجل البعير).. فالحرية والقيد لا يجتمعان ، كذلك فالحرية ليست فوضى أو عبث بل هى مسئولية والتزام وانضباط ونظام ، لهذا فلا اجتماع أيضاً للحرية مع الفوضى لأنها (أى الحرية) من أهم عوامل صناعة الحضارة ، أما الفوضى والعبث فيهدمانها ، والتاريخ قد أنبأنا بأن إشراق

شمس الحرية مُسَوِّغٌ لتألق الحضارة وازدهار حياة الأمم والشعوب ، ومع غروبها تنشط معاول الفوضى ويَعْمُ البؤس وتأذن الحضارة بالغروب.

ولذلك، فأُطر الحرية المنضبطة هي في التوجيهات الفطرية النابعة من باطن النفس ، ولا تُفرض من خارجها فرضاً، ذاك لأن الحرية غريزة فطرية وضوابطها هي الأخرى تنبع من ذات النفس ، أما القيود فهي من صُنع الأهواء وتُفرض جَبْراً من الغير ، وكل بحسب هواه! ، وهنا مَكْمَنُ الخطر..لذا،وجب أن نَعُدَّ الرحال في رحلة متأنية إلى أغوار النفس لنعاين تلك الغرسة العزيرة ، ونتعرف عليها أكثر.

فَرَسَةُ الْحُرِيَّةِ

إذا ما كانت الحرية لا تقبل القَيْد - كما ذكرنا - رغم كونها طاقة إنسانية هادرة! ..فما معنى الحرية إذن؟! ، وكيف نضمن رُشدَها؟! ، وما هو السبيل الذي نطمئن به إلى عدم انفلاتها؟!..هذا سؤال في موضعه ، وسنحاول الإجابة عنه بدءاً من الاسترشاد بالقرآن الكريم حيث أشارت بعض آيات سورة الشمس لمعنى الحرية الإنسانية وإلى نطاقها.

قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾ سورة الشمس..ففي الآية السابعة

: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ قَسَمَ مِنَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ بالنفس الإنسانية ، ولا يأتي القسم إلا بأكرم المخلوقات على الله ، والنفس الإنسانية لم تُخْلَقْ كباقي خلق الله ” بكن فيكون ” وإنما جاءت خلقتها بالتسوية وبالعناية الربانية وبالتشريف الإلهي ، (والتسوية) في ثناياها لُطْفٌ وعناية مخصوصة ، ومحبة من الخالق البديع لهذا المخلوق المُكْرَم ، وفضلا عن ذلك فإن النفس الإنسانية قد حازت الشرف الأعظم الذي تجلَّى الله به عليها بنفحة كريمة من نفخة الروح الربانية.. قال تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩) سورة الحجر.. فجاء الإنسان إلى الدنيا على أجمل صورة وبأكرم تشريف ، هذه العناية الخاصة قد أضفت على النفس الإنسانية نَفْخَةً من الصفات الربانية من العزة ، والكرامة ، والرحمة ، والعفو ، واللطف.. إلى آخر هذه الصفات الجليلة وعلى قدر حاجة الإنسان لها في عالم الدنيا ، وفي إطار الحكمة من وجود الإنسان في عالم الشهادة ، ولا تمنح صفات مثلها إلا لمن يمكن أن تكون له الإرادة الرشيدة وتكون له الحرية المسؤولة والمنضبطة ، تلك الصفات الكريمة نراها جليّة واضحة على أفضل بنى الإنسان الذين زكوا أنفسهم من المخلصين والمخلصين والمصطفين الأخيار من أنبياء الله ورُسُلِهِ ثم الصديقين والعارفين والعلماء وذوى الخلق الطيب والفطر السليمة والنفوس السوية وأصحاب العمل الصالح والسلوك القويم ، وهى على عكس ذلك ضامرة فى أعماق الذين دسّوا أنفسهم من أصحاب البغى والفُحش والمنكر ، مستخفية هناك وراء الران الذى يترام على قلوبهم ، والناجم من فسوقهم وآثامهم وشرور أعمالهم.

والآية الثامنة من سورة الشمس ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ تُقَرَّر أن الخالق الكريم سبحانه وتعالى قد جعل في النفس الإنسانية نزوعاً انفعالياً بعالمها الجديد (عالم الشهادة) ، كما أعدّها وهيئها ومهدّها للتعايش فيه ومعه ، أى أن الله تعالى غرس فيها الفجور والتقوى ، بمعنى أن الخالق الكريم قد جعل في النفس طاقة انفعالية تعينها على أن تمارس حياتها في عالم الشهادة برغبة ونظام وانضباط وبقدرٍ مناسب من التوازن الذاتي ، كي تستقيم لها الحياة ، فلا فجور في النفس دون وجود الطاقة الراشدة له (ألا وهي التقوى) ، ولا اتقاء دون وجود تلك الطاقة المتفجرة في النفس .. إنها خِلقَة الله التي جاءت بموازين الحكمة والعدل .. ولكن ما طبيعة هذه الطاقة وكيف تنفعل بها النفس ؟ ، ذلك هو السر الذي سننقب عنه أولاً من خلال إزاحة غُلالة الألفاظ ولفائفها.

ولتكن بدايتنا في أن نتعرف على المعنى اللغوى الذى أوردته المعاجم للفظي (فَجُورَهَا) و (تَقْوَاهَا) ، وإن كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل ، وبشيء من التفصيل في كتابنا ” الإنسان كما فطره الله ” إلا أننا سنوجز حديثنا عن الفجور والتقوى من الزاوية التي نُبيِّن معها علاقتهما بموضوعنا الذى نتحدث عنه الآن .. ألا وهو الحرية.

نعود للآية الشريفة .. فالشائع والمتعارف عليه أن أهل التفسير جميعاً قد اتفقوا على أن المعنى المقصود من الفجور في الآية هو الشر بصفة عامة ، وأن

معنى التقوى هو الخير إجمالاً ، أى أن الله تعالى ألهم النفس الإنسانية خيرها وشرها ، هذا التفسير وحده - وإن جاء بما يشبه الاتفاق والإجماع - إلا أنه لا يُرضى الفضول ! ، فإن كان هذا هو المعنى المقصود من الآية لجاءت الألفاظ صريحة جليّة واضحة لا التباس فيها ولا غموض ، فإذا ما تدبرنا هذين اللفظين (الفجور والتقوى) حق التدبر فلسوف نرى أنهما - معاً - يمثلان المعيار الذى يوزن به كل عمل وكل فعل إنسانى ، فأفعالنا وانفعالاتنا وأقوالنا جميعها تنبع منهما ، فلا يمكن وصف أى فعل فى الحركة الإنسانية قاطبة، مهما كان شأن هذا الفعل أو القول، إلا بأن يكون فجوراً أو أن يكون تقوى أو يكون متضافراً بهما معاً، لذا فقد جاءت الآية بلفظين إعجازيين مقترنين (فجورها) و (تقواها) ، والمرور المتعجل والنظرة السريعة لن تعطينا إلا المعنى الظاهرى الذى يحجب وراءه حقائق ما زالت خافية عنا ، فالقول بأن معنى الفجور هو مطلق الشر وأن معنى التقوى هو الخير إجمالاً ، هو مجرد وصف ظاهرى يأتى من اللمحة الخاطفة ومن المرور العابر المتعجل ، إلا أن الوقوف المتأمل أمام اللفظ يضيف بُعداً آخر وفهماً أعمق ، فلن يكتمل وصفنا لإناء زهور - مثلاً - بأن نرمقه من بعيد ونقول إنه ذو شكل إنسيابى بديع.. فقط ، فهذا غير كاف للتعرف على حقيقة ، بل يجب الاقتراب منه والنظر إليه مليّاً وأن نتفحص وزنه ، وندق عليه لتتعرف على صقالته ومدى قدرته على تحمل الصدمات ، فإذا ما أردنا استخدامه يجب أن نضيف إلى كل ذلك النظر فى مدى مناسبته للغرض المطلوب منه ، ومناسبة شكله ولونه وحجمه للزهور التى ينبغى لنا أن نضعها

فيه.. إلخ ، وكل ذلك لن يكفي ما لم نتحصل على الفائدة أو الغرض الذى نبغيه من وجود إناء الزهور فى مكانه ، فالزهور الساحرة والإناء البديع لن يفيدا شيئاً إذا ما وضعناهما فى مكان مغلق لا يرتاده أحد من الناس.. كل تلك المعنى يجلبها الوقوف ملياً للتأمل والتدبر وليس مجرد إلقاء النظرة العابرة.

نعود للآية الشريفة : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ لتدبر أمرها.. نجدها تشير بلطفٍ إلى غرسة من غرسات الفطرة الإنسانية ، وتوحى ألفاظها بأن الله تعالى قد غرس فى النفس الفجور والتقوى ، إذن هى غرسة ذات وجهين أحدهما للفجور والآخر للتقوى.. بيد أن الأمر فى حاجة إلى أن نتعرف أولاً على المعنى الحقيقى لهذين اللفظين.. والحق أن كلمة (فجور) هى ضمن كلمات كثيرة تعثر حظها كثيراً على الفهم نظراً لأن العُرف قد حملها معانى بعيدة تماماً عن المعنى الأصلى للكلمة ، ذلك لأننا نُقَرِّنها دائماً بالمنكر والفحش وبكل ما قد نُوسم به رجل أو امرأة فنقول مثلاً : رجل فاجر أو امرأة فاجرة ، هذا المعنى السىء الذى أحتمله اللفظ أضفى بأذهاننا أنه يحتمل نفس هذا المعنى المُنفِر فى كل أحواله ، ولهذا صار أقرب لأن يفسر بمعنى الشر على الإطلاق ، وهذا غير صحيح ، فهو ليس شراً فى كل الأحوال ، فالفجور : مادته اللغوية فَجَرَ (ف - ج - ر) بمعنى إنبجس ، (وَفَجَرَتْ) عين الماء أى انبجس الماء منها وفاض ، فإن كانت تلك المياه المنبجسة (المتفجرة) قليلة فتكون عوناً على نماء بعض الزروع حول العين تؤتى من الخير ظلالاً وجمالاً وثماراً تنفع الناس ، وتمنحنا واحة

وارفة نتعطش لمثلها في وحشة المفاظات وهجير الصحارى ، فإن فاض الماء بقوة من العين واندفع اندفاعاً أهوجاً لصار طاقة مدمرة ، وستجرف أمامها كل ما يصادفها من عمار وخير، وتكون مدعاة للفوضى والخراب ، فإن أردنا منها الخير قمنا بترويضها وترشيدها وذلك، بالتحكم في مسارها ، فنشق لها المجرى المناسب لتتدفق فيه إلى الوجهة التي نريدها ، ثم ندعم هذا المجرى بالجسور والسدود لتنظيم سريان الماء دون أن يطيش هنا وهناك ، ثم نشق القنوات المتفرعة لنتحكم في مسارات المياه ونضمن وصولها إلى أراضٍ غير ذات زرع ، فنتج لنا الزروع والثمار والظلال والخير ، وبذا تتحول تلك الطاقة الهادرة إلى طاقة نافعة تحمل معها من الخير صنوفاً وألواناً تتيسر معها الحياة وتهدأ بها النفوس وتسلم بها البقاع.. فمثل هذا الفجور المنبجس من عين الماء كمثل فجور النفس الهادر ، هذا الفجور الذي ألهمه الله للنفس الإنسانية هو طاقة كامنة مهيأة لأن تفيض وتتفجر كتفجر المياه من عين الماء ” إنه لَهُوَ الحرية التي منحها الله للإنسان ” ، وهى طاقة فطرية إنفعالية فى حاجة منا إلى أن نُسوسها ونُرَوْضها ، وأن نعمل على ترشيدها بما يتوافق مع صالح الفرد وصالح المجتمع وصالح الإنسانية ، وإلا اندفعت فى هياجٍ وطيشٍ لتدمر كل ما يصادفها من عمار وخير ، وتثير الخراب والأسى ، نعم..هى طاقة تحمل شراً ، بيد أن فى الإمكان أن نحيلها إلى طاقة خير إذا أحكمت السيطرة عليها بأن نرسم لها أطراً ومسارات ذات نظم ودعائم. الحرية هى ذلك الفجور الذى غرسه الله فى الفطرة ، إنها فيضان نفسى مثله مثل الفيضان الهادر من عين الماء ، ستكون شراً وبيلاً ما لم نتحكم فيها

بالأطر والضوابط ، وذلك، بأن نجعل لها روافداً ومجاري تنساب من خلالها في اتجاه الخير الذي ننشده ، لا أن نتحكم فيها بأن نصفدها بالقيود والأغلال ، وهل نستطيع قيد وتكبييل عين الماء؟! فإن استطعنا ذلك نستطيع معه قهر وقيد وتكبييل الحرية ، وإنما الخطر، كل الخطر، يأتي مع الاعتقاد في تكبييل الحرية ومع محاولاتنا تقييدها ، تلك هي صرخة التاريخ المدوية التي لم ينصت لها البعض إلا قليلاً.

وترويض هذا الفجور يكون بالتربية الصحيحة للفرد الناشئ الذي يحمل في أعماق نفسه تلك الطاقة الطائشة - في مهدها ، وبإمكانك أن تلمسها في مشهد لأطفال يلعبون بالكرة ، فسرعان ما تراهم يتنازعون لدرجة الاشتباك بالأيدي وتخميمش الوجوه بالأظافر وقضم الأذرع بالأسنان ، فتهرع الأمهات لفك هذه الاشتباكات الدامية ، ثم يبدأ موشع التأنيب والتأديب لتصحيح سلوكيات هؤلاء الصغار.. فحينما نهر طفلنا عن بواذر أعماله السيئة كأننا ننشئ سداً حائلاً أمام فجوره النفسي أو بمعنى أوضح أمام (أفعاله وسلوكياته الطائشة) لنحوّل هذا الفجور إلى المجرى الأصح له وللمجتمع ، وبذلك، نخطو معه درجة في سبيل تقويم سلوكه ، فإن عادَ زِدنا معه درجة العقاب أو بمعنى آخر زدنا تدعيم ذلك الحائل الذي نشيده أمام شرور نفسه ، وحينما نكافئه عن فعلٍ صالح قد أتاه فإننا بذلك كأنما نشق له المسارات الرشيدة ليأرس فيها حريته ، فنخطو معه درجة أخرى ، تلك هي أمور التربية الواجب إتباعها لتهيئة النشء وترويض فجورهم (أي حريتهم) لصالح الأعمال .

الحرية إذن.. غريزة نفسية وتوجه فطري ، و طاقة ذات فجور واندفاع وانفلات ، وبإمكانها أن تدفع هوى النفس وباقي الغرائز دفعا غير مأمون العواقب..وهى فى حاجة دائما إلى تربية، وسياسة، وضبط، وترشيد.

وهنا يأتي موعد السؤال الثانى : ما هو السبيل - إذن - لترشيد هذا الفجور النفسى؟ ، إلا أن البحث لن يجهدنا ولن نذهب بعيدا ، فوسيلة ضبط هذا الفجور فى الوجه الآخر لهذه الغرسة ، فمن فضل الله تعالى أن جعل فى قلب كل منا ضابطاً حاكماً لهذا الفجور النفسى ليدراً جنوحه وانفلاته وطيشه.. وتلكم هى غرسة (التقوى)!!!..ولكن ما التقوى ؟ ، وكيف يتسنى لها أن تتحكم فى انفلات الفجور النفسى ؟.

وللإجابة نقول: أن التقوى تعنى "لغويا" الإتياء ، أى المدافعة عن الذات ، كأن يتخذ المحارب درعا ليحمى جسده من وقع السهام ، والتقوى هى ذلك الدرع الذى تتخذه النفس ليحميها من وطأة هذه الطاقة الهادرة ، فالنفس الإنسانية مأمورة بأن تحفظ وتقى وتصون بنيتها القلبية بمثل ما تقى وتدافع عن بنيتها الجسدية ، وهى مأمورة بأن تقى ذاتها من انفعالاتها الزائدة كالانفعالات العاطفية العاصفة ، ومأمورة كذلك بالاتيء من الشرور المصوبة تجاهها من الغير ، لذا فقد وهبها الله العديد من الأدوات الفعالة التى تستطيع بها أن تكبح جماح هذه الانفعالات المهلكة ، هذه الأدوات تُشكّل السبيكة التى تُصنع منها هذه (التقوى) ، ومنها : العقل / والوازع الدينى والعقائدى / والوازع الأخلاقى /

والضمير/ والرحمة / والصبر .. ، والواجب على الفرد ذاته وعلى المجتمعات، في آن واحد أن يعدّوا ذلك الدرع إعداداً جيداً حتى يقوى على التصدى للنوازع المتفجرة بالنفس وعلى كبج جماحها ، وحتى يكون أقدر على حمايتها من بغى وعدوان الآخرين ، أما إن ضعفت تلك السبيكة فلن تقدر على الصمود أمام وطأة تلك الانفعالات الهائلة المتفجرة بأحاء النفس أو رد العدوان عنها ، وهنا ينفلت الفجور النفسى وتأتى المخاطر والخطوب ، وكأن النفس فى الوقت الذى ألهمها الله (فجورها) تفضل عليها بعدله وبحكمته بأن وهبها من المناعة ما يضبط هذه الطاقة الانفجارية حتى تحتوى منها وتقى ذاتها والغير من انفلاتاتها المهلكة.. أى : ألهمها (تقواها) .

هكذا وبذلك الضفيرة المجدولة بإحكام، من غرستى الفجور والتقوى معاً ترشد انفعالات النفس وتنضبط الحرية، والفجور والتقوى متلازمان ، فالآية الشريفة قد قرنتهما معاً ، هى علاقة اقتران ومصاحبة وتضافر مثلهما مثل جناحى الطائر ، فلا يعمل جناح بمعزل عن الثانى وإلا السقوط والتردى ، وشأن النفس فى ذلك شأن الطائر الذى لا يستطيع ممارسة حرّيته فى الطيران بجناح واحد ولا يستطيعها كذلك إن تفاوتت قوتا الجناحين ، لأن الفجور طاقة متفجرة فى حاجة دوماً إلى ضابط شاك على قدر عنفوانها ، هذا شأن النفس فى تفاعلاتها مع أمور الحياة الاعتيادية التى تُفرض عليها من خارجها، ودور الإتياء المفطور بالنفس هو أن يَرُمّ هذا الفيضان الهادر وأن يدفعه فى سبيل

ممهدة ليتدفق فيها.. وضبط عنفوان الفجور لن يكتمل إلا بالعمل على دوام تزكية وغناء التقوى بالقلب، ذلك لأن الفجور فيه طاقة صرعة وجموح وانفلات ويلزم أن تكون التقوى على نفس هذا القدر.

وتشير الآيتان التاسعة والعاشر من سورة الشمس إلى أن غاية ترويض الحرية هو في صالح الأعمال التي يبادر بها كل فرد ، وبعموم الأعمال الصالحة للأفراد تصبّ في النهاية في صالح المجتمع كله وصالح الإنسانية جميعها.. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ أى : فقد فاز بالفلاح كل من تحكّم في حريته وأجراها في كل عمل صالح ، وكل من حفظ واتقى كرائم الصفات في نفسه من كل شائبة ، وقد خاب من لم يفعل ذلك .. كما تشير الآيتان إلى أن مسؤولية تقويم الحرية تقع على الجميع ، فبإمعان النظر في لفظ ﴿مَنْ﴾ في الآيتين التاسعة والعاشر فإننا نرى أنه يعود على صاحب النفس حينما يبلغ رشده ويستقل بأمره ويكتمل عقله ، ويعود أيضا على كل راع وعلى المجتمع كله في تربية النشء.. إنها مسؤولية فردية وجماعية معا.

وتزكية نفوس النشء وترويض فجورهم وترشيد حُرّيتهم المنفلتة يكون بتقوية جناح التقوى ، وذلك بغرس سياج من القيم والفضائل ومكارم الأخلاق ، ومبادئ العقيدة الدينية القوية ، والتدريب على الصبر ، وتقوية العقل بتنميته بالمعارف والعلوم ، وترويح النفس بالجمال والنظام والسلام .. هذا السياج القويم

من سبائك التقوى يحيط بالنفس كمثل الحزام الأخضر الذى ننشئه حول المدن ليقههما من آثار العواصف والأتربة وينقى لها الهواء ، فالتقوى كذلك تقى النفس من نفثات الشيطان ووساوسه ، وتدرأ عنها الهوى ، وتصونها من هياج وطيش الغرائز.

بتقوية جناح التقوى تستوى النفس الواحدة ويعتدل معمارها الهندسى ، وترشد حريتها ، وتتحصن من قوى البغى ومن نوازع الشر ، وهذا شأن كل فرد راشد ، وبالعموم يستوى الحق فى المجتمعات وتنمى الفوضى ويعم السلام ، عدا بعض نزعات البغى لأصحاب الهوى وأولياء الشيطان التى تنفلت، على استحياء، حيناً بعد حين ، فما أيسر وأدهم وعزلهم فى مثل هذا المجتمع الآمن.. ولهذا، صارت الحرية الرشيدة من أهم ينباع الحضارة.

هذا هو مفهوم الحرية وتأصيلها فى النفس الإنسانية، فحرية الإنسان فطرة لا تقبل القيد ، وإن كانت تتأبى على القيود إلا أنها متهيئة لى ترشد وتنضبط ولكن بالضوابط الذاتية النابعة من باطن النفس ذاتها لا أن تُفرض عليها من خارجها ، والقول بغير ذلك إنكار لحقيقة الفطرة الإنسانية.

والقرآن الكريم زاخر بالآيات الدالة على الحرية فهى مناط التكليف وفوضى الحساب ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى :

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.. من الآية ٢٥٦ سورة البقرة.
- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾.. من الآية ١٣ سورة السجدة.
- ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.. آية ٢١ سورة الطور.
- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.. آية ١٣ سورة الإسراء.
- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.. آية ٣٨ سورة المدثر.
- ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا﴾.. من الآية ٩٧ سورة النساء.
- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.. آية ٢٩ سورة الكهف.

حتى أن العقيدة والكفر والإيمان بالله سبحانه وتعالى لا إكراه فيه ولا قيد، فمن شاء للإيمان آمن ومن شاء للكفر كفر ، وسيأتي يوم للحساب.

الحق أن الانفلاتات الأمنية والاضطرابات والويلات التي تصيب أى مجتمع تأتى أولاً بسبب الخلل الذى يصيب جناح التقوى فى نفوس أبنائه ، وأن انضباط جناح الحرية لا يتأتى إلا بتقوية وتقويم جناح التقوى بالقلوب ، وهذا هو الدور الأساسى والأعظم الذى يجب أن تقوم به المجتمعات لبناء كل إنسان فيها على أحسن تقويم ، ولضمان الحد الأنسب للسلام الاجتماعى.. والتاريخ يجلى لنا هذه الحقيقة الناصعة نصوع الشمس ، ويبين بجلاء أن ليس أخطر على أى مجتمع من ضعف التقوى بقلوب أبنائه ، حتى أن الدور الأعظم للشرائع

والديانات السماوية يَصُب في هذه الخانة الهامة ، كما وأن الديانات الوضعية هي الأخرى تصب جام اهتمامها في هذه الزاوية ، ورؤاد الفكر الإنسانى كذلك وعلى مدار التاريخ كله كان محور فلسفتهم هو الدعوة إلى إصلاح الفرد أولاً قبل أى إصلاحات أخرى لضمان السلام المجتمعى..ثم بعد هذا الانضباط النفسى الفردى الذى يعم كل أنحاء المجتمع ويفشو فى الغالبية العظمى من أفراده يأتى دور الدساتير والقوانين واللوائح وآية ضوابط وضعية أخرى لمجابهة أى انفلات قد يحدث هنا أو هناك ولسبب أو لآخر..والذى يعتبر دوراً ثانوياً إلى جوار الدور الأعظم لتقوى القلوب -

* * * * *

نطاق الحرية

ما زال الخلاف جارياً بين أهل الفكر حول حقيقة الحرية ونطاقها وضوابطها ، والمؤكد أن هذا الخلاف لن ينتهى ، ذلك لأن كل منهم يبارز الآخرين بسيف فكره ويصعّر الحنك لهم على الرغم من أنه لا يرى من حقيقة الحرية إلا لمحة خاطفة بعين ضيقة تخضع دائماً للثقافة العامة التى ينتمى إليها وتخدم مصالحها، بيد أن الحرية فطرة وممدد إلهى فى النفس ، فكل منا لا يرى منها إلا زاوية لا تسمن ولا تغنى من جوع ، لهذا..فليس لنا إلا التزام الحياد والرجوع لدستور الفطرة (القرآن الكريم) لاستكشاف هذا النبع الأثير من ينباع الفطرة ، ورأيت أن أتناول بالتحليل أول فعل إرادى حُر قام به أبو البشرية (آدم)

عليه السلام لنستخرج منه نطاق الحرية أو بمعنى آخر.. (أطرها وضوابطها) ،
وأول فعل إرادى وحُر ومُسئول قام به الإنسان كان فى التجربة التى شاء الله
أن يجريها على أبنينا الأول "آدم" عليه السلام وزوجه أمنا الأولى "حواء".. فى
الجنة.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ آية ٣٥ سورة البقرة.

فالحرية مُنحت كاملةً لآدم عليه السلام ولزوجه فى الجنة ، ولقد اتسع
نطاقها ليشمل كافة أرجاء الجنة بما فيها من سهول ووديان وجنان وحدائق
غناء وأنهار تجرى فيها ومن تحتها ، يتنقلان ويتحرَّكان ويأكلان رَغَدًا حيث شاءا
، ونُهِيا عن أمر واحد فقط، لا غير، وهو ألا يقربا شجرة واحدة قد عُتِبَتْ لهما
تعيينا لا لبس فيه وإشير إليها بإشارة لا غموض فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
﴾ ، والأمر هنا جاء بعدم الاقتراب وليس بعدم الأكل من الشجرة ، فالقرب
منها ومن ثمارها يُوقظ الشهوة ويُشعلها ، فتدفع بالإنسان للمعصية قبل أن يُعمل
العقل الذى يحتاج إلى ما يتيسر من الوقت للنظر والتدبر والزوية ، ولهذا كان
من عدل الله تعالى ومن فضله ورحمته على البشرية أن شرع لهم التوبة والعفو
والمغفرة ، لأن نزعات الشهوة أحيانا ما تسبق العقل ، والفجور المندفع غالبا
ما يسبق تقواها ، قال تعالى : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ آية ٣٧ سورة البقرة.

فالحرية التي مُنحت لآدم وزوجه في الجنة لم تكن مُقيّدة بقيود ولا مغلولة بأغلال ولا محدودة بمحدود ، فقط..كان لها نطاق وإطار.. فهناك فرق بين أن أقدم لك وليمة طعام زاخرة بمختلف ألوان الأطعمة الشهية وبينها صنف واحد فقط - قد عينته لك - ليس من صالحك أن تأكل منه ، فقد يُعرضك للمرض أو الضرر البالغ ، أو أنه لا يصلح لك لعدة أو لمرض تعاني أنت منه ، وطلبت منك أن تأكل من كافة أصناف الوليمة ما شاء لك ، على أن لا تأكل من الصنف الذي حدّدته وبيّنت لك العلة فيما قد يصيبك من ضرر إن أكلت منه ، فبذلك أكون قد وضعت نطاقاً لتتأخر فيه حريتك بشأن الطعام ، وهذا النطاق مشمول بإطار فاصل بين ما هو مسموح (ابتغاء المصلحة) وبين ما هو ممنوع (درء للضرر) - مجرد إطار لا أكثر - ولن أأخذ أية تدابير لكي أمنعك عن تناول أى صنف من الطعام ، كما وأنى لن أقيد حركتك إذا أردت أنت أن تُقدم عليه وتتناوله ، فهذا شأنك وحدك ولك كامل حريتك وعليك تحمّل المسؤولية ، ثم بعد ذلك لا تُلومَنَّ إلا نفسك ، فقط يلزم مع هذا الإطار بيان بالعلة العقلية الجالبة للقناعة بما قد يصيبك من ضرر لو أكلت من هذا الصنف الذي عينته لك تعييناً لا لبس فيه .

وهناك فرق آخر هو أن أقدم لك الوليمة وأحدّد لك مقداراً معيناً من كل صنف لتأكله ، سواءً أشبّعك هذا المقدار أم لم يُشبّعك ، فتلك هي الحدود ، هي أن تتحرك بحرية لحدود معينه ثم تتوقف حريتك عند منتهى هذه الحدود ولا

تتعداها ، أما القيود فليس لها معنى إلا أن أضع أمامك أصناف الطعام الشهى وأقيد حريتك بأن أربطك بالحبال فلا تستطيع الإقدام عليه ، أو أن أتخذ أية وسيلة قهرية أخرى لأمنعك من أن تأكل منه .

إذن ..هناك فوارق ثلاث بين أطر الحرية التي تعرفنا عليها في الآية الشريفة وبين الحدود والقيود التي لم يكن لهما ثمة وجود (لم تفصح الآية أن حريتهما كانت محدودة ولا مقيدة) ..بل تَعَيَّنَتْ لهما بإطار يبين بوضوح كل ما هو مسموح لهما ألا وهو (كل أنحاء اللجنة) ، ويبين كذلك - وبما لا يدع ثمة مجال للشك - ذلك الشيء المحظور عليهما ألا وهي (الشجرة) .

الإطار أشبه بالطُرق والمسارات التي نحددها للأمن والسلامة مثلها مثل الطرق والمسارات التي نحددها لوسائل النقل سواء للمركبات (على الأرض) أو للمراكب والسفن (في المحيطات والبحار) أو للطائرات (في السماء) فمن يتحرك خلال هذه الأطر فله الحرية المطلقة في نطاق ضوابط موضوعة،أيضا للسلامة والأمن ، أما التحرك خارج هذه الأطر ليس بحرية بل هي الفوضى بعينها .

والفارق بين إطار الحرية وضوابطها هو أن الإطار عبارة عن مبادئ وقيم ومثل عامة نابعة من الفطرة الإنسانية ذاتها لتضمن سلامة الانفعالات الفطرية

، ولا تتغير بتغير الناس ولا المكان أو الزمان ، وتستجيب لنداء الفطرة وُحده، أما الضوابط فهي مجموعة القواعد الوضعية المتفق عليها والمُرضية للجماعة أو الأمة والتي من شأنها أن تحقق المصالح أو تدرأ المفاسد أو تضمن السلام والأمن للجميع في ممارستهم لحريتهم ، وهي بذلك متغيرة بحسب تغير المكان والزمان والناس في المجتمع.

ومثل إطار الحرية أن نشق طريقا في صحراء شاسعة جرداء ليوصل بين مدينتين ، فإذا ما أردت الذهاب بسيارتك من إحداها إلى الأخرى فما عليك إلا أن تسلك هذا الطريق الذى لا بديل عنه (فهذا هو الإطار) ، والخروج من هذا الإطار لا يعنى إلا الولوج في متاهة غير مأمونة لا نهاية لها ، وسيحيطك الخطر من كل جانب ، ولكن تحركك في هذا الطريق سيكون من خلال ضوابط موضوعة بأسلوب علمى ومنطقى ومقنع من أجل المصالح العامة والسلامة والأمن ، منها تعيين سرعة قصوى تضمن الأمن لك ولغيرك من مستخدمي الطريق ، وينبغى عليك أن لا تتجاوز هذه السرعة ، كما ينبغى أن لاتستعمل آلة التنبيه في مناطق معينة من الطريق إذا ما وُجد بها مستشفيات أو مراكز علاج وإسعاف، وعليك تهدئة السرعة في أماكن أخرى قد تكون أهلة بالسكان أو العمال أو الرعاة ، وأن يشار إليك للانتظار بعض الوقت لحين مرور قطار في مساره المتعامد على الطريق الذى تسلكه.. وهكذا (تلك هي الضوابط).

فالأطر ماهى إلا التخطيط - بحسب توجهات الفطرة - ورسم المسارات لحريتنا ، وهى ثابتة على الدوام لأنها تنبع من الفطرة ولمصلحتها ، وأما الضوابط فهى وضع القواعد التنظيمية لأسلوب وطريقة ممارسة الحرية ، لذا، فهى تختلف باختلاف المجتمعات ، كما قد تختلف فى المجتمع الواحد بين حقبة زمنية وأخرى.

وفى هذا السياق يقول الكاتب الكبير / الدكتور مصطفى محمود فى كتابه: (القرآن ، محاولة لفهم عصرى) .. ” إن الإنسان يعيش مضطرباً بين عالمين ، عالم إرادته الحرة بداخله ، وعالم المادة حوله الراسف المغلول فى القوانين ، وسبيله الوحيد إلى فعلٍ حر هو معرفة هذه القوانين والفتنة إلى إستغلالها بالوافق معها ، وهو دائماً أمرٌ ممكن ، ولهذا فالحرية حقيقة لاتنفىها المقاومات والظروف الخارجية ، بل إن هذه المقاومات تؤكد الحرية ، فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها فى الخارج إلا بوجود عقبات ترحزها وتتغلب عليها ، إنها تكشف عن مدلولها من خلال صراع وبدون هذا الصراع لايقوم لها معنى ، والضوابط الخلقية والقوانين الإجتماعية لا تُنفى الحرية وإنما هى أشبه بعلامات المرور ، وُضعت لتنظيم المرور وتفسح أكبر حرية للكل ، وأنت حينما تُقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لاعبداً لغريزتك ، أما حرية القمار والسكر والعردة والمخدرات والتبذل الجنسى فهى ليست حريات وإنما درجات من الإنتحار وإهدار الحياة وبالتالي إهدار للحرية... ويضيف : ” أن كل إختيار ضد الحياة لا يكون إختياراً فالسباحة مع

التيار وليس ضده تزيدنا حرية وبتلك الحرية التي منحها الله للإنسان وقبلها مختاراً تُوجب المسؤولية والمحاسبة ”.

وخلاصة القول هو أن هناك فارق بين قيد الحرية في أن تُكَبَّل على الإطلاق وُثْمَنَ عنك - جَبْرًا - وبين حدود الحرية في أن يُسَمَح لك فيها بقدر معين ثم يحدُّ لك حداً ما يجب أن تتخطاه ، وبين الأطر التي تبين مسارات حريتك لتمارسها في نطاق الضوابط التنظيمية المُرضية للجميع ، فالحرية تتأبى على القيود وتتمرد على الحدود وترضى بالأطر وتتقبل الضوابط عن قناعة عقلية.

* * * * *

أركان الحرية

وبعد أن اقتربنا كثيراً من غرسة الحرية في حنايا النفس للدرجة التي استطعنا معها أن نتعرف على أطرها وضوابطها بقي أن نتراجع عن هذه الغرسة قليلاً ونعود لنعاين هيئة الحرية من قريب ونتعرف على أركانها التي يمكن أن نُقيِّم لها كياناً وتمنحها وجوداً مؤثراً وفعّالاً إذا ما توافرت لها جميع هذه الأركان.

والمقصود بالأركان: تلك القواعد التي تُشكِّل كيان الحرية أو هيكلها، وبمعنى آخر هي السبيكة التي لا تقوم الحرية إلا من خلالها بحيث تبدو جلية لا

غموض فيه ولا التباس ، شريطة أن تتحقق الأركان جميعها ، فلا وجود للحرية في غيبة أى منها .

ولكى نتعرف على أركان الحرية ، نعود للآية الشريفة التى نحن بصدددها.. ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ . ٣٥ البقرة ، فالحق : أن قصة خلق آدم وحياته فى الجنة، قبل نزوله الأرض، فيها كل التجارب والخبرات التى أورثها الله سبحانه وتعالى الفطرة الإنسانية ، ومنها تجربة الحرية وخبرتها التى توارثناها جميعاً .

بإمعان النظر فى الآية الشريفة يتجلى لنا تلك الأركان التى تقوم عليها الحرية والتى تضيف عليها خصائصها ، وفى غيبة أى من هذه الأركان تنمحي تلك الخصائص ولا يصير للحرية ثمة معنى أو وجود ، ويمكن إيجاز هذه الأركان فى أمور أربع لا تتحقق الحرية إلا باكتمالها جميعاً : أولها إكتمال العقل لمن يقوم بالأفعال الحرة ، وثانيها : تعيين النطاق الذى تمارس فيه الحرية ، وثالثها : الاقتناع بما يكلف به الفرد من أعمال ، ورابعها المسؤولية عن الأفعال الحرة مع بيان العقبي من انتهاكها ، وسنبين كل منها بقدر من التفصيل إسترشادا بالآية الشريفة من سورة البقرة .

الركن الأول: الإرادة العقلية.

فأول أركان الحرية هو أن يكون القائم بها يتمتع بكامل العقل ، فكل من لا عقل له كالأبله والمجنون فلا حرية لهم قبل مجتمعاتهم ، فهم غير مسئولين عن تصرفاتهم وأفعالهم ، وكذلك ، كل من لم يكتمل فيه العقل مثل الطفل الذى هو فى مرحلة التنشئة وحتى يبلغ أشده ، فما زالت غرسة الحرية عنده غير مكتملة ، لهذا يجب أن تظل تصرفاته تحت المراقبة لتقويم حريته تباعا بالتربية، وإلى أن يكتمل عقله ، وكذلك، فكل خلل قد يصيب العقل كتأثير المخدرات والمسكرات والوهم والحيلة تخرج صاحبها عن نطاق الحرية..وبالنظر للآية الشريفة سنرى فيها إشارة لطيفة مفادها أن لا حرية إلا لكل من اكتمل عقله ، ذاك نراه جليا فى أداة النداء فى أول الآية مع ذكر اسم المنادى بعدها: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ ، فذكر اسم المنادى عقب أداة النداء تعنى أن المنادى يتمتع بالعقل المكتمل، وأن ما سيلي النداء من تكليف فإنما يعنى أنه سيستوعب ما هو مطلوب منه أدائه ، وأنه سيعى ويفهم كل ما سيكلف به من أعمال ، هذا فضلا عن أنه يتمتع بإرادة حرة وسيتحمل تبعه أفعاله ، أى أنه ذو عقل مكتمل لا تشوبه شائبة ، أما الإرادة ففراها فى التعبير: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، وهو تعبير بلاغى معجز مفاده أنهما يتمتعان بمطلق الإرادة والحرية فى التجول فى الجنة ، ولهما أن يتخذانه سكنا وأن يأكلا منها بمطلق الحرية ، فلا حجر ولا قيد ولا أغلال على إرادتهما..فقط

عليهما ألا يقربا الشجرة التى تعينت لهما، لكن إرادتهما ليست مغلوطة بشيء سوى الامتنال بالطاعة للأمر.

فأول أركان الحرية هى أن يتمتع بها كل عاقل ذو إرادة غير مغلوطة.

الركن الثانى: نطاق الحرية

ونقصد بالنطاق ذلك الإطار الخارجى المتسع جدا ، والذى يتمتع فيه كل عاقل بالحرية الكاملة ، فيتحرك من خلاله بإرادته الحرة دون تعيين للأعمال المنوط به أداؤها على سبيل الحصر ، ليس هذا فحسب بل يلزم مع ذلك،التحديد الدقيق الذى لا مجال فيه للشك لكل الأعمال والتصرفات والسلوكيات المحظورة والمنهى عنها فيما يلزم عليه أن لا يُقدم على الإتيان بها ، فليس من المقبول أن يتمتع بالحرية من يريد القيام بأعمال من شأنها أن تحدث الضرر أو أن تناقض الفطرة أو تنتهك الأعراف أو تخرج عن مكارم الأخلاق أو تتجاوز ما يشرعه الدين بشأن المعاملات ، ففي الآية الشريفة نجد أن المولى سبحانه وتعالى قال لآدم: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أى يتخذان من كل أرجاء الجنة وكل أنحاء سكنا ومأوى ، وأن يأكلان منها ما تشتهى نفسيهما حيثما شاءا وأنى شاءا ، وجميع هذه الأعمال تلبى نداء الفطرة فضلا عن أنها تُصلح من شأن النفس ، إلا أن الملاحظ هو أنها لم تأتى على سبيل الحصر وإنما جاءت فى نطاق إطار واسع جدا ، وما عليهما إلا أن يتحركا من خلاله بمطلق الحرية ، وانظر إلى التعبير القرآنى البديع فى

قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فهى ثلاث أطر واسعة ليس فيها تعيين أفعال على سبيل الحصر ، بل فيها إطلاق حرية التحرك والإقامة فى كافة أرجاء الجنة وحرية الإطعام منها حيث شاء ومتى شاء.. أمّا ما هو محظور عليهما فقد تم تعيينه تعيينا دقيقا بما لا يدع أى مجال للشك ، وعرفه آدم معرفة يقينية لا تقبل الظن أو الاحتمال، وذلك بالمشاهدة والمعاينة كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ففى الآية الشريفة النهى القاطع بحرف النهى (لا) وفيها تحديد دقيق لما هو منهى عنه وذلك بإسم الإشارة للقريب (هَذِهِ) فآدم لم يكن بعيدا عن موضع الشجرة التى أحاطها بالرؤية وبالنظر وعينها معاينة نافية للجهالة بحسب رأى الحقوقيين وأهل القانون ، فلا إنكار بعدها ولا احتمال للظن.

والجدير بالذكر أنه إذا ما تبدّل الوضع وصار الإطار المتسع للأعمال المحظورة والإطار الضيق للأعمال التى يمكن ممارستها دون ضوابط لا تقلب الحال ولاستحالت الحرية إلى سخرة وعبودية ، وبمنظرة يسيرة على التاريخ الإنسانى سيتجلى لنا ذلك فى العهود التى عانت منها الإنسانية من مظالم الرق والعبودية.

نعود لنطاق الحرية الرشيدة، فهذا النطاق (بما هو مسموح وما هو ممنوع) قد تدّرّع بضابط فطرى قويم يضمن عدم الانزلاق فى الفعل المحظور ، وذلك بعدم تحفيز غريزة الشهوة ، فهى غريزة جامحة ولها عنفوانها وبطشها، إذا ما

أثيرت! ، لذا جاء الأمر بالنهاى عن عدم الاقتراب من الشجرة لأن فى القرب منها مدعاة لإثارة شهوة البطن ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾ ، فالقرب من الشجرة ومعينة ثمارها أو شم رائحتها يوقظ شهوة البطن العنيفة التى قد تُثُلّ العقل بعضا من الوقت فلا يتهيا لها قبل اندفاعها ، فالإخلال بهذا الضابط انتهاك للحرية الممنوحة وتحفيز لأن يوشك المرء بالوقوع فيما هو محظور عليه.

هذا ما يتجلى لنا من الآية الشريفة عن نطاق الحرية الذى يبدو أنه على اتساع غير محدود بما يسمح بقدر متعاضم لممارسة الحرية وإعمال الإرادة الذاتية ، بيد أنه مشمول بضوابط محدودة للغاية بحيث لا تعصف بمبدأ الحرية ذاته ولا تحلّ إخلالا جسيما به ، فإذا ما طرحنا مثل هذا الأمر على الواقع وفى دوائر العمل خاصة ، فيجب أن يتسع هذا النطاق لممارسة أكبر قدر من الحرية المسؤولة ، فذاك أدعى لأن يؤدى كل فرد عمّله بالإتقان المطلوب بل وصياغته بالبراعة والابتكار والتجديد ، فالإنسان المُكَلَّف بأداء أى عمل ليس بآلة صماء لكنه كتلة من الأحاسيس والمشاعر ، وسيتعرض حتما لأُمور متجددة لم تكن فى الحسبان وقت وضع اللوائح ، لذا..يجب أن تتاح له الحرية المناسبة لمواجهةها بتصرف نابع من ذاته ومن حساباته هو ، دون تدخل حثيث من المستويات الإشرافية سوى فى الإطار الإرشادى دون الإلزامى..بذلك يمكنه أن يمارس العمل برغبة أكيدة وبالتفاعل الوجدانى اللازم لأن يصيغ عمله بأساليب ابتكارية متجددة ، فكل فرد له ذاتية تختلف عن غيره وله رؤية تنبثق من

وجدانه ، بهذه الذاتية وبتلك الرؤية الخاصة يتحقق الابتكار وتتخلق البراعة إذا ما تهيأت لها فرصة الحرية الرشيدة ، وبمجمل هذه الابتكارات في مختلف الأنشطة، تنبعث في دوائر العمل الروح الابتكارية المتجددة ، ويدب فيها النشاط وتذوق طعم النجاح تلو النجاح ، وبعموم هذه الروح على مستوى الأمة - إجمالاً - تتولد في أفرادها عزائم الرقي والتقدم.

وهذا ما نراه جلياً في الدول المتقدمة التي ينحو فيها علم الإدارة هذا المنحى ، فيما يسمح بمساحة موائمة للحرية في دوائر العمل، مع متابعة النتائج إحصائياً ومرحلياً وتسجيل مدى ما يتحقق من الأهداف تبعاً ، لكن من بُعد ، أما إذا تدخلنا بوضع العديد من الضوابط الخانقة، سواء في هيئة قوانين ولوائح متتابعة أو نظم وتعليمات وأوامر مَكْبِتة ومتلاحقة فضلاً عن المتابعة الفوقية الحثيثة لكافة التفاصيل الدقيقة لحظة بلحظة وبداعٍ أو دون داعٍ، فهي تُشكل حلقات متوالية من القيود الصارمة التي تعصف بالحرية وتحيلها إلى سُخْرَةٍ ، وسيجد كل فرد نفسه محاصراً بِحَيِّزٍ محدود تضيق به نفسه ، فيما لا يستطيع معه التجديد ولا الإجابة ، ولن ننتظر منه إتقاناً ولا ابتكاراً ولا براعة.. بل هو أدعى لتفشي الأهمال والخطأ وربما التمرد ، وبالجملة يشيع الركود ويتفشى التخبط والصراع في دوائر العمل!.

الركن الثالث: القناعة العقلية

كما ذكرنا من قبل ليس لغير العاقل تحمّل تبعة الحرية ، فالعقل هو الذى يقود الإرادة وَيَسْتَجْمَع العزم فى مضمارها ، لذا فمن العدالة والإنصاف أن يُزود كل إنسان بالقناعة العقلية فى شأن العمل الذى يمارسه ، بهذه القناعة ترشّد الإرادة وتصلح لمواكبة الحرية الرشيدة ، ما لم يتغلب هوى النفس أو ينزغ الشيطان بالغواية ، فإذا ما عدنا للآية الشريفة نجد القناعة العقلية فى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.. فبعد الأمر بالنهى بعدم القرب من الشجرة أعقبه تعليل عقلى يبين بجلاء سبب النهى وهو أن لا يتعرضوا لأمر يكون فيه من الظالمين ، فيقعان فى دائرة غضب الله ، هذا التعليل العقلى من شأنه أن يقوى جناح التقوى فى نفسيهما (آدم وحواء) ، إلا أن الزلل قد وقع بفعل الشيطان.

والقناعة العقلية لها أثرها البالغ فى إحساس المرء بالحرية ، فليس للحرية جدوى دون الإحساس والشعور بها ، فقد أُكْلِفَ بعمل أشعر معه بحريتي الكاملة فأؤديه بغاية الإتقان وأبذل فى شأنه كل الجهد ، وأُكْلِفَ بنفس العمل فأمارسه وأنا أشعر بأن من كلفنى يبنى من ورائه استعبادى أو أنه يمارس معى لونا من ألوان القهر ، ولن يكون أدائى له إلا كَرْها.. وما أصعبها على النفس ، والفارق بين الحالين هو القناعة بالعمل الذى أقوم به وبأهميته وفائدته العامة قبل فائدته التى تعود لى ، فكما كان العمل يعود بفائدة عامة كلما كان أجدى لمن

يقوم به فيمارسه بغاية الجد والنشاط والإتقان ، فعلى سبيل المثال لو أن أحداً من الناس كلف آخر بحفر حفرة كبيرة وعميقة للدرجة التي يقضى فيها معظم يومه ويبدل فيها الكثير من الجهد والمشقة والعناء ، وبعد أن يتم عمله يُطلب منه أن يقوم بردها قبل الانصراف على أن يعود في اليوم التالي ليحفر أخرى في مكان آخر ، فالمؤكد أنه لن يحضر ثانية مهما تقاضى من أجر لشعوره بالقر والغضب والإحباط ، في حين لو علم بأهمية العمل الذي يقوم به وبفائدته على القرية التي يقطن بها والتي تعاني لعدة أيام من نقص شديد في مياه الشرب الأمر الذي أصاب أهلها بأشد البلاء ، وأن ما يؤديه من عمل ليس إلا لغرض البحث عن الماسورة الرئيسية التي تغذى البلدة بالمياه تمهيدا لإصلاح العطل ، لقام بعمله بغاية الرضى والإتقان ، وربما لن ينصرف قبل إصلاح العطل دون النظر للأجر الذي سيتقاضاه من عمله ، بل وقد يستدعى البعض من ذويهِ لمشاركته في هذا الجهاد وبلا أجر.. الأمر يرجع في الحالين للقناعة العقلية ، فهي التي تميز العمل الحُر عن غيره من الأعمال ، وتوقد فيمن يقوم به جذوة الحرارة وتدفعه للمضى به قدما.. لهذا، فإنني أستطيع القول بأن القناعة العقلية لأعمالنا المنضبطة هي أهم أركان الحرية.. بل هي ذروة سنامها.

والاقتناع بطبيعة ومآل العمل هو جوهر كل الأعمال التي فيها تكليف ، بصرف النظر عما إذا كان المكلف مجبولا على آدائه أو أنه يتمتع بمطلق الحرية ، ذلك لأن القناعة هي التي تُهيء هذا المكلف لأن يجتد كل طاقاته في بذل غاية

الجهد وغاية الإتقان ومنتهى البراعة فى شأن العمل الذى يتولى أمره ، وقرأ فى قول الله تعالى من سورة البقرة كيف تمنى الملائكة الوصول لأعلى درجات الاقتناع حينما أخبرهم المولى عزَّ وجلَّ بأنه (سبحانه) جاعلاً فى الأرض خليفة ، بأن سألوا ربهم الأعلى عن طبيعة هذا الخليفة الجديد الذى سيجعله الله فى الأرض ، والمُلفت هو أن الملائكة خلق مجبولون على الطاعة التامة ويفعلون ما يؤمرون دون سؤال أو استفسار ودون نقاش ، إلا أن الله تعالى شاء أن يلفتنا إلى ذلك لنستقى منه العبرة ، ولنعرِّف أن الملائكة لم تسأل إلا من باب استيضاح الأمر - لنا على الأقل - الذى سيجلب معه القناعة اللازمة لإتقان العمل ، ولنتعرف - نحن البشر- على تلك القاعدة الراسخة لنحذو حذوها.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ آية 30 سورة البقرة ..والله تعالى محيط بكل شىء ويعلم السر وما أخفى وفى علمه تعالى ماذا سيكون رد فعل الملائكة حينما يخبرهم بأمر خليفته الجديد فى الأرض ، لكن الأحداث جاءت على هذه الوتيرة لنستقى منها العبرة ونستخرج منها تلك القاعدة الراسخة لتحقيق أقصى عائد من أعمالنا فى حياتنا الدنيا.

فالقناعة تجلب معها الرغبة والإقبال على العمل ، وتؤدِّد فى النفس قدراً من الطاقة يتساوى مع ثقل المهمة المطلوب آداؤها ، هى أذن تخضع لقواعد العدالة.

والظلم ..كل الظلم هو أن نكلف أحداً بأداء عمل دون أن نغرس فيه القناعة المطلوبة لأدائه ، فلقد صَيَّرناه بذلك عبداً مَسْخَرًا وليس إنساناً حُرّاً.

الركن الرابع: المسؤولية.

بتوافر الأركان الثلاث السابقة وهي إكمال العقل وتعيين نطاق الحرية والقناعة العقلية فلن تكتمل الحرية إلا لمن كان مستحقاً لتحمل المسؤولية عنها ، وهذا أمر يخضع للقواعد المنطقية ولا يحتاج إلى عناء بحث ، فكيف يتسنى منح الحرية دون مساءلة ، ودون الإشارة إلى الجزء الذى سيوقع على كل من تسوغ له نفسه انتهاكها ، فالحرية أمانة لا يحظى بها إلا كل من كان أميناً على تحمل مسؤوليتها.

والمسؤولية تقتضى تعيين الجزء تعييناً جلياً يَبِينُ لا غموض فيه ، ولهذا يتخذ فقهاء القانون تلك القاعدة كأساس راسخ فى سن القوانين .

وبالرجوع للآية الشريفة التى نحن بصددنا نجد أن المولى سبحانه وتعالى وبعد أن حذر آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة المنهى عنها بيّن لهما العُقْبى إذا ما انتهكا هذا الأمر الجَلِىّ فبادرهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى إذا خالفا هذا الأمر فسيصيرا من الظالمين ويستحقا غضب الله..(ما لم يصدر أمر العفو عنهما)..بيد أنهما قد خالفا الأمر..وتلّقى آدم من ربه كلماتٍ

فتاب عليه :﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ آية ٣٧ البقرة.

تلك هى الأركان الأربعة التى يجب أن تتوافر جميعها لتحقيق الحرية ، فلا وجود للحرية مع غيبة العقل أو مع غيبة النطاق الذى نمارس الحرية من خلاله ، وكذا فلا حرية دون قناعة عقلية ودون مسئولية .

ومع اكتمال هذه الأركان لم يتبقى إلا وضع التدابير لمساءلة وردع كل من تسول له نفسه أن ينتهك هذه الهيئة المحكمة للحرية.

* * * * *

مَبَالِغُ الْهَرِيَّةِ

ليس من الحكمة أن نضع للحرية كافة الآليات الحمايية حتى نطلق عنانها لأقصى مدى ، وليس من الحكمة كذلك أن ننظر لها - بمثل نظرة الغرب - باعتبارها الغاية الأسمى وذروة المقاصد ، ومن الخطأ أن نُجَدِّد الحرية لتحقيق لنا مصالح لحظية قاصرة دون النظر للمصلحة الإنسانية العامة ، فالحرية ليست غاية فى ذاتها ، بل هى مَطِيَّةٌ مُطَهمة قد منحها الله للفطرة لتنتقل بها الإنسانية نحو غاياتها المنشودة ، بيد أننا إن تركناها لتندفع بنا على جناح الهوى والغرائز لصارت منفلة جامحة ولن تُودى بنا إلَّا إلى المهالك ، ولن نُحقق لنا مصالح

تذكر، اللهم إلا منافع وقتية لا قيمة لها، ولن تدوم ، ومسئوليتنا أن نروض الحرية على الدوام وأن نضع لها من الشكائم الضابطة ما يجعلها تتخذ لمسيرتها صراطا مستقيما ومأمونا ، والمجال الذى نقصده للحرية الإنسانية، فى مجملها، هو ذلك السبيل الذى يحقق صالح الإنسانية قاطبة ، وبمعنى آخر: هو ذلك المضمار الذى ينبغى للإنفعالات الإنسانية أن تسلكه للوصول إلى غاية الوجود فى الحياة الدنيا.. وأقصى ما تأمله الإنسانية من وجودها هو تحقيق السلام والرقى والسعادة فى الحياة الدنيا مع الفوز برضوان الله فى عالم الآخرة ، فإن استمسكت الحرية بهذا المضمار لصارت على أتم رُشدها وستصل بنا إلى سعادة الدارين بإذن الله ، إما حين تنتهك هذا المجال وحين تتجاوزه أو تزلّ عنه لاستحالت إلى فوضى عارمة .

مجال الحرية إذن، هو مآلها ومسارها الراشد.. ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا بأن مجال الحرية الرشيدة هو دعوة كل أنبياء الله ورسله (عليهم جميعا سلام الله) .

وظنى ابتداءً، أننا نتفق الآن على أنه من الصعب، بل ومن العسير أن نُحدّد للحرية الإنسانية حدود تحول دون انطلاقها ولا أن نُقيّد بالقيود فتقيدها ونُشلّها ، بل هى أشبه بالنهر الذى ينساب فى حماية (ضفتيه) ، فالخالق سبحانه وتعالى قد هيا للحرية مثل هذين الإطارين لتنساب بينهما رشيدة منصبطة كما حال النهر الجارى، هذين الإطارين هما جناحا الحرية التى تنطلق بهما فى

الآفاق الرحبة صوب السكينة والرقى والسلام ، وإنهما لركيزتين من الركائز الراسخة في الفطرة الإنسانية ، ومنبثقتان من الطبيعة المزدوجة للإنسان (قلبه - وقاله) ، والنفس الإنسانية مهيأة فطرياً لأن تنفعل بهما طوعاً دون كره.

فأما الأول منهما فهو النزوع الإيماني الذي يأتي من قبس النور الساكن في قلب كل إنسان ، والذي يفيض بالرحمة والحق والجمال ، ويتعلق بالشوق والحنين للخالق الكريم سبحانه وتعالى .ويمكن أن نسميه (إطار الإيمان) .

وأما الثاني فهو: إصلاح ذات النفس وإصلاح حال الدنيا ، وذلك بتمكين القلب المادى من عالم الدنيا بحق التمكن ، ودون إفراط أو تفريط ، فقلوب الإنسان وغرائزه قد جعل الله لها مَيْلاً وانجذاباً فطرياً نحو زينة الحياة ، والنفس تنزع بطبيعتها للتشبث بعالم الدنيا ولتوثيق العرى به ، ذلك لأن الله تعالى قد خلق الإنسان من طين الأرض وفرض عليه استعمارها بصالح الأعمال ، وقد تهيأت فطرته لهذه المهمة المقدسة ، ومُنِحَ من غرر الفطرة وغرائسها ما يَمَكِّنُه من أداء هذا التكلف بحق الأداء.. ويمكن تسمية هذا الإطار الثاني (بإطار الإصلاح) .

فهذين هما إطارى الحرية ، فإن استطعنا تزكية هذين النزوعين بنفوس أبناء الأمة فقد شَيَّدنا بذلك تلك الصفتين المحكمتين (صفة الإيمان وصفة الإصلاح

(، لتنسب بينهما الحرية الإنسانية وانفعالاتها في سلام وأمان ، عدا ما قد يتسرب منها بفعل الزلل والهوى والغواية ، فيما يمكن معالجته تبعاً بأقل الجهد.

وقد أكدت الآيات القرآنية الشريفة على تلك الغايتين ، حيث مهد الله لهما الفطرة الإنسانية ليتسنى لهما أن تعملوا في إطارها بكامل الحرية دونما إجبار أو قهر.

• قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ آية ٥٦ سورة الذاريات..فتلك غاية الوجود الإنساني الأولى بالنزوع إلى الخالق الكريم سبحانه وتعالى ، وعبادته وحده لا شريك له طوعاً وبالإرادة الحرة دون جبر أو قهر أو إرغام.

• وقال تعالى : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّحِيبٌ﴾ آية ٦١ سورة هود...فتلك غاية الوجود الثانية للإنسانية في أن لا تفسد في الأرض وأن تبذل ما في وسعها لتعميرها بالخير وبصالح الأعمال ، وبالسكينة والسلام.

وبذلك، فجمال الحرية مركوز في الفطرة الإنسانية ونابع منها ، بل هو فريضة إلهية ربما ترتقى لدرجة العبادة ، وهو من صنعة الله وليس من صنع البشر أنفسهم ، فأى انفعال يأتي في نطاق هذين الإطارين فهو في مساره المنضبط الموصول لسعادة الدارين ، أما الانفعالات الإنسانية التي تقع خارج هذا المجال

فلا تُعد أفعالاً حرة بل هي سلوكيات منفلة وطائشة لا تثمر إلا الفوضى ،
وأى جارحة تنتهك هذين الإطارين أوتنبش فيهما أو تخدشهما فإنما هي فعل
متمرد على الفطرة وعلى المسيرة الإنسانية ويخل إخلالاً جسيماً بها، فانتهاك
إطار الإيمان يفسد الفطرة ويعطب القلوب وتضطرب معه أحوال الناس ،
وانتهاك إطار الإصلاح يفسد النفس والبيئة ويحيلهما إلى خراب ، وتستحيل
الحياة بذلك إلى فوضى وارتباك وصراع، لا ينقطع إلا بإعادة الحرية إلى إطارها
ومضارها من جديد.

والإنسانية جميعها منوطة بتحقيق غايتي وجودها الدنيوى (الإيمان /
والعمل الصالح) ، ذلك لأن الله تعالى قد أعدّ الفطرة إعداداً بديعاً وهياًها
لذلك ، فغايتي الوجود ليسا ضابطى حرية كل فرد إنسانى فحسب بل هما ضابطى
الانفعالات الإنسانية فى مجملها ، ويكُونان معاً المجال الأمثل لمسار الحركة
الإنسانية جميعها ، أحدهما يصون القلب ويحفظ تعلقه بالخالق ، والآخر يؤكد
الصلة الحميمة للقلب مع الكون ومع الناس.. بهذا التوازن النفسى يتحقق
للحرية الفردية رشدها ، وتجلب معها السلام والأمن للمجتمعات ، ويتوحد
معها الناس فى غاية مشتركة وهدف واحد مأمول كأنهم فى سبيكة واحدة أو
أنهم فى جسد واحد يشد بعضه بعضاً.. فهنيئاً لأى أمة تسهر على صيانة هذين
الإطارين القوميين.

فذلكما هما الإطاران اللذان يصنعان المجال الأمثل للحرية..وهما ليسا متباعدين ولا يوجد بينهما فاصل كما حال شاطئى النهر ، ولكنهما متصافرين ومتعاضدين ويؤثر كل منهما فى الآخر ، فلا يستقيم إيمان إلا بصالح العمل ، ولا يصدر العمل الصالح إلا من قلب سليم زاخر بالإيمان ، ولهذا..قد اقترن الإيمان بالعمل الصالح فى إحدى وستون آية فى القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وآيات أخرى كثيرة .. بهذين الإطارين تُؤمّن الحرية وتؤمن المسيرة الإنسانية وتبنى الحضارات ، وإنهما لفى حاجة إلى صيانة وحراسة دائمة دون فتور أو كلل ، فهما الجسرين الحاميين لمجرى الحرية الرشيدة لأى أمة ، وأى ضعف أو اهتراء فى أى منهما ليس من ورائه إلا سيل مُثْقَلَت من الفوضى العارمة ، وكلما توحدت المجتمعات وسهرت على صيانة هذين الإطارين كلما ازدهرت حضارتها واشتدت قوتها وارتفع بناءها وضمنت استمرارها.

والمتتبع للحضارات الإنسانية على امتداد التاريخ الإنسانى يرى أن العقيدة الدينية أو الأخلاقية كانت من أهم عوامل قيام الحضارة واستمرارها ، ذلك لأن ثبات الإيمان فى القلوب يشكل القاعدة السليمة للأعمال الصالحة ، مثلما نرى فى الحضارة المصرية القديمة ، فقد فطن المصريون القدماء للحياة الأخرى بعد الموت والتى سيحاسب فيها الجميع عن أعمالهم فى الدنيا ، وفطنوا كذلك، بأن للكون إله عادل حكيم وحسيب ، وقاد فيهم إخناتون عقيدة التوحيد..والحضارة الفارسية كذلك،ظهرت فيها العقائد الدينية القريبة من عقيدة التوحيد والمتمثلة

فى تعاليم زرادشت ، وفى الحضارة الهندية ظهرت الديانة البوذية وإن لم ترقى لعقيدة التوحيد لكنها غرست الأخلاق فى النفوس ، وقد امتدت هذه الديانة إلى الحضارة الصينية وتغلبت على الديانة الدوية لزمن غير قصير ، وكذلك ظهرت التعاليم الأخلاقية القريبة من الدين فى كل الحضارات ، وكلما كانت هذه التعاليم أقرب لعقيدة التوحيد والإيمان بيوم الحساب بعد الموت لمجازاة الصالحين بالنعيم والقصاص من المفسدين بالعذاب ، كان ذلك أجدى فى تقويم سلوكيات البشر وتقليم الشر من النفوس ، وكانت أقوم للحرية ، فكل ذلك يشكل سداً حائلاً للحرية الطائشة والسلوكيات الفاسدة ، ولهذا نجد أن علماء التاريخ والحضارة اتفقوا جميعاً على أن العقيدة الدينية والأخلاقية كانت دائماً من أهم عوامل بناء الحضارة على مر التاريخ بل وكانت من أهم دعائم استمرارها.

فإطارى الحرية إذا صيغاً من إزكاء الإيمان والعمل الصالح بنفوس أبناء الأمة فيشكلان معاً ذلك المجال المثالى والراشد والضامن لتقويم الحرية فى الأمة ، ومثلهما فى ذلك مثل شاطئى النهر القويمين وهما يحتضنان ويضبطان ويطوعان مسار المياه المتدفقة فيه حتى تصل لغاياتها ، فلا تسيل مندفة نحو الوادى لتدمر كل شئ يقابلها فتحيل العمار إلى خراب ، وبالمثل ف مجال الحرية القويم يضمن تجميع وتوحيد وترشيد الحريات الفردية فى المجتمعات لتصب جميعها فى الهدف الذى يحقق المصالح العامة والغايات المشتركة نحو بلوغ التقدم والرقى المنشود.

والواجب على الناس جميعاً في كل أمة أن يسهروا على حماية هذا المجال الأمثل للحرية بأن يصونوا ويدعموا إطاره القوميين دون فتور أو كَلَل ، وأن يفعوا لنجدته كلما أصابته النوائب بمثل ما كان يفعل المصريين القدماء حينما كانوا يفعون على قلب رجل واحد لحماية شاطئ النيل إذا ألمَّ به خطر الفيضان.

* * * * *

رَوَافِدُ الْحُرِّيَّةِ

ذكرنا أن مجال الحرية أشبه بالنهر الجارى فى حماية ضفتيه ، وبإمكاننا أن نُشَيِّدَ هاتين الضفتين بغرس الإيمان بالنفوس وبدفع الناس للعمل الصالح ، فهما الضامنان لتأمين الحرية من الانفلات الأهوج والطائش ، بيد أن الإنسان محاط بعوامل الشر من كل جانب (هوى النفس - وساوس الشيطان - زينة الحياة الدنيا - الغرائز الناهمة .. إلخ) ولا بد حتماً من تسربات للحرية خارج مجراها المرسوم ، ولكن مع السهر الدائم على تدعيم إطارى الحرية نضمن الحد الأنسب للسلام فى المجتمعات الإنسانية ، وبذلك تستقيم الحياة على وجه الأرض كما أراد الله تعالى.. والنهر الجارى الذى شبهنا مجال الحرية به ينطلق من منابع وبحيرات واسعة تمتد بالمياه من خلال روافد تتصل به ، كذلك الحرية لها منابع وروافد.. فأما منابعها فإنما هى منابع الفطرة الإنسانية ، وأما وروافدها فهى أشبه بمسارات

قد رُسِمَتْ لها بعناية الخالق الكريم سبحانه وتعالى لترشيد شتى الانفعالات الإنسانية ، وبمعنى أوضح : لضمان عدم انفلات الحرية تجاه المفسد والشرور ، ومثلها في ذلك مثل روافد النهر المتصلة بمنبعه ، فهي تبدأ من حيث المنبع ثم تأخذ مساراتها ما شاءت وفي النهاية تلتقى بالمجرى وتصب في النهر.

ولكن ما هي روافد الحرية الرشيدة التي نضمن بها انسياب الإرادة الإنسانية في هذا المجرى المصون ؟ ، وللإجابة عن سؤالنا هذا يجب علينا الرجوع إلى الفطرة ، فهي نبع الحرية وهي النبع الأثير لأى فكر إنسانى رشيد ، كما يجب الرجوع إلى دستور الفطرة ” القرآن الكريم “: ﴿كِتَابٌ أُزْلِنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. آية 2 سورة ص .. لنبحث عن تلك الروافد التي تسمح بممارسة الحرية في رشد وانضباط دون قيد ودون مغالاة.. والحق أننا نستطيع أن نوجزها في ثلاث روافد ، هي تلك المسالك التي تندرج فيها كافة تصرفات وسلوكيات وأفعال البشر ، وجميعها مستقى من المنابع الأثيرة للفطرة الإنسانية :

- الرافد الأول : ينبع من رُوح الفِطرة ، وهو الكرامة الإنسانية.

- الرافد الثانى : ينبع من العروة الوثيقة للإنسان مع الأرض التي خُلق منها ويحيا فيها.

- الرافد الثالث: ينبع من الوشائج التي تربط الإنسانية بعضها ببعض.

• الرافد الأول: صيانة الكرامة الإنسانية

قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ آية ٧٠ سورة الإسراء.
- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ آية ٢٩ سورة الحجر.
- ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ آية ٦٤ سورة غافر.

فالخالق الكريم سبحانه قد كرم الإنسان وفضله على كثير ممن خلق ، فاختاره ليكون في الأرض خليفة ، وسوّاه بيديه تعالى ، ونفخ فيه من روحه القدسية ، وأسجد له الملائكة أجمعين ، وعلمه الأسماء الحسنى ، وأخذ على ذريته العهد الوثيق بأنه سبحانه وتعالى هو ربهم الأعلى ، وأعدّ لآدم وزوجه تجربة الجنة قبل استقبالهم الحياة الدنيا، وبذلك، نالت النفس الإنسانية الشرف الأعظم ، وتجلّت عليها نفحات وأقباس من صفات الجمال والكمال والجلال الربانية، خاصة من التسوية ومن نفخة الروح القدسية ، وصار الإنسان بهادون باقي الخلق صاحب: ” عِزَّة ، وَكَرَامَةٍ ، وَرَحْمَةٍ ... إلخ ” ، ولكن بقدر وسع النفس لها وبحسب احتياجها لها في عالمها الجديد (عالم الدنيا).. ولذلك، فإن الحفاظ على الكرامة الإنسانية وعلى هذه الصفات الشريفة هو أمر واجب على الجميع

، كما وأنه فرض إجتماعى ودينى على كل إنسان ، سواء تجاه ذاته هو أو تجاه الآخرين ، هذا الأمر جدير بأن يحظى بالحماية وبالتشجيع فى أوساط المجتمعات باعتباره رافداً من روافد الحرية ، وكل فعل أو قول يجب ألا ينتهك هذا النطاق وإلا صار فعلاً شائناً ومحظوراً..هذا هو الرافد الأول للحرية.

الرافد الثانى: صيانة الرابطة بين الإنسان والأرض

ذلك لأن الصلابة والروابط التى بين الإنسان والأرض لا تقل عما بينه وبين الأم من صلة رحم وثيقة ، فهو مخلوق من طينتها ، ومُسْتَنْبَت منها ، ومُكَلَّف بتعميرها ، وحياته كلها فى رحابها ، وقد هيأها الله له ومهدّها وأعدّها وجعلها له سكناً ومأوى ، وبعد الموت سيعود كل إنسان إليها تارة أخرى ، وسيُخرج منها يوم البعث للقاء ربه الأعلى سبحانه وتعالى..فقال تعالى :

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.. سورة الحجر آية ٢٨ .
- وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ آية ١٨ سورة نوح.
- ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. آية ٦١ سورة هود.
- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ

مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ آية ٧٤ سورة الأعراف.

• ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ﴾ آية ٢٨ سورة الحجر.

والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه الآيات الكريمة التي أشار فيها المولى عزّ وجلّ إلى تلك الصلة الوثيقة بين الإنسان الأرض التي هي لنا جميعاً كالأم لأبنائها ، ومن باب العدل والحق والإنصاف فإن الفطرة مأمورة بأن ترعاها وأن تتعهد بها بالتعمير والسلام ، فما يجب النكوص عن تعميرها ورعايتها والتعهد بها ، إنها علاقة حميمة تجعل بين الإنسان والأرض عروة وثيقة ما يجب أن ينفك عنها ، ويجب أن ينفق حرите من أجل تعميرها.. وذلك، أمر واجب على الجميع باعتبارها رافدا من روافد الحرية الإنسانية.

وبإمعان النظر في الآية الشريفة من سورة نوح ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
نَبَاتًا﴾. حيث جاءت بحرف الجر (مِنْ) وليس حرف (في) لتبين لنا أن كل ما يجري في عروقنا ومشاعرنا وأحاسيسنا ووجداننا إنما جاء من أقمنا الأرض ومن الوطن الذي يضمنا جميعاً ، فحماية أوطاننا واجب وفرض ديني يتطلب التضحية من أجلها بالغالي والنفيس وبالدماء والأرواح ، والنكوص عن ذلك خيانة وإثم عظيم.

فكل فعل أو قول من شأنه توثيق عرى الإنسان بالأرض وتعميرها بصالح الأعمال هو من الحريات الرشيدة التي تساهم في رقي وتقدم الأمم فضلاً عن إسهامها في نشر الطمأنينة والسلام في المجتمعات ، وكل فعل أو قول دون ذلك إنما هو تعدٍ على ناموس الحرية ، وهو انفلات وفوضى وشروء خارج مجال الحرية الراشد ، ولا يعود على الأرض أو المجتمع إلا بالدمار والخراب ، لهذا..فهو ضد الفطرة وفي غير صالح الإنسانية..ذلك هو الرافد الثاني للحرية الإنسانية : ” توثيق عرى الإنسانية بالأرض بعدم الإفساد فيها والمساهمة في تعميرها ”.

- الرافد الثالث : صيانة الروابط الإنسانية.
- فكل الناس أخوة ينتمون جميعاً الى أصل واحد (آدم عليه السلام) ، جاءوا جميعاً من صلبه يحملون الفطرة التي فطره الله عليها. قال تعالى :
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ . آية رقم ١ سورة النساء.
- ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ . آية ٢٨ سورة لقمان.
- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ آية ١٨٩

سورة الأعراف.

• ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ آية ٩٨ سورة الأنعام.

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « كلكم لآدم وآدم من تراب..»..
الجامع الكبير للسيوطي.

فأى إنسان له بُعدان وُجُودِيَّان ، أولهما التفرد والتميز الذاتي ، وثانيهما البُعد الإنساني ، فأما البُعد الإنساني فله اتجاهان (الحُمة وسُدادة)، أحدهما زمني والآخر مكاني ، فأما عن الاتجاه الزمني (اللُحمة) فذلك لأن كل فرد ينتمي بجذور ضاربة في أصولها الممتدة في عمق التاريخ الإنساني لتصل إلى الأب الأول « آدم » عليه السلام ، ويلتقي هنالك مع الناس جميعاً ، والبعد المكاني (السُدادة) يتأتى من أن كل فرد ينتمي إلى أسرة توجد بين أفرادها أواصر الدم وصلة الرحم ، وتنتمي الأسرة إلى عائلة فقبيلة فحى وبطن وشعب ..وهكذا، الأسرة الإنسانية جميعها يربطها وشائج الانتباء برباطين أولهما ضارب في أعماق التاريخ الإنساني ، وثانيهما برباط عنقودي مكاني وعلى مستوى الزمن الواحد كنسيج من حُمة وسُدادة ، وتركيزية هذا الإحساس الفطري «بتلك الروابط الإنسانية الوثيقة» ينزع من القلوب أباطيل العصبية ويذيب من النفوس مفاخر العنصرية ، وينقى القلوب من الأحقاد والضغائن وسوء الظن ، ويمحو نزعات

الغل ، ويعطر النفوس بالسلام ، يأخذ بعنق الحرية فلا تتخطى المجرى
المرسوم لها كلما أهاجتها النوازع العصبية أو الدوافع الغريزية.

هذه الوشائج التي تربط بين كل الناس تمثل عقدا إنسانيا وثيقاً يفرض على
كل إنسان واجبات ويتيح له حقوقاً مع سائر الأسرة الإنسانية ، فتلك الحقوق
والواجبات ما هي إلا نطاق الحرية لكل إنسان ، فإذا ما خرج عنها أى فرد
كأنما أخرج نفسه من نسيج الأسرة الإنسانية ، وإذا ما اجتراً على هذا الناموس
فعلى الأسرة الإنسانية فرض تقويمه وإعادةه إلى نسيجها مرة أخرى _ ولو جبراً _
_ كمثل ما يحدث فى الجسد إذا ما اشتكى منه عضو فيتداعى له سائر الأعضاء.

فأى تصرف إنسانى من شأنه أن يضمن الروابط الإنسانية الوثيقة بين
الناس - كل الناس - هو عملٌ متدفق فى مجال الحرية وفى صالح الإنسانية ،
وما كان دون ذلك (بدءاً من العُبود فى وجه الآخر وانتهاء بإراقة الدماء
وإزهاق الأرواح) فهو تجاوز للحرية وانتهاكاً لها ودعوى للاضطراب والفوضى
فى المجتمعات.

تلك هى الروافد الثلاث للحرية الإنسانية الرشيدة ، إنها أشبه بروافد
النهر التى توصل له المياه من المنبع ، فالحرية كذلك روافدها جميعها تنبع
من البحيرات العظمى للفطرة الإنسانية وتصب جميعها فى صالح الإنسانية وفى

تعمير الأرض خيراً وسلاماً ، وكل من يتجاوزها أو يهتك ميثاقها فإنه يرتكب إثماً في حق نفسه أولاً وإثماً عظيماً في حق الإنسانية جميعها ، فضلاً عن كونه خروجاً على ميثاق الفطرة وعلى مقتضيات وتوجهات الشرائع والأديان جميعها.

هذه الروافد تجعل غالبية الأنشطة الإنسانية على مستوى الفرد أو الجماعات هي الأنشطة الحرة ، أما ما هو محظور فإنها أعمال هامشية ونسبتها إلى الأعمال الحرة كنسبة الشجرة التي أمر الله آدم وزوجه أن لا يقرباها إلى باقي أشجار الجنة ، أو كنسبة الفاعد من مياه النهر - بسبب البخر أو غيره - إلى باقي الماء الجارى بين صفتيه ، فالأصل في الإنسان هو الحرية ، والدين الإسلامى حريص على تمتع الإنسان بقدر متعاضم من الحرية ، فمن التوجيهات الإسلامية الراسخة أن لا يسألن أحد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أشياء ربما ينزل بسبب السؤال ما يكون فيه من الحظر والمنع ، فتضيق بذلك، سُبُل الحرية التي أرادها الله أن تكون رحبة وواسعة على قدر وسع الفطرة وعلى قدر اتساع الكون ، لا تضيق فيها ولا قيد إلا فيما ندر ، فإن الله تعالى قد سكت عنها رحمة بالناس. فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ الآية ١٠١ سورة المائدة «..وورد في تفسير الآية لابن كثير.. أن المُراد بقوله « وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ » أى لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد يُنزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضيق

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « أَغْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُزْأً مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ ».. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا ».

الحرية إذن إنطلاقة غير محدودة ولكن في مسارات تقتضيها أصول الفطرة ومحسوبة بحساباتها قبل أن تكون منضبطة على مصالح الجماعة ، والقول الشائع بأن الحرية هي أن تفعل ما تشاء على أن لا تضر بالآخرين هو قول قاصر ويجافي الحقيقة.. فالحرية بمعناها ومغزاها الفطرى ودورها المؤثر والبالغ في المسيرة الإنسانية ما يجب اختزالها في هذا النطاق الضيق فهى أوسع وأعمق من ذلك بكثير.

والنظر للحرية في هذا الإطار الفطرى يُضَيِّقُ من مساحة الاختلاف عليها ويجعله هامشيا سواء كان بين الأفراد أو بين الشعوب والأمم ، كما وأنها ثابتة مع دوام الأزمان ولا تتغير بتغير الأهواء أو المصالح أو السنين، مفهوم الحرية الذى يرتكز فقط على المصالح يزد من هوة الاختلاف بل تمتد إلى التنازع والخلاف خاصة فيما بين الأمم والشعوب ، ذلك لأن المصالح متغيرة بطبيعتها وبأحوالها

وأهدافها وغاياتها، وتتدخل فيها عوامل كثيرة من الواقع الجغرافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى وعوامل الزمن المتغيرة.

والواجب على الأمم أن تنهض بهذه الروافد الفطرية للحرية وأن تدعمها بدعائم ثابتة، وذلك بأن تبصر الناس بأمرها وبدورها الفعال فى نشر غطاء السلام والأمن على سائر الأرجاء ، وفى تقويم مسيرة الأمة بأسرها نحو التقدم والرقى وفضلها البالغ فى إغداقها بالخير للكافة.

* * * * *

مفاهيم الحرية

تحدثنا عن إطارى الحرية وروافدها الثلاث ، ونذكر بأن الإطارين أشبه بضفتى النهر اللتين تحميان المجرى وتصونان المياه من التسرب الطائش أثناء انسيابها من المنبع إلى المصب ، وأما الروافد فهى أشبه بروافد النهر التى توصل له المياه من المنبع لتلتقى جميعها فى المجرى الواحد.. هكذا نهر الحرية الإنسانية - فالرحلة الإنسانية، ومنذ بدأ الإنسان يخطو خطواته الأولى على وجه البسيطة - وإلى أن تقوم الساعة، أشبه بهذا النهر الجارى فى رحلته من المنبع إلى المصب ليهب الحياة لكل ما حوله ويمنح الخير والجمال والظلال ويشع فى النفوس صفاء

وسحرًا وانتشاءً على طول مساره، ويمثل ما للنهر من أطرٍ وضوابط تحكم مسيرته
فللحرية الإنسانية كذلك، معايير ضابطة تدرأً جنوحها وانفلاتها وشططها.
إلا أننا أمام إشكالية تتطلع لأن نفك طلاسمها ، ذاك أن الحرية مازالت
تطوى أسراراً لم تُكتشف بعد ، فمعناها ومفهومها يختلف بين جماعة وأخرى
وبين فرد وآخر ولا يدركها كل الناس على نحو ثابت كصفاء أو عذوبة ماء
النهر بل إنها ترتدى أثواباً متفاوتة بحسب الثقافة العامة في الشعوب والأمم ،
وكل أمة تنظر إلى معناها ومعاييرها بغير العين التي تراها أمة أخرى ، بل إن
معاييرها تتغير في المجتمع الواحد بتغير أحواله من حقبة إلى أخرى ، ذلك لأن
الفكر الإنساني اكتفى بأن ينظر لها بنظرة شمولية عامة أشبه بنظرة طائر يطير
في عنان السماء ، فلم يلتمس منها إلا خطوطها العريضة ومعالمها الظاهرية ،
ولم يتسنى له أن يلتقي بالنظرة الفاحصة الدقيقة على ما بين الأفعال الحرة من
خصائص مشتركة ، وبمعنى آخر أنه لم يبدى اهتمامه بالنظر في طبيعة ومعايير
الفعل الواحد الحر - باعتباره الوحدة الصغرى لمجرى الحرية الواسع والممتد ،
ولم يُمعن فيه بالنظرة الفاحصة لاستبيان العناصر التي تجعله مشمولاً بالحرر
ويستحق فاعله مطلق الحرية للقيام به ، فبمثل هذه النظرة الميكروسكوبية
للأفعال الحرة يمكننا التعرف بصورة أعمق على المعايير التي يمكن أن نزن بها
أفعالنا (صغيرة كانت أم كبيرة)، لنعرف هل ثقلت موازينها فتنمتع بالحرية
أم أنها أفعال خفت موازينها وصارت من الغوغائيات المنفلتة المحظور الإتيان
بها أو المنهى عنها.

فإذا ما أردنا التعرف على ما بين الأفعال الحرة من معايير وخصائص دقيقة تجعلها مشفوعة بالحرية فالأمر ليس بالعسير ، وبإمكاننا أن نفعل ذلك قياسا على ما يقوم به أهل علوم الفيزياء عند فحصهم خصائص العناصر السائلة حيث يقومون بفحص قطرة واحدة منها فحصاً ظاهرياً ثم يتناولوها بالفحص الدقيق والتحليل المعملي..فلدى فحص الماء العذب - على سبيل المثال - يتبين أن خواصه الظاهرية تنحصر في : أنه سائل شفاف ، غير لزج ، عديم اللون ، عديم الطعم ، عديم الرائحة ، يتحول من الحالة السائلة إلى الحالة الصلبة عند درجة حرارة 4 مئوية ويصير ثلجا متجمدا ، ويتحول إلى الحالة الغازية عند درجة 100 مئوية (درجة الغليان) ويصير بخارا - أما خواصه العملية فهي: أن الجزيء الواحد منه يتكون من ذرتين هيدروجين وذرة واحدة من غاز الأوكسجين - وأن كثافته جرام واحد لكل سنتيمتر مكعب...إلى آخر هذه الخصائص التي تميز المياه العذبة عن غيرها من السوائل..والنتيجة : هي أن خصائص القطرة الواحدة من النهر هي نفس خصائص مياهه جميعها ، وبإمكاننا أن نستعير هذا التوصيف من أهل علوم الفيزياء عند حديثنا عن طبيعة الفعل الواحد الحر ، فنقوم بتحليله لنحدد خصائصه التي تميزه عن غيره من الأعمال الأخرى المحظورة ، ليستحق أن يُمنح فاعله الحرية المطلقة عند أدائه ، وليتسنى وضع الضوابط الدقيقة التي من شأنها ضبط مثل هذه الأفعال لدرء مفاسدها عن المجتمع ، ومن ثم نستطيع أن نتعرف على المعايير التي تضمني صفة الحرية على الأفعال جميعها.

فأفعال البشر وأقوالهم وانفعالاتهم إما أن تكون صالحة بجلاء وليس من حق أحد أن يفرض عليها قيودًا أو حدودًا ، وتُمنح الحرية المطلقة لمن يريد القيام بها لأنها تساهم بشكل مباشر في إصلاح المجتمعات ، وإما أن تكون أعمالاً مُنكرة وفسادها واضح بين للجميع فتتبارى المجتمعات والشعوب إلى الحد منها أو العمل على منع حدوثها درءاً لخطورتها الشديدة، إلا أن بونا شاسعا بين هذين الطرفين المتباعدين ملء بالأفعال المتشابهة والمتداخلة للدرجة التي يصعب توصيفها من جهة الفساد أو من جهة الإصلاح ، لذا فمن الضرورة أن نبحث عن المعايير التي نحدد بها طبيعة وخصائص أى فعل يمكن القيام به بمطلق الحرية وما دونه من الأفعال الفاسدة التي تستوجب المنع والحظر.

وبمثل ما يحدث فى معامل الفيزياء لتحليل قطرة الماء - كما ذكرنا - بإمكاننا كذلك، أن نضع المعايير التي تميز الأفعال الحرة عن غيرها من الأعمال والأقوال .. ولن يجهدنا البحث.. فلدينا دستور لا يغفل صغيرة ولا كبيرة فى شأن الفطرة الإنسانية إلا أحصاها.. ألا وهو القرآن الكريم ، ولدينا هدى نبويا شريفا ، وبين أيدينا السيرة العطرة لصاحب الأسوة الحسنة (صلى الله عليه وسلم) لنقتدى بها.. فقط علينا أن ننظر فى أنفسنا وأن نتدبر أحوال وانفعالات النفس وتوجهات الفطرة الإنسانية.

وبعد استقصاء هذا الأمر، فإننى أرى أن المعايير الظاهرية للفعل المشمول بالحرية يمكن حصرها فى أربع خصائص :

- أول هذه الخصائص: أن كل عمل حُر مآله المصلحة ، أى يحقق مصلحة فردية أو جماعية أو يدرأ مفسد حالة أو وشيكة ، ودون أن يترتب عيه مفسد أو أضرار تصيب الغير...

- وثانيها : أن لا يناقض الفطرة الإنسانية .

- وثالثها : أن يخلو من شوائب الغل والحسد إلا بحقهما.

- ورابعها : أن يكون فى إطار تعاليم وتوجيهات الدين .

فكل الناس جميعا أحرار فى القيام بأى عمل يحفظ هذه السمات الأربع ، وكل الناس محظورٌ عليهم بذل حريتهم فيما يناقض أياً من هذه الخواص الأربع. وسنتناول هذه المعايير والخصائص بشئ من التحليل والإيضاح والتفصيل

فأما عن الأعمال الصالحة : فمنها الكثير ما لا نستطيع توصيفه حال حدوثه لاستخفاء عوامل الإصلاح به، ثم يتضح بعد وقت - قد يطول - أنها تنطوى على مصالح هامة سواء للأفراد أو للجماعات ، ويكون حُكمنا عليها أول الأمر ليس كآخره ، بل إننا قد نُرَجِّح فسادها ابتداءً وقبل استجلاء المصالح التى تطويها ، وقد يرجع ذلك لبعض أسباب منها الحالة النفسية التى عليها الفرد أو الجماعة وقت وقوع الفعل فلا يحوز القبول ابتداءً لعله أو لعقدة نفسية ، فالحالة النفسية غير السوية لها تأثيرها المباشر فى الحكم الخطأ على الأمور ، ومنها كذلك أن بعض الأعمال تبدو غير صالحة وغير فاسدة فى آن واحد وكأنها لا تنتمى لأى من الطائفتين إلا أن التجارب تكشف لاحقاً بعض خباياها التى

تقربها من جانب وتبعدها عن الآخر ، ونستطيع وقتها أن نحدد لأى الفريقين تنتمى ، وثالث الأسباب هو أنّ من الأعمال ما لا يمكن قبوله فى زمن بئد أنه يمكن قبوله فى زمن آخر بحسب اتجاه الحركة الثقافية والفكرية والاجتماعية فى المجتمعات ، وبالتالى يختلف الحُكم عليه بين حقبة وأخرى من حيث القبول أو الرفض والنفور.

وجدير بالذكر هنا أن أذكر واقعة حدثت فى الولايات المتحدة الأمريكية فى العقد الثالث من القرن الماضى ونقلتها إحدى الدوريات فى سبعينات القرن الماضى ، وتحكى الواقعة أن أستاذا بإحدى الكليات الجامعية قدّم مذكرة يطلب فيها معاقبة أحد الطلاب لأنه ارتكب فعلا شائنا - وقتها - بتدخين سيجارة فى قاعة الدرس رغم تحذيره ، وصدر القرار بعقاب الطالب لارتكابه هذا الفعل المشين..فقد كان المجتمع وقتها ينظر لمثل هذا السلوك نظرة مقت خاصة فى دور العلم ، وما يثير العجب أنه بعد ثلاثين عاما قام رئيس نفس الجامعة بتوجيه إنذار لهذا الأستاذ - الذى أصبح عميداً - لإصداره قرارا بحرمان أحد الطلاب من حضور بعض المحاضرات بسبب إصراره على التدخين فى قاعة الدرس ، فقد تغيرت نظرة المجتمع الأمريكى - وقتئذٍ - لمثل هذه السلوكيات باعتبارها من الحريات الشخصية المقدسة التى يجب أن تظل مطلقة ومصونة!، ومن العجيب كذلك أن هذه النظرة قد تغيرت مرة أخرى فى حقبة تالية على أثر الصيحات العلمية والإعلامية المحتدمة والمُنذرة بخطر التدخين على الآخرين

- فيما سُمي بالتدخين السلبي - غير ما فيه من انتهاكٍ لحرية الآخرين، فالفعل في كافة أحواله كان واحدًا إلا أن الحكم عليه قد تغير أكثر من مرة بتغير المفاهيم في المجتمع.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف لنا أن نحكم على الأفعال حكمًا صحيحًا من حيث إدراجها في إطار الحرية دون انتظار أى تغيير يطرأ لاحقًا على أحوال المجتمع ؟ فالحكم على معظم الأفعال على الوجه الصحيح قد صار - بذلك - صعب المنال ،..بيد أننا لسنا في مأزق لأن المولى سبحانه وتعالى وضع لنا المعيار الذى نستطيع به الحكم على الأفعال حكمًا صحيحًا لنسترشد به دائمًا فلا تفوتنا فرصة إصلاح وإن كانت خافية ، ولا نتمسك بأمر فاسد يأتى بثوب زائف..فقد أجملت الآية التسعون من سورة النحل هذا المعيار فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وهى أجمع آية فى القرآن الكريم قد تجمعت فيها كل أفعال البشر ، فشطرها الأول اجتمعت فيه كافة الأعمال والأفعال والأقوال الصالحة وكل منها فريضة واجبة الحرية ، وشطرها الثانى اشتمل كافة الأعمال الفاسدة وكل منها تستوجب المنع والحظر ، وليس لأحد حرية القيام بها لفسادها أو لخطورتها على الأفراد والمجتمعات ، وليس علينا إلا أن نضع كل فعل مُحْتَلَفٌ عليه فى هذا الميزان ، فإن تبين أن فيه عدلاً أو إحساناً أو صلة رحم أو كان خالياً من الفحش والمنكر والبغى صار فعلاً حراً يتمتع فاعله بكامل

الحرية دون أى تدخل من الغير ، وإن كان ليس عدلا ولا إحسانا وليس عملا من أعمال صلة الرحم ، أو كان به شائبة من فحش أو منكر أو بغى صار عملا فاسدا ويجب على المجتمعات أن تتحصن منه وأن تحظره.. وإذا ما عدنا إلى الفعل الذى ارتكبه طالب الجامعة بالتدخين فى قاعة الدرس والذى اختلفت فيه نظرة المجتمع الأمريكى بين حقبة زمنية وأخرى - وقياسا على هذه القاعدة - نجده عملا محظورا فى الأصل ، لأنه قد اشتمل على منكر فضلا عما فيه من بغى على الآخرين بتأثرهم السلبي وتعرضهم للضيق والمرض ، وعندما نزن هذا الفعل بهذا الميزان القرآنى نجده - فى كل زمن - منتهكا لمعايير الحرية دون النظر للمفاهيم السائدة فى المجتمع وقتها.. وتظل تلك النظرة الواقعية ثابتة على الدوام ولا تتغير مهما تغيرت أحوال المجتمع ومهما طال الزمن.

ومن خصائص الفعل الحر كذلك أن يقتضيه صالح الجماعة أو الأمة أو صالح الإنسانية جميعها ، ومعيار ذلك هو أن مصلحة الجماعة تتقدم على المصلحة الفردية وذرة المفساد يتقدم على تحقيق المصالح.. وقد ينطوى الفعل على مصلحة فردية لفاعله فشرطه ألا ينطوى على مفسدة لغيره من الناس أو البيئة.. فلا ضرر ولا ضرار.. كما قد يأتى الفعل لدرء مفسد حالة أو وشيكة من شأنها أن تصيب فاعله أو أى من الغير بضرر ، فدرؤها واجب شريطة أن كل فعل يُقدر بقدره ، وأن يبذل له الاحتياطات الواجبة حتى لا يترك آثارا من شأنها أن تحدث ضررا بالآخرين.

ويمتاز الفعل الحر عن غيره من الأفعال التي لا تحظى بالحرية بأن تقره الشرائع السماوية ، فمن الأعمال ما هو فاسد لذاته ، ولكنه يتحول إلى عمل مباح في ظل ظروف استثنائية ويستحق فاعله الحرية إذا جاء في إطار الشريعة وتوجيهات وتعاليم الدين ، فقتل أى نفس إنسانية - مثلاً - يُعد من كبار الأفعال الشائنة الواجب حظرها على العموم ، إلا أنها ليست كذلك وقت قتال الأعداء أو عند القصاص الذى يقوم به ولى الأمر ، أو عند الدفاع عن النفس إذا ما كان خطر الموت حال ، ففي مثل هذه الظروف الاستثنائية يتحول الفعل من عمل محظور إلى عملٍ يستحق الحرية ، لأنه يُعيد استواء ميزان العدل أو يدرأ عدواناً وشيكاً ، وهذا ما تقره الشرائع ، وكذلك قتل الحيوان ممنوع لذاته لكنه في ظل الشريعة عمل مباح ولفاعله حرية القيام به كالصيد والذبح للطعام والإطعام شريطة أن يكون دون بغى أو عدوان .. والتجسس بين الناس عمل محظور ومنهى عنه لكنه مع الأعداء عمل من الأعمال الواجبة ، وتقبيل الحجارة عمل لا تُقبل عليه النفس لكن تقبيل الحجر الأسود لدى المسلمين عمل جائز وواجب شرعاً لمن يستطيعه من زائرى البيت الحرام والعاكفين والمعتمرين والحجيج.

ومن أهم خواص الفعل الحر أيضاً : أن لا يُقلق مضجع الفطرة الإنسانية ، فكل الأفعال التي تعفاها النفس أو تثير فيها اضطراباً من خوف أو فزع أو رعب أو فوضى وإزعاج..أو أدنى ضرر نفسى فطرى فإنها أعمال يجب أن تتحصن المجتمعات منها لأنها تنطوى على مفسدة ، ذاك لأنها مقلقة للفطرة

السوية وتحدث ربكة بالنفوس فتضرب معها أحوال الناس.

وتجدر الإشارة هنا إلى المدنية الغربية.. فنحن نراها وقد اختزلت الحرية في مبدأ واحد لا غير وهو أن تفعل ما تشاء على أن لا تضر بالآخرين ، وليس أدل على ذلك من ما ذكره أحد أهم مفكرى الغرب وهو الفيلسوف والاقتصادي البريطاني: "جون ستوارت ميل" في كتابه الكلاسيكى: "عن الحرية " ، حيث قال: (..إن الفرد ليس مسؤولا أمام المجتمع عن أفعاله ، طالما أنها لا تخص أى شخص سواه . فالنصيحة، والتوجيه، والإقناع ، والاجتناب من قبل الآخرين ، إن اعتقدوا أن ذلك ضرورى لأجل مصلحتهم ، هى الإجراءات الوحيدة التى يستطيع المجتمع أن يعبر من خلالها عن كرهه المبرر أو رفضه لسلوكه ، أما بخصوص الأفعال التى تلحق الضرر بمصالح الآخرين، فإن الفرد مسؤول عنها، وربما يخضع للعقاب الاجتماعى أو القانونى ، إذا ما رأى المجتمع أن هذا العقاب أو ذاك ضرورى لأجل حمايته" ..ويؤكد " ميل" أن الغاية الوحيدة المكفولة للبشر، بشكل فردى أو جماعى ، وبالتداخل مع حرية تصرف أى عدد منهم، هى مبدأ حماية الذات" ..ويضيف: "إن الغاية الوحيدة التى يمكن ممارسة القوة فيها بشكل شرعى على أى عضو فى المجتمع المتحضر، ضد إرادته ، هى منع إلحاق الأذى بالآخرين.. إن الجزء الوحيد من سلوك أى فرد، والذى يطبع فيه المجتمع ، هو ذلك الذى يتعلق بالآخرين ، أما فى الجزء الذى يخصه هو فقط، فإن استقلاله مطلق بحق.. إن الفرد سيد على نفسه ، وعلى جسده، وعقله).. هذا

ما ذكره واحد من أهم الفلاسفة الغربيين ، وهو النموذج الأوفى للفكر السائد في الثقافة الغربية عن الحرية ، وهو فكر قاصر لم يرى من الحرية إلا زاوية واحدة فقط وهى زاوية المصالح والغرائز لا أكثر.

لكنهم أرادوا أن تنفلت الغرائز الجامحة من عقلاها بلا ضابط ، ولم يلتفتوا لنداء الفطرة السليمة، وهى الغالبة على أمرها ، ونسوا أو تناسوا المواعظ التى أشارت إليها الكتب السماوية ليعتبر بها الكافة ، فصير الأقوام الذين دنسوا الفطرة بما أنزل الله عليهم من رجزٍ فى الدنيا، كقوم لوط، على مشهد من الجميع ، إلا أن أهل الغرب قد استكبروا وظلوا مستمسكين بما اقترفوا فى حق الفطرة ، وتفشى فيهم الفحش والشدوذ غير عابئين ، وعلت أصوات الصفوة فيهم لتنادى بحق الشواذ من الرجال والنساء بإقامة علاقات زوجية مثلية أى رجال مع رجال ونساء مع نساء مثلهم طالما أرادوا هم ذلك ، بدعوى أنها من الحريات الشخصية المقدسة التى يجب إطلاقها إلى أقصى مدى ، ليس هذا فحسب بل ووضعوا من القوانين ما يضمن الحماية على مثل هذه العلاقات الشاذة رغم أنها جلبت على البشرية أخطر الأوبئة كوباء نقص المناعة الشهير بمرض (الإيدز) فضلا عن آثارها الاجتماعية المدمرة .. فالحرية إن لم تَصُنْ الفطرة لصارت شرا ويلا على البشرية كافة وأولى بها إن تُصَفَّدَ بالأصفاد دون المساس بأصول الفطرة، والفعل الحر كذلك مُحَصَّن من تدخل الغرائز بغير حقها كغريزة الفرج وحقها الزواج الشرعى ، وغريزة البطن وحقها أن يكون الطعام حلالا طيبا... إلخ

وكذلك الفعل الحر يجب أن يكون خاليا من الغل الزائد الذى قد يمنح به عن استقامة الحق وعن استواء العدل ، كما يجب أن لا يكون الفعل الحر تحت تأثير الدفقة العاطفية الجارحة ما لم تقتضيه غريزة استثنائية كغريزة الأمومة ، وأخيرا ، يجب أن يكون مشمولا بالعقلانية وليس فعلا طائشا أو مدفوعا بالهوى.

ولا مانع من أن يكون الفعل الحر مُطعماً بقليل من الغل والحسد (وبحقهما) وأن يكون منبعثا من الإرادة الذاتية لفاعله.. فأما الغل فيجب أن يكون منضبطا دون إفراط ، فذلك حق الغل فى العمل الحر ، فهو غريزة إنسانية فاعلة وليست خاملة ولا مفر منها ولا استثناء فيها ، والغل يتدخل فى القاسم الأعظم من الأنشطة والأفعال التى يقوم بها أى من بنى الإنسان ، وهو الذى يوقد جذوة التنافس الشريف بين زملاء الدراسة أو العمل ، فمثله فى العمل مثل الأملاح المعدنية الذائبة فى المياه العذبة التى تُكسبها أهم خصائص صلاحيتها للتعاطى للأحياء من إنسان وحيوان ونبات ، وهى نسبة يجب أن تكون بتقدير حكيم دون زيادة أو نقصان ، وبالقدر الذى يوقد جذوة الحرارة فى النفس.

وأما الحسد فلا مناص من وجوده ومن تدخله فى الكثير من أفعالنا لكن يجب أن لا نسمح به إلا بحقه وإلا عم الفساد ، وحق الحسد أن لا يتوجه إلا لإثنين كما أرشدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فأما الأولى فهى فيمن

أتاه الله مالا فسُلِّط على هلكته في الحق ، وأما الثانية فهي فيمن أتاه الله علماً فهو يقضى به أو يعلمه ، فذلك كله يصب في مصلحة الجماعة لأنه يحرك الناس في إتجاه التنافس على أعمال البر والخير والعلم والحق والعدل.

وقد يكون الفعل الحر ثمرة من ثمار الموهبة الإبداعية الخلاقة من علوم أو فنون أو آداب أو إبداع تقني أو أى ابتكار فى أى فرع من فروع الأنشطة الإنسانية المتنوعة ، فتلك الأعمال مبعثها غرائز فطرية استودعها الله بعض النفوس لتحقيق صالح الجماعة وصالح الإنسانية كافة ، ويجب أن ندعها تعمل على وسع طاقتها ونمنحها مطلق الحرية شريطة ألا تنطوى على فحش أو منكر أو بغى فذلك منهج قرآنى يجب ألا نغفله عند تقييم مثل هذه الأعمال.

والفعل الحر يجب أن يخضع خضوعاً تاماً لإرادة الإنسان الذاتية الطوعية، فهي التي تدفع به إلى الواقع وتخلق فيه الحرارة والديناميكية وتجعله عملاً ذو أثر في الحياة ، فأما العمل المفروض على الإنسان جبراً دون قناعة ودون ضوابط فهو عمل فى غير مضمار الحرية بل أقرب للعبودية.

وأخيراً كفى بالفعل الحر أن يكون رحمة فقط ، ذاك لأن الرحمة سيدة الفضائل جميعها ، وهي لباقي القيم كالأم لأبنائها ، فالفعل المشمول بالرحمة فيه عدل وفيه إحسان وفيه صلة رحم وانتماء للأسرة الإنسانية عامة ، ومُصَفَّى من أى شائبة من فحش أو منكر أو بغى.. وإنه بحق سيد الأعمال الصالحة دون منازع.

الفاعل الذاتي في الحرية

لكل إنسان غاية ينبغي الوصول إليها ويستجمع لها العزم ويشحذ لها الإرادة ، ويتمنى أن يكون طريقه نحو غايته مُمهّداً بلا عوائق ، إلا أن الحياة الإنسانية مليئة بالإحتكاكات بسبب تداخل المصالح وتشابكها ، وكلما كانت أهداف الناس وغايتهم رفيعة وسامية كلما قلَّ الإحتكاك وزاد السلام ، وعلى العكس من ذلك ، فكلما كانت غايتهم متدنية كلما اضطربت أحوالهم وازداد تأجج الاحتكاك واحتدّ التمدّاع لدرجة الاقتتال ، والمسار الذي يسلكه كل إنسان نحو غايته ليس ممهداً على الإطلاق ، بيد أن ما يعانیه المرء من كدٍ وتعب في رحلته من المهد إلى اللحد هو مهياً له بالفطرة ، فقد جعل الله في قلبه مؤلّدات العزم ووقود الإرادة ومعين الصبر كَعَوْنٍ له في تحطّي هذه الصعاب ، لكن عليه هو أن يزكيها هو بنفسه ، وكل بحسب وسع نفسه.

معوّقات أخرى أعتى من سابقتها وأقسى وهي معوّقات بشرية يضعها كثير من الناس أمام بعضهم البعض لتعرقل حركتهم وتكبل حريتهم ، في أدنى درجاتها حسد وغِلّ ثم تصل إلى درجة الاقتتال وإراقة الدماء وحصد الأرواح ، وحرية الإنسان وقتها تتحدّد بإطارين. الأول: هو مجال الحرية الذي تحدّثنا عنه سابقاً، أما الثاني فهو إطار خاص بالفرد ذاته (أو الإطار الذاتي) الذي يتناسب مع قَدْر الغاية المرجوة ، فيسمّو بِسَمَوِّ الغاية ويتدنّى بتدنّيها ، وفي هذا

الصدد..أعود فأشير إلى قول مفكرنا الكبير / عباس محمود العقاد الذى ذكرناه أنفا والذى أَلَمَح فيه إلى أن قَدْرَ قيمة الحرية لدى كل إنسان ليست على سواء بل يتغير جوهرها من حيث النفاسة، بين فرد وآخر بحسب وُسْع كل نفس ، حيث قال: (..أن الحرية لا تكون سواء فى كل إنسان لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر ولاخلاف المكان والجسد ولاخلاف الصغر والكبر ، ولاخلاف الحركة والجمود..).

نعود فنقول بأن قيمة الحرية ونفاستها تسمو بقدر علو وُسْمُو هدف وغاية الفرد فى الحياة وعلى قدر عِزّة نفسه ، هنا تصبح الحرية عزيزة على من يريد النّيل منها ، حتى وإن قيدوا صاحبها بالقيود وإن كبلوه بالأصفاد وإن عزلوه فى زنانة مظلمة ولو لسنين عددا ، فإنهم بعد كل هذا لن ينالوا من حرّيته شيئا لأنها قد باتت كجوهرة ثمينة لا يفت فيها الطَّرْق - بل سَتُجْهَد هى من يطرقها ، وسيضطر الباغى لأن يتنحى عنها لتصل لغايتها المنشودة دونما عوائق.

وتاريخ الإنسانية زاخر بمثل هؤلاء ”شوايخ الحرية“ ، منهم الأنبياء والمرسلين والصّديقين ، ومنهم كذلك، زعماء التحرير الذين شحذوا العزم وصدقوا النية لتحرير شعوبهم من نير الإستعمار ، كالثائر الأفريقى نيلسون مانديلا الذى بذل حياته فى سبيل فى تحرير شعبه من نير العنصرية البغيض ، وشحذ كل إرادته لهذا الهدف النبيل واستجمع له كل قواه النفسية ، ولم يكن أمامه إلا

سبيل الجهاد ، وما كاد يسلكه حتى قذفت به قوى الباطل فى غيابة السجن ، وظنوا بذلك أنهم تمكنوا منه ومن حرته ، لكن، ما نال البغى منه ولا من حرته شيئاً ، فقد كان هدفه سامياً وكانت غايته رفيعة وكانت إرادته صلبة فأضحت حرته عزيزة المنال ، وبعد قرابة السبع وعشرين عاماً قضاهـا فى ظلمة زنزانة الرطبة أخرج من سجنه ليرفعه شعبه المحرر على عرش حُكم البلاد.. فلم تكن معاناته فى السجن، مهما قست أو طالت إلا مجرد عقبة فى سبيل حرته فاستطاعت نفسه الأبية أن تجتازها ، وها هى قوى البغى تتصاغر أمام غايته السامية وتتخاذل أمام حرته المصونة.. ولم تنل من حرته شيئاً لأن حرته كانت هى حرية شعب بأسره.

وبعد أن بينّا العلاقة بين الغاية والإرادة والحرية والعامل الذاتى لحرية كل إنسان، وأن لكل إنسان وجهة مخصوصة فى حياته تتوافق مع هوى وتشوق نفسه ، أود أن أشير هنا إلى أن الناجحون فى الحياة والسعداء فيها هم من توافقت وجهتهم فيها مع هوى أنفسهم ، ومن المُلِفَت للنظر أن غالبية الناس فى عهود الحضارة تتوافق وجهتهم مع هوى أنفسهم ، وكل فرد حُرٌّ فى اختيار العمل المتوافق مع وجدانه ومع ميوله ومواهبه ، وذلك على غير عهود التخلف التى نجد فيها غالبية الناس مدفوعون للعمل فيما لا تهوى أنفسهم، أو ربما فيما تكره أنفسهم ، فيسبح كل واحد منهم بمجهود مضنى وبِعزم خائر وبإرادة واهية ضد تيار هواه ، والسباحة ضد التيار عسيرة وغير مأمونة ولا يرجى فيها من تقدم ،

بل الغالب هو أن يتلاعب التيار بهؤلاء المساكين ويقذف بهم هنا وهناك أو حتى يعيد البعض للوراء ، فتتداخل الاتجاهات وتختلط الأحوال وتتصادم العزائم وتُنْهَك القوى جميعها ، ومع الوقت تفتقر عزائم الأمة وتخور قواها ، ولا يُجْنى من وراء ذلك إلا الخسران المبين وإلا والفشل الذريع.. وهذا شأن الأمم المتخلفة: اضطرابات محتمة ، فوضى عارمة ، صراعات دامية على غير ما نراه في الأمم المتقدمة المفعمة بالثقة والطموح والأمل والسلام ، تراهم عن بُعد فتظن بأن الجميع قد اتفقوا على المشاركة في عزف سيمفونية عبقرية عنوانها ”تناغم الحياة“ ، ومن هنا يأتي النجاح تلو النجاح ، وجملة: يتحقق الفلاح وتتقدم الأمة على مدرج الحضارة.

* * * * *

الهِرْيَةُ وَالْحَضَارَةُ

المعروف أن خبراء الطرق ينظرون في عدة معايير علمية قبل تعيين مُعَدِّل السرعة بأي طريق ، منها على سبيل المثال : عرض الطريق ، عدد الحارات ، مدى الارتفاعات والانخفاضات والالتواءات بمسار الطريق ، حالة سطح الطريق نفسه ، حالة الطقس والجو ، طبيعة المنطقة المار بها الطريق وهل هي آهلة بالسكان من عدمه.. إلخ، ومن خلال هذه المعايير يضعون مُعَدِّل السرعة التي تضمن تحقيق أعلى معدلات السلامة والأمن ، ومُعدِّل السرعة هذا أشبه بدرجة الحرارة المثلى للإنسان ، فأى تجاوز عنه (سواءً بالزيادة أو

النقصان) إنما يعنى زيادة معدلات الأخطار ، والحرية كذلك لها معدلها الأمثل الذى يجب ألا يزيد أو ينقص .

ولأن الحرية هى أهم عناصر بناء الحضارات فيمكننا بهذا الميزان الحرارى أن نقيس الحضارة ونتعرف على مدى صحتها أو عطلتها ونضع أيدينا على أهم عوامل استمرارها أو فناءها ، وعلى مدى قُرب أو بُعد زوالها ، حتى وإن بدا فى الأفق تقدما زائفا ومتسارعا فى التقنيات العلمية أو فى الحياة المدنية.

وباختلاف الشعوب والأمم حول معنى ومجال الحرية جعل البعض منها - خاصة فى العصر الحديث - تعتمد على الحرية الطليقة المنفلتة من حسابات الفطرة فانفلتت معها الشهوات والغرائز من عقلاها ، وصارت القلوب فجور بلا تقوى واختلت موازينها ، وتفشت فى الأفراد آفات الاحتكار والجشع والطمع والكبر والغرور وتضخم الذات ، وهى جميعها مُهلكات للفطرة ، وتُحول المجتمع تدريجيا إلى بالون زاهى متضخم وسيأتى الوقت الذى سينفجر فيه بسبب بسيط على قدر الشوكة ، ويصير أثرا بعد عين ، رغم هذا، فإن أهم ثمار هذه الحرية المنفلتة هى تفجير الطاقة الإبداعية الخلاقة فى الأمة التى تدفع بها سريعا إلى آفاق بعيدة من الازدهار العلمى والتقدم التقنى والفنى، ذلك لأن هذه الغرسة الإبداعية فى حاجة دائما إلى مُطلق الحرية ، وهذا الانطلاق العلمى والتقنى الذى تحرزه الأمة وبشكل فائق قد يُظن أنه بحضارة إلا أنه ليس بحضارة مكتملة

لأنها لا تجلب السعادة لشعوبها ، ولأن أمدّها - فى حسابات الزمن - قصير ولا يطول ، مثلها فى ذلك مثل لذة الشهوة سريعة الزوال ، فبقدر ماتحمل الحرية المنفلتة من عوامل للتقدم بقدر ماتحمل عوامل الفناء وعمرها فى الغالب قصير جدا من منظور التاريخ...أما الأمم التى تُصَيِّق من نطاق الحرية دون معدلاتها الفطرية فأبناؤها ذوى نفوس قلقّة ويعانون من اليأس والقنوط والإحباط والتواكل والانطواء ، ويتفشى فيهم الفقر والجهل والمرض ، ورويدا ينفجر فى قلوبهم الغل ، وحقبة بعد أخرى يتحول المجتمع إلى مرجل يغلى ، وتنتأج كل ذلك فجائع وكوارث مجتمعية، قد رصدها التاريخ بعناية..ومعدل الحرية يجب يكون من خلال الفطرة الإنسانية وحدّها ، دون تدخل إى من العوامل الأخرى كالمصالح أو الغايات أو الأغراض الذاتية.

جدير بالذكر هنا أن أشير إلى الحضارة الإسلامية باعتبارها الحضارة الأكثر إدهاشا فى تاريخ الإنسانية..ذلك، لاتساع رقعتها من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا فيما يشكل معظم أرجاء العالم القديم ، ولطول بقائها فى التاريخ الإنسانى، ولعمق تأثيرها فى الشعوب ، حيث انتشلتهم من حياة بدائية عسرة إلى حضارة ألفة بالغة الذرى ، وللتقدم العلمى والفكرى والفنى والثقافى الذى أحرزته ، هذا فضلا عن أثرها البالغ فى الحضارة الغربية الحديثة ، فلولا فضلها ما وصلت الحضارة الغربية إلى ماوصلت إليه من تقدم علمى وتقنى بالغ ، والأكثر دهشة وعجب فيمن أقام هذه الحضارة الرائعة ، فهم ليسوا إلا ساكنى

الصحارى والفيافي من القبائل الرُّحْل ومن البدو الأجلاف الأميين البدائين ، كل ذلك لم يكن يحدث فى تاريخ الإنسانية لولا أن الإسلام رسم المجال الأمثل للحرية ، وصان روافدها الفطرية ، وبَيَّن بجلاء معاييرها القويمة دون أن يفرض عليها الرواسف والقيود ، وأعد العدة لتقوية جناح التقوى فى القلوب فَرَشَدَتْ معها الحرية واعتدلت معها موازين الفطرة فى كل نفس ، واستوى الحق بين الناس فعمَّ السلام بينهم ، إلا فيما نَدَرَ لمن استسلموا لغواية الشيطان ، فهى حضارة محصنة بعوامل البقاء ، وكتب الله لها أن لا تغنى ولا تموت ، فقط هى معرضة لأن يصيبها الوهن وشىء من الهزال مثلها فى ذلك مثل كل كائن حى ، وسرعان ما تشفى وتنشط وتدب فيها الحياة وتنهض من جديد ، وتلك هى سُنَّة الحياة..مَوْجَة تليها مَوْجَة ، ولقد ظلت الحضارة الإسلامية على ذلك من علو الشأن واتساع الرقعة وعمق الأثر حتى اقترب ولادة الأمر الخطيئة الكبرى منذ قرون عدة ، وأصابوها فى مقتل بأن نأوا بجانبهم عن توجيهات الدين وغرائس الفطرة ، وصنعوا للحرية قيودا وشهروا لها كل صارم وبَتَّار ، فتخاذل جناح التقوى بالقلوب ، لنصل إلى ما صرنا إليه اليوم من وهن وهزال.

الحقيقة الناصعة فى التاريخ أن ليس من شىء أخطر على الحضارات من قيد وتكبييل الحرية، والحرية - فى هذا النطاق - من أهم لوازم الحضارة ومن أهم عوامل بنائها ، إلا أننا قد نرى بعض تقدم لأمة رغم الإمعان فى قيد الحرية وتكبييلها ، مثلما حدث للشيوعية فى مستهل القرن الماضى ، فسرعان ما تهاوى

تقدمهم قبل حلول العقد الأخير للقرن ، فالحرية قرين الحضارة ، وقيدها أو تكبيلها هو النقيض للحضارة ، وإنما - فقط - قد يتحقق مع القيود خطوة واحدة وسرعان ما تنكفئ الأمة لأنها خطوة عرجاء ، والعبرة هنا : أن أى تطور مجتمعى لم يعتمد على الحرية الراشدة ، هو تطور وهمى سرعان ما يهوى ويزول.. فتاريخ الإنسانية زاخر بمثل تلك الخطوات العرجاء فى مثل هذه اللحظات الشاردة من الزمن .

* * * * *

فَوَافِقُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

الإنسان منذ أن خطواته الأولى فى هذه الدنيا وهو ينزع دائماً إلى الحرية وإلى طلب المزيد منها ، بل يمكن القول بأن مجمل الرحلة الإنسانية ليست إلا مراحل تُنْتَزَعُ فيها القيود قَيْدًا بعد قَيْد ، وتتسع معها آفاق الحرية حلقة بعد أخرى فى سبيل الوصول للحقيقة المطلقة، فكما تحررت الإنسانية من قَيْد وتجاوزت حلقة راحت تنطلق فى هذه الآفاق الجديدة حتى تبلغ مداها ، وهناك تجد حدودا أخرى تُنْتَصَبُ لها ، فتشحن قواها من جديد فى محاولة لإزاحتها ، ثم تقفز قفزة أخرى تتخطى بها هذى الحدود إلى رحاب أوسع فأوسع ، وما زالت فى رحلة القفز المتوالى وكأننا فى مضمار سباق للحواجز!، وهكذا تنطلق الإنسانية على جناح الحرية فى رحلة البحث الدؤوبة عن الحقيقة ، وما المخترعات والاكتشافات والإبداعات جميعها إلا تلك القفزات التى تقفزها

الإنسانية وتجتاز بها الحدود مرة بعد الأخرى ، وتُحطم فيها القيود قيداً بعد الآخر ، لكأنَّ الحرية تُعلن عن ذاتها في تلك القفزات الحضارية التي تتداولها الأمم على مر التاريخ.

فالتحضر أو الرقي ليسا إلا ثمرة من ثمار الحرية ، بل أن تاريخ الإنسانية كله، وفي مجمله ليس إلا رحلة من أجل الحرية وليس إلا صراعاً في سبيل المزيد من التحرر ، فأول خطوة خطاها الإنسان كانت على قدميه ولم تشبع نهمته للمزيد من الحرية فسعى إلى ترويض الدواب التي سخرها له الله ، فأعطته مجال أرحب من حيث سرعة حركتها وطول سفرها وتحمل المشاق ، ولم يكتفى بهذا القدر فقدح زناد فكره واستجمع عزمه لطلب المزيد حتى اخترع العجلة - وهي من أهم المخترعات - التي ساهمت في تنامي حريته وتوسيع أفقها تباعاً ، ثم امتد هذا المجال مرحلة بعد أخرى مع التطورات التي أضيفت عليها حتى صارت عربات وقطارات ، كما لم يكتفى الإنسان بقدرة عضلاته على رفع الأثقال حتى اخترع من الروافع والأوناش العملاقة التي منحتة مزيداً من الحرية ومكنته من رفع ونقل مئات وآلاف الأطنان ومنحتة مزيداً من الحرية، ولم يكتفى بذلك بل تشوق للمزيد ، ووجه ناظره إلى البحار والمحيطات واقتحم عباها وطوى فيها المسافات ، ثم مد نطاق حريته إلى أجواز الفضاء وتملك زمامها بالطائرات وسفن الفضاء ، ولم يكتفى أيضاً بمدى رؤية ناظره ولم يهدأ حتى تمكن من توسيع ساحة الرؤية باستخدام العدسات والمجاهر والمناظير ، وأستطاع أن يمد النظر

فى أجواز الفضاء وفى أطراف الكون بل وفى قلب الذرة وجسيماتها الدقيقة ، كما لم يكتفى الإنسان بطاقة أذنيه على السمع وتطلع إلى مزيد من التحرر فى هذا المضمار حتى تجاوز هذا النطاق المحدود فأخترع من الأجهزة والمعدات التى تتيح له أن يسمع أصواتاً كانت خافية عنه لضعفها ، وأصواتاً كانت مجهولة له لبعدها ، والآن يسترق السمع للأصوات القادمة من أطراف الكون.

هكذا لايفتأ الإنسان يستجمع كل طاقاته فى سبيل المزيد من التحرر ، فنزعتة للحرية على قدر وسع الكون جميعه ، وما زال يسعى وسيظل على سعيه لمزيد من الحرية ولمزيد من التحرر وبذلك بنى الحضارة..وبالحضارة ضَمِنَ الحرية!.

وباختصار: الحرية غرسة ذات جلال فى حنايا النفس ، هى نفحة إلهية إختص بها المولى عز وجل الفطرة الإنسانية دون غيرها من باقى الخلق ، لتجعل الإنسان كائناً مريداً ومسئولاً ، لذا..فهى قُدس أقَداس النفس ، ولها فى القلب مقامها الكريم ومكانتها السامية ، ذاك لأنها الواجهة التى يتطلع بها الإنسان لخالقه سبحانه وتعالى بالإرادة الحرة الواعية وبالتشوّف والتشوق والإيمان ، وبالعمل الصالح ، فما يجب أن نذكر القيود فى حضرتها ، فهى أسمى ما يميز الإنسان ، وهى أدعى بأن نطلق عنانها فى مجالها الذى رسمته الفطرة لتؤدى وظيفتها المقدرة ، والواجب علينا أن نصون مقامها الكريم وأن نحفظ لها مكانتها بالقلوب ،

وننمىها ونرشدّها لا أن نقيدها ونكبلها ، فقط علينا أن نضع لها الضوابط ونعمل على صيانة إطاريّها وروافدها ونسهر على ضبط معاييرها وذلك من خلال نبع الفطرة وحده.

وخير ما نختم به باب الحرية هو أن نشير إلى مبدئها الناصع في دستور الفطرة (القرآن الكريم) ، فهى المبدأ الأسمى من مبادئ التكليف وهى الجوهر الناصع بين جواهر الفطرة.. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ آية ٧٢ سورة الأحزاب.. فحيا أراد المولى عز وجل أن يكلف أحداً من خلقه بحمل الأمانة لم يأت التكليف بالأمر الجبرى أو القصرى بل كان أمراً اختيارياً وحرّاً ، فعرضها الله أوّل الأمر على أقوى الخلق فى عالم الدنيا (السموات والأرض والجبال) وهى إشارة إلى ثقل المسؤولية وإلى فحوى قيمة الحرية - ولما كان لهذه الخلائق مُطلق الحرية فى الاختيار فقد أشفقن منها ، واخترن أن لا يتحملنها لبالغ ثقل المهمة ولجسامة خطرها ، فالحرية أحد أهم ثوابت الوجود.. ونحن هنا فى حِلٍّ عن مناقشة المعنى المقصود من الأمانة وكيفينا أن نعرف أنها مهمة ثقيلة العبء ، فلا يقدر عليها إلا كل شديد قوى.. فمن فيض هذه الآية الشريفة نشتم عبير الحرية ونتلمس جوهرها ويهزنا بريقها اللامع ، فمع التكليف حرية، ومع الحرية نطاق وإطار تنساب فيه الإرادة المنضبطة ، فذاك هو جوهر التكليف، لهذا فالحرية صارت صبغة الفطرة

للإنسان الذى قبل أن يحمل عبء الأمانة فى عالم الدنيا ، ولا يتحمل عبء الأمانة إلا من اصطبغ بالحرية وتحمل مسئوليتها ومن كانت له الإرادة الحرة.. الحرية إذن، ميثاق إلهى وشرعة ربانية فما يجب أن نُشهر لها القيود وإلا أصابها ذلة العبودية .

إنتهى بحمد الله وبتوفيقه

اهم المصادر

- الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها
للدكتور/ حسين مؤنس (سلسلة عالم المعرفة - العدد ٢٣٧).
فلسفة الحضارة الإنسانية د/أحمد عبد الرحيم السايح.
الإسلام دين العلم والمدنية الإمام محمد عبده.
تاريخ وقواعد الحضارات... تأليف / فردناند بروديل ترجمة السفير/ حسين شريف.
قصة الحضارة وول ديورانت.
المقدمة .إبن خلدون.
الإنسان في القرآن عباس محمود العقاد.
الإسلام دعوة عالمية عباس محمود العقاد.
التفكير فريضة إسلامية عباس محمود العقاد.
أثر العرب في الحضارة الأوربية عباس محمود العقاد.
الشخصية الإنسانية في القرآن الكريم .. د/ أحمد عبد الحميد غراب.
مقدمة لتاريخ الفكر العلمى للإسلام .. د/ أحمد سليم سعيدات
سلسلة عالم المعرفة / العدد رقم ١٣١
تحت شمس الفكرتوفيق الحكيم.

ثقافتنا فى مواجهة العصر. د / زكى نجيب محمود.

رؤية إسلامية. د / زكى نجيب محمود.

تجديد الفكر العربى د / زكى نجيب محمود.

التصوير القرآنى للقيم الخلقية والتشريعية أ.د / على على صبح.

إحياء علوم الدين للإمام / أبو حامد الغزالى.

سر تأخر العرب والمسلمين لفضيلة الشيخ / محمد الغزالى.

الإنسان فى الفلسفة الإسلامية د / إبراهيم عاتى.

الحرية تأليف جون ستيوارت ميل - ترجمة / طه السباعى.

التفكير العلمى د / فؤاد زكريا.

المقدمات التاريخية للعلم الحديث تأليف: توماس جولدشتاين

وترجمة: الأستاذ/ أحمد حسان عبد الواحد (سلسلة عالم المعرفة / العدد

٢٩٦).

الفيلسوف المفترى عليه (ابن رشد) دكتور / محمود قاسم.

فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام دكتور / محمود قاسم.

معاً على الطريق (محمد والمسيح) خالد محمد خالد.

فهرس

3	هَذَا الْكِتَاب
5	مَا بَيْنَ الْغَفْوَةِ وَالصَّخْوَةِ
19	الْخَلْقُ وَ الْإِبْدَاع
20.	لَحْظَةُ الْإِبْدَاع
35	مَوْطِنُ الْإِبْدَاعِ فِي النَّفْسِ
39	لِمُسْتَقَرِّ فِي النَّفْسِ
40	أولاً : الغرائز
43	مُودَعَاتُ النَّفْسِ
46	المستودع الثاني :
47	المستودع الثالث :
48	المستودع الرابع :
55	الْإِبْدَاعُ الْعِلْمِي
59	الْإِبْدَاعُ الْفَنِّي
68	المبْدِعُونَ وَالْحَضَارَةُ
72	اسْتِكْشَافُ الْمَوَاهِبِ
81	سِمَاتُ الْمُبْدِعِينَ
83	أولاً : شخصية المبدع المتصلة بعمله

85	مَا بَيْنَ الإِبْدَاعِ وَالْحَرِيَّةِ
89	الباب الثاني
93	العَقْلُ
96	مَعْنَى الْعَقْلِ فِي اللُّغَةِ
97	العقل في القرآن الكريم
99	العقل في السنة النبوية
102	حقيقة العقل في رأى أهل العلم
104	إحتفاء القرآن الكريم بالعقل
112	ما بين الْعَقْلُ وَالْقَلَمُ وَالْعِلْمُ
131	القلم في القرآن الكريم
133	قول بعض المفسرين لمعنى القلم
135	معنى القلم في اللغة
140	النظرة الفلسفية للعقل
146	موقع العقل في الإنسان
151	آفاق العقل
154	شُعْلَةُ الْعَقْلِ
158	غَرْسَةُ الْعَقْلِ
161	الآلية العقلية
163	أولاً : مرحلتى الإحساس والشعور

163	(أ) . الإحساس
165	(ب) . الشعور
168	ثانيا : مرحلة "الإدراك" العقلي
172	ثالثا : مرحلة الإنفعال العقلي
172	(1) البديهيات :
175	(2) وَمُضَّةُ الْخُلُود :
178	(3) قبس الحقيقة :
181	مستودع الشعور
192	ما بين الفؤاد والعقل
194	ما بين العقل والعاطفة
199	الذاكرة والوجدان
202	فضائل العقل الرشيد
205	الباب الثالث
502	الفكر
215	غَرْسَةُ الْفِكْرِ
221	فضل المعرفة على الفكر
223	قول ابن خلدون في الفكر
225	بَوَاعِثُ الْفِكْرِ
233	مُسَسَّ وَفَوَاعِدُ الْفِكْرِ

241	آثار كُتِبَ الفِكر
253	تَقْلِيمُ أَغْصَانِ الفِكر
268	الفِكرُ الرَّاشِدُ
277	مابين الفكر الشرقي والفكر الغربي
293	الباب الرابع
297	الحُرِّيَّة
298	مَعْنَى الحُرِّيَّة
298	(نحو مفهوم جديد عن الحرية)
302	غَرْسَةُ الحُرِّيَّة
314	نطاق الحرية
320	أركان الحرية
322	الركن الأول: الإرادة العقلية.
323	الركن الثاني: نطاق الحرية
327	الركن الثالث: القناعة العقلية
330	الركن الرابع: المسؤولية.
331	مَجَالُ الحُرِّيَّة
338	رَوَافِدُ الحُرِّيَّة
348	معايير الحُرِّيَّة
361	العاملُ الذاتي في الحُرِّيَّة

364

الحُرِّيَّةُ والحَضَارَةُ

368

عَوْدَ عَلَى بَدْءِ

373

أَهْمُ الْمَصَادِرِ

obeikandi.com

رقم الايداع / 10803 / 2014 ط1

الترقيم الدولي / ٨ - ٧٨ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨



مطبعة إبراهيم سالم

٠١٢٠٢٠٣٤٣٦٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧ - ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧